



الإعجاز

في القرآن الكريم والسنة المطهّرة

(الإعجاز البياني)

والتأثيري والغبي والتشريعي)

الطبعة الأولى

الترقيم الدولي: 978-9953-576-58-9 ISBN:

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
ربيع ثانٍ ١٤٤٥هـ - تشرين الثاني ٢٠٢٣م.

يوزع مجاناً وصدقة جارية:
عن أرواح أموات جميع المسلمين والمسلمات

طباعة وإخراج
وليد محمود شكشك ٠٣ ٢١ ٧٦ ٤٣

لبنان - طرابلس

www.3alamatnisurah.com
www.3alamatnisourat.com

e-mail: info@alamatnisourah.com


دار الخلود
للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع

قريطم - بيروت - تليفاكس: ٠٠ ٨٦٢٥٠٠ ١ ٩٦٦+
E-mail: print@karaky.com



الإعجاز

في القرآن الكريم والسُّنة المُطَهَّرة

(الإعجاز البياني

والتأثيري والغيبى والتشريعي)

- المجلد الأول -

جمع وإعداد

المهندس / عامر محمد مدحت كبارة



إهداء

أهدي هذا العمل إلى كل مسلم ومسلمة.

كما أهديه إلى الوالدين الكريمين، وعائلي الصغيرة والكبيرة، والأصدقاء
الأجلاء، والقراء الأعزاء، عسى أن يكون مصدر نفع لهم بإذن الله تعالى،
والله تعالى من وراء القصد.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.





[١] تهجير:

نحن نعيش في بدايات القرن الواحد والعشرين الميلادي، حيث تتسارع التطبيقات التكنولوجية في العلوم على مختلف الأصعدة، بالإضافة إلى وسائل التواصل الاجتماعي، حتى أصبح العالم كله متصلاً ببعضه ببعض بكل ما تُفرِّزه هذه الاتصالات من محاسن ومساوئ، ومن خلال الإحصائيات سنة (٢٠٢١م) تبين أن بعض الدول العربية والإسلامية بصورة خاصة أبنائها هم من أكثر المشتركين في هذه الاستخدامات، ولساعات طويلة في اليوم، وقد تصل في بعض المُدن إلى مرتبة عالية، ضمن المدن الخمس الأولى على مستوى العالم، ومع ذلك فإن هذه الدول والمدن العربية والإسلامية تُعدُّ في منزلة متدنية من القراءة بكل أنواعها إذا قارناها ببقية الدول.

كما أن ثمة انبهاراً غير مسبوق، وتقليداً للعادات والمظاهر لدى شبابنا وشاباتنا المسلمين والعرب بما توصل إليه الغرب والشرق من مَدَنِيَّاتٍ وتقدُّم علمي وتكنولوجي ومادي، ناتج عمّا يسمّى بالحرية والتحرُّر والديموقراطية غير المسبوقة وحقوق الإنسان، ولكن مما يجب أن ننبه إليه أن هذا الإعجاب المثير كثيراً ما يكون على حساب العقيدة والالتزام الإسلامي.

إن الجميع يستشعرُ الخطرَ الأكبرَ من سوء استخدام وسائل التغيير الإعلامية المنتشرة المبرمجة والمهيمنة للأسف على جميع البلاد الإسلامية والعربية أفراداً ومجتمعاتٍ ودولاً، عن طريق تطبيقات التواصل الاجتماعي والعلمي التكنولوجي والذكاء الصناعي، وخصوصاً من المتعصِّبين والحاquدين على الإسلام!

ومن المفيد تحذير الشباب الإسلامي على وجه الخصوص بأن المدنية (الحضارة) الغربية الحديثة يمكنها أن تجلب الرخاء المادي، إلا أنها لا تؤدي بالضرورة إلى تطور الأفراد والمجتمعات، وليراجع الشباب ما يجري الآن في أمريكا والصين على السواء، وبعض الدول الأوروبية والغربية والشرقية، من انتشار لليأس والضياع الروحي، والعزلة الاجتماعية، والانقسامات العرقية الواسعة، والعنف السياسي، وهذا يشكل بداية الانهيار للحضارات، حيث بدأ العديد من الحكومات في مراجعة أوراقها، والحد من العولمة والحرّيات المتفلّطة، وإعادة زرع القيم في الشباب.

نحن لا نتهيب من المنصرين والملحدين في ما يقولون ويكتبون ويُنظرون بعَليّة حول القرآن الكريم والدين الإسلامي ورسوله الكريم مباشرة؛ فهؤلاء موجودون منذ ظهور الإسلام وحتى أيامنا هذه، وسرعان ما تنكشف أضاليلهم وكذبهم بعد مقارعة العلماء الثقات والتمكّنين من الإسلام، وهم كثرٌ بعون الله، ولكننا نستشعر الخطر الأكبر من الخداع والتضليل المنظم، ومحاولات طمس الهوية الإسلامية والتزوير للموضوعات وللثقافة والتاريخ لشبابنا وشاباتنا الذين هم في مُقتبل العُمُر في معظم وسائل الإعلام، مع استغلال لبعض من أبناء جلدتنا للأسف الشديد، كالزعم بأن بعض علماء المسلمين الأوائل كانوا من الملحدين، كالرازي، وجابر بن حيان، وغيرهم... بالإضافة إلى بثّ الإشاعات والتدليس عليهم وعلى علماء وقادة مسلمين آخرين أفاضل، كان لهم السبق والفضل في انتشار الدين الإسلامي والحضارات المتتالية إلى يومنا هذا، كما يقومون بالاستعانة ببعض المنحرفين في تفسير بعض آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تفسيرات خاطئة وخبيثة وعلى غير علم وبِقصد التشويش والتدليس، وفي الوقت نفسه يتمّ تقديم كافة المُغريات والحوافز، وتسهيل المُتّع الخادشة للحياء؛ لاجتذاب الجيل الجديد من المسلمين، للابتعاد عن المواضيع الأخلاقية والدينية والعلمية والتاريخية التي ذُخِرَ بها المسلمون على مرّ العصور، بزعم الحرية

الفكرية، وتحريضُ الأجيال المعاصرة على الأجيال السابقة بحجة عدم مناسبة أفكارهم وتصرفاتهم، وأنهم يشكّلون عائقاً أمام تطلّعاتهم المستقبلية، ولا يستطيعون السير والاندماج في الحضارات العلمية والمدنية الحاضرة، ناهيك عن التهجّم - زوراً وبُهتاناً - على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة من قبل هؤلاء المتعصّبين في بلادنا، والذين يتمنون إلى ما سُمّوا بالعلمانيين الليبراليين الجُدد، الذين يدعون إلى تحرير الفرد من كل القيود المكانية والدينية، والتقاليد والمؤسّساتية والعلاقات، بحجة أن فهم السلف لهذه النصوص هو فهم خاطئ لغوياً وعلمياً، وأن هذه النصوص تتعارض مع العلم والمعرفة والتكنولوجيا المادية التي أصبحت من المقدّسات لديهم، والعياذُ بالله - وهذا زعم كاذب -.

وهذا ما حفّزنا لتقديم طُرُوحاتٍ موضوعيةٍ في هذا الكتاب حول علاقة الإسلام والقرآن بالعلم وأن الدين الإسلامي والسُنّة الشريفة بالذات هي منهج حياة متكامل وليس عبادات شعائرية فقط، وأنّ القرآن يحتوي على أسس الشريعة الإسلامية وإشارات إعجازية، بل هو إعجازٌ علميٌّ بكل المقاييس، وأنّ الإسلام وعلماء المسلمين السابقين قد أسَّسوا للحضارة العلمية الحديثة، ونحن قادرون على استعادة السَّبْق للحضارة الإسلامية إن شاء الله، شرط أن نسترد الهوية الإسلامية.

ومن بين الأهداف الأساسية التي نأمل في تحقيقها من إصدار هذا الكتاب هو:

- تبيان الحقائق ورفع مستوى الوعي حول الحضارة الإسلامية، والقرآن الكريم وإعجازاته، والعلوم التي بيّنها وأشاد بها علماء أعاجم كثيرون، على مختلف أطرافهم، ومن كافة أنحاء العالم، وفي عصورٍ مختلفة.

- إعادة الثقة لشبابنا وشاباتنا بإمكانيات الدين الإسلامي (القرآن والسنة) دستوراً ومنهجاً للحياة، للنهوض بمجتمعاتنا ودولنا، واستعادة قيادة

الرَّكِبِ العلمي والأخلاقي في الوَسَط الذي نعيش فيه، بل للعالم أجمع، وهذا ممكنٌ وليس بمستحيلٍ إذا توفرت الإرادةُ كما توفرت لغيرنا من الأقوام في هذه المعمورة خلال القرنين الماضيين إلى الآن، حيث إن إمكانيات أفرادهم ليست بأحسنَ ولا أفضلَ من إمكانيات شبابنا وعلمائنا، - كما بينَّا لاحقًا عن النماذج العلمية الإسلامية المرموقة - وقد اختبرناهم، ولمسنا هذا الأمر عن ثقة وبيّنة، فلا موانع ولا صعوباتٍ أمامنا لا نقدر على اجتيازها، ولا حُجَجَ لنا بعدم العمل من أجل ذلك، قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَيَسِّرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، وثمة الكثير يُقدِّرون بعشرات الآلاف من العلماء المسلمين والشخصيات المعاصرة والمؤثرة في العالم، ممَّن لهم قيمتهم العلمية والأدبية المرموقة الموجودين في الغرب والشرق، ساهموا وما زالوا يساهمون باقتدارٍ وحِرْفِيَّةٍ في إنجازات هذه المدنية ممَّا يُسمَّى بالحضارة والثورة التكنولوجية الحديثة بكافة علومها في هذا العصر، ويمكن الرجوعُ إلى المصادر الموثوقة لمعرفة مَنْ هم هؤلاء العلماء المسلمون والعرب، وما هي مساهماتهم العلمية، ومعظم هؤلاء قد تلقوا علومهم الأساسية في بلدانهم وهاجروا إلى البلدان المختلفة الأخرى لأسباب اقتصادية أو سياسية بَحْتَةٍ ولا علاقة لها بالدين، ولو توقَّرت هذه المناخات في بلادنا فإنَّنا -بعونٍ من الله- يمكننا استعادة الريادة.

- إن الإسلام منهج حياة متكامل ولكل العصور، وليس شعائر ومناسك تعبدية (كالصلاة والصيام والزكاة والحج وما هنالك) فقط.

- إن أساس ومنبع الشريعة الإسلامية هو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وإن الفقه المستنبط منهما يمكن الاجتهاد فيه لمستجدات العصر كما فعل العلماء المسلمون السابقون في عصورهم.

- استخدام الجذور الثقافية للحضارات السابقة والحالية وتكاملها في العلوم المختلفة، وضرورة ربطها بالقيم الدينية؛ لتقوية التماسك الاجتماعي والتقدير والاحترام بين الشعوب كافة.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا للوصول وتحقيق هذه الأهداف، والله من وراء القصد، وهو نعم المولى ونعم النصير.



[٢] مقترحة:

(التغيير والوعي بالدين الإسلامي ودور علمائه في الماضي والحاضر)

من المُسَلِّمات أنه مع الزمن تَفَرُّضُ قوانينُ التطوُّر وجودَ تغييراتٍ كثيرةٍ في الثقافات بين الأجيال المتعاقبة، والتغييرُ ضرورةٌ حضارية، وتختلف سرعةُ وشِدَّةُ ومدى وحجمُ التطوُّرات في المجتمعات من مجتمع إلى آخر، وتعتمد على مدى تقبُّل كل مجتمع لهذه التغييرات، وفي عصرنا الحالي هنالك تسارع غير مسبوق في تطوُّر المعرفة التي تفرض ضغوطاً كبيرة وكثيرة على المجتمعات الإسلامية، وعلى الجيل الجديد على وجه الخصوص.

نحن على ثقة قوية في أجيالنا الجديدة، وإمكانياتها الفكرية والمادية، على أن يتم تزويدها بالمادة العلمية الموضوعية حول الدين الإسلامي والعلم، مع ضرورة إعطائها كافة الفرص للتغيير المحمود بحريَّة محسوبة، تقوم على الإضافة والدراسة النقدية، وتحليل خطاب الجيل القديم وما أتى به، وأقوال المُشكِّكين وبعض من يترعَّم ما يُسمَّى (تجديد الخطاب الديني)، والأخذ بالجميل والصالح المبنى على الثقافة والمعرفة والمعتقدات الثابتة والقيم الإسلامية، ومنها اللغة العربية، وترك الأفكار والعادات التي لا تصلح، وتُشكِّل عائقاً في اكتساب المهارات العلمية المختلفة، وهذا سيؤدي إلى بناء تراكمي للمعرفة والخبرة والثقافة عند الجيل الجديد، مع حفاظه على الإرث الحضاري المتأصل، والتشبُّت بالأرض والهوية الإسلامية.

لذلك وجب علينا إلقاء الضوء على ما يجري وما يهدف إليه مما يسمَّى بالانصهار العالمي بلا ضوابط (العولمة)، بالإضافة إلى الرد على هذه الافتراءات الكاذبة والظالمة عن الدين الإسلامي، والدول الإسلامية، والقرآن الكريم،

والرسول الأعظم ﷺ، وكذلك على علماء وقادة المسلمين، والتي يجب أن نتدارك تأثيرها السلبي على أجيالنا الحالية والمستقبلية، لتصويب البوصلة لديهم، بحيث يكون تفاعل مجتمعاتنا مع الحضارات والمدنيات المختلفة وفي وسائل التواصل بالبحث الصائب، والتعلم الموضوعي، والتطبيق والتنفيذ على أرض الواقع على بصيرة؛ لإعادة ما فقدناه من تقدم نتيجة سوء الممارسة والتطبيق، دون التأثير السلبي على معتقداتنا وأخلاقنا وقيمنا وثوابتنا التي نفخر بها.

ونحن على يقين بأن شبابنا المسلم - بكل أطيافه - يستطيع اللحاق برُكْب هذه المدنية المُستجِدَّة، مع الحفاظ على دينه؛ لأن الإسلام منهج حياة أنعم الله به علينا، وارتضاه الله تعالى للبشرية كلها، وختم به الرسالات السماوية، وهو منهج متكامل، ونحن نلفت نظرهم إلى الحقائق التي شهد بها العلماء الغربيون والشرقيون الموضوعيون - قبل غيرهم - حول الإسلام وحضارته وإسهاماته السابقة والحاضرة في التقدم العلمي في كل ميادينه، مع الحث على التعلم بشتى أنواعه؛ حيث إنه قد طُبِّقَت تعاليم هذا الدين الحنيف لحوالى ألف سنة تقريباً بين القرن السابع الميلادي ولغاية القرن السادس عشر ميلادي، وأسفر ذلك عن تقديم حضارة متميزة، ذات أسس أخلاقية، وضعت الأسس العلمية والتجريبية للمدنية التي نشهدها اليوم.

ودليلاً على ذلك ننقل ما ورد في كتاب «التفوق العلمي في الإسلام» لكاتبه «أمير جعفر الأرشدي» المنشور في سنة ١٩٩٠ في بيروت، -وهو مهندس وشاعر وكاتب عراقي- إيراني حصل على دبلوم علوم الهندسة الكهربائية من اليابان، وله عدة مؤلفات (توفي في سنة ١٩٩١ م). - وقد ترجم ونقل رسالة شاب فرنسي كان يتعالج في مستشفى إسلامي في الأندلس، أرسلها لوالده في باريس قبل حوالى ألف عام يقول:

«والدي العزيز: لقد ذكرت في رسالتك بأنك سوف تبعث لي بعض النقود كي أستعين بها في علاجي، لكنني لا أحتاج إلى النقود مُطلقاً؛ لأن المعالجة

في هذا (المستشفى الإسلامي) مجانية! بل إن المستشفى يدفع إلى كل مريض تماثل للشفاء مبلغ ٥ دنانير، وملابس جديدة حين يغادر المستشفى؛ كي لا يضطر إلى العمل في فترة النقاهة!

والدي العزيز: لو تفضلت وجئت لزيارتي فسوف تجدني في قسم الجراحة ومعالجة المفاصل، وسوف تشاهد بجانب غرفتي مكتبة، وصالونًا للمطالعة والمحاضرات، حيث يجتمع الأطباء فيه يوميًا للاستماع إلى محاضرات الأساتذة!! أما قسم الأمراض النسائية فيقع في الجانب الثاني من ساحة المستشفى، ولا يُسمح للرجال أن يدخلوا إليه.. وفي الجهة اليمنى من الساحة تجد صالونًا كبيرًا مخصصًا للمرضى الذين تماثلوا للشفاء؛ حيث يقضون فيه فترة النقاهة، ويحتوي الصالون على مكتبة خاصة!!

والدي العزيز: إن كل نقطة وكل مكان في هذا المستشفى غاية في النظافة.. فالفرش والوسادة التي تنام عليها مغلفة بقماش دمشقي أبيض، أما الأغطية فمصنوعة من المخمل الناعم اللطيف!

وجميع غرف المستشفى مزودة بالماء النقي الذي يصل إليها بواسطة أنابيب خاصة!! وفي كل غرفة مدفأة لأيام الشتاء! أما الطعام فهو من لحم الدجاج والخضار، حتى إن بعض المرضى لا يريدون مغادرة المستشفى طمعًا بالطعام اللذيذ!» انتهت الرسالة...

وقد قال الدكتور مراد هوفمان^(١) -رحمه الله-: «لا تستبعد أن يعاود الشرق قيادة العالم حضاريًا، فما زالت مقولة (يأتي النور من الشرق) صالحة،

١. د. مراد هوفمان: كان محاميًا ودبلوماسيًا وكاتبًا ألمانيًا، حصل على الدكتوراة في القانون من جامعة هارفرد سنة ١٩٦٠م، اعتنق هوفمان الإسلام عام ١٩٨٠، قام بتأليف العديد من الكتب عن الإسلام، منها رحلة إلى مكة المكرمة والإسلام: البديل. تركزت العديد من كتبه (وهي حوالى ٧ كتب) ومقالاته على وضع الإسلام في الغرب، وبعد ١١ سبتمبر على وجه الخصوص، في الولايات المتحدة (ت: ٢٠٢٠م)، ومن مقولاته الشهيرة: «كسبت محمد ولم أخسر المسيح».

إن الله سيعيننا إذا غيّرنا ما بأنفسنا، ليس بإصلاح الإسلام، ولكن بإصلاح موقفنا وأفعالنا تجاه الإسلام»، وكما نصّح المفكر محمد أسد^(١)، المسلمين ليعاودوا الإمساك بمقود الحضارة بثقة واعتزاز بهذا الدين، يقول د. هوفمان: «إذا ما أراد المسلمون حوارًا حقيقيًا مع الغرب، عليهم أن يثبتوا وجودهم وتأثيرهم، وأن يُحيوا فريضة الاجتهاد، وأن يكفوا عن الأسلوب الاعتذاري والتبريري عند مخاطبة الغرب، فالإسلام هو الحل الوحيد للخروج من الهاوية التي تردّى الغرب فيها، وهو الخيار الوحيد للمجتمعات الغربية في القرن الحادي والعشرين، الإسلام هو الحياة البديلة بمشروع أبدي لا يبلَى ولا تنقضي صلاحيته، وإذا رآه البعض قديمًا فهو أيضًا حديث ومستقبليٌّ، لا يحده زمان ولا مكان، فالإسلام ليس موجةً فكرية، ولا موضحة، ويمكنه الانتظار».

امتدّت دار الإسلام (العالم الإسلامي) على ثلاث قارات، من طليطلة في إسبانيا، عبر الجزيرة العربية، وأندونيسيا، إلى الصين، وحتى أقصى الجنوب في شرق أفريقيا.

وصلت دار الإسلام ذروتها في القرن الثاني عشر في عهد العباسيين، وعُدّت مدنٌ في الشرق الأوسط وإسبانيا مراكز عملية للثقافة والتجارة والتعليم.

إن أوائل المسلمين - رجالًا ونساءً - من رياضيين وفلكيين وكيميائيين وأطباء ومعماريين ومهندسين واقتصاديين وعلماء اجتماع وفنانين وحرفيين ومُربين، عبّروا عن تدينهم من خلال المثابرة في تقديم إسهامات نافعة للمجتمع وللإنسانية جمعاء، وهم فعلوا ذلك

١. محمد أسد: (ليو بوليد نايس سابقًا) ولد في النمسا عام ١٩٠٠ م. وتوفي في إسبانيا عام ١٩٩٢ م. وهو كاتب ومفكر لغوي وناقد ومصلح ومترجم ودبلوماسي سابق وقد كان يهوديًا وأسلم وطاف العالم ويعتبر من المسلمين المؤثرين في أوروبا في القرن العشرين.

بعقول منفتحة، وعملوا في كثير من الأحيان جنباً إلى جنب مع غير المسلمين بصورة إيجابية وبناءة.

ويبدو أن سجل هذا المسار من التعاون عبر القرون - على الرغم من تجذُّره في المجتمع الإسلامي الأول - قد طواه النسيان.

ففي ٢٧ أكتوبر ١٩٩٣ م كان في مسرح شيلدونيان بأكسفورد محاضرة قيمة للأمير تشارلز (Prince Charles) وليّ عهد المملكة المتحدة (في ذلك الوقت) وأصبح الملك حالياً، عنوانها «الإسلام والغرب»، لقد سرى كلامه في الحضور وهو يتحدث إلى كوكبة من العلماء البارزين مَسَرى النار في الهشيم، وكان ممّا قال:

«إذا كان في الغرب سوء فهم كبير لطبيعة الإسلام، فإن فيه أيضاً جهل كبير بما تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامي؛ إنه لإخفاق يضرب بجذوره - حسب ظني - إلى قيود التاريخ التي ورثناها.

لقد كان العالم الإسلامي في العصور الذهبية، من آسيا الوسطى حتى شواطئ الأطلسي، عالماً ازدهر فيه العلماء والمتعلمون، لكننا لأننا نعدّ الإسلام عدواً للغرب وجدناه غريباً عنا في الثقافة والمجتمع والنظام العقائدي، فنزعنا إلى تجاهل علاقته الإيجابية بتاريخنا، بل إلى محوها». انتهى كلام الأمير تشارلز.

إن جو التسامح والإبداع السائد في دار الإسلام حفز الإنجازات الإسلامية في التقدم في حقول الطب، والهندسة، والرياضيات، والفلك، والهندسة المعمارية.

وأثار موضوع إسهام المسلمين في العلوم والحضارة اهتماماً شعبياً كبيراً في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر / أيلول ٢٠٠١ م في نيويورك، غير أن المذهل حقاً هو خطاب جريء ألقته بعد أسبوعين، وتحديداً في ٢٦ سبتمبر / أيلول،

واحدةً من أشهر سيدات الأعمال والمؤرّخة المرموقة السيدة كارلتون فيوريا (Carleton Fiorina) الرئيس التنفيذي لمؤسسة هيوليت باكارد (Hewlett-Packard) آنذاك، فهي قد أعلنت في اجتماع ضم مديري المؤسسة من كافة أنحاء العالم ما يأتي:

«استطاعت أعظم حضارة في العالم أن تقيم دولة عالمية عظمتى تمتد من المحيط إلى المحيط، ومن الأقاليم المناخية الشمالية إلى المناطق الاستوائية والصحاري، عاش في كنفها مئات الملايين من مختلف العقائد والأصول العرقية، وغدت إحدى لغاته اللغة السائدة في أغلب أقطار العالم، وأصبحت الجسر الذي يربط الناس في مئات البلدان.

كان جيشها يتألف من قوميات عديدة، وحققت بتفوقها العسكري درجةً من السلم والازدهار لم يُعرفا من قبل.

وقد امتدت تجارة هذه الحضارة من أمريكا اللاتينية إلى الصين، شملت كل مكان بينهما، وكان الابتكار هو المحرك الأساسي لهذه الحضارة؛ إذ صمم مهندسوها المعماريون مباني استعصت على الخراب، ابتكر علماءؤها الجبر واللوغاريتمات التي أدّت إلى بناء الحواسيب وحلّ الشيفرة، وفحص أطباؤها جسم الإنسان، واكتشفوا علاجات جديدة للأمراض، ونظر فلكيُّوها في السماوات، ومهدوا الطريق أمام استكشاف الفضاء والرحلات إليه، وأبدع كُتّابها آلافًا من قصص الشجاعة والحكايات الساحرة، نظّم شعراؤها قصائد الحبّ، على حين غرق من كان قبلهم في الخوف من التفكير بمثل هذه الأمور.

وحينما كانت الأمم الأخرى تخشى الأفكار، كانت الحضارة تزدهر على الفكر وتحفظه حيًّا، وعندما هدد رقباء الأخلاق والسلوك في الحضارات السالفة بمسح المعرفة، رعت تلك الحضارة المعرفة، ونقلتها إلى الآخرين، وفي حين يشارك الغرب هذه الحضارة في كثير من السمات، فإن الحضارة التي أتحدث عنها هي حضارة العالم الإسلامي منذ عام ٨٠٠م حتى ١٦٠٠م،

وشملت بلاطات بغداد ودمشق والقاهرة والسلطة العثمانية، كما ضمت
الحكام المستنيرين مثل سليمان القانوني.

ومع أننا كثيرًا ما نجهل فضل هذه الحضارة علينا، فإنَّ ما قدمته يُعدُّ
جزءًا من تراثنا. وما كانت صناعة التكنولوجيا لتُوجد لولا إسهامات علماء
الرياضيات العرب». انتهى.

إن أساس الحضارة أو المدنية الغربية القائمة الآن، هو ما قام به العلماء
المسلمون ونقلوه إلى البلدان الأوروبية في القرون السابقة، وما أصلح في
السابق يُصلح الآن ويكون أساسًا للمستقبل أيضًا؛ لذلك فلا بد من توضيح
موقف الدين الإسلامي من العلم، بحيث نستطيع التمييز بين الحقيقة
والادّعاءات الباطلة، والردّ على الهجمات غير البريئة من الجهات التي
تهاجم الإسلام، إما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة عن طريق الغزو الثقافي
(بكل أشكاله، وخصوصًا عن طريق الإعلام المرئي وشبكات التواصل
الاجتماعي).

ويحضرني ما كتب الدكتور مصطفى محمود^(١) -رحمه الله- في
أحد مقالاته (منذ أكثر من أربعين سنة) الرد على التساؤلات في كتابه
(الشیطان يحكم):

«تصلني أحيانًا من القراء تعليقاتٌ جادة وتساؤلات حول مقالاتي
الأخيرة، والبعض يلتقط عباراتٍ من كتب قديمة صدرت لي منذ عشرين
عامًا، محاولًا أن يشهد الناس كيف كنت مُلحدًا ثم أصبحت مؤمنًا، يا له من
تناقض وجريمة لا تُغتفر لمفكر، ويبدو أن المفكر الأمثل عندهم هو قطعة
رخام لا تتقل من مكانها، أو مستنقع آسن لا يتجدد ماؤه، أو حياة خاملة راكدة

١. مصطفى محمود (ت ٢٠٠٩م) -رحمه الله-، هو داعية إسلامي وطبيب وكاتب مصري معروف، ألف
٨٩ كتابًا منها الكتب العلمية والدينية والفلسفية والاجتماعية والسياسية، كان مقدّمًا لأكثر من ٤٠٠
حلقة من برنامجه التلفزيوني الشهير «العلم والإيمان».

آلية لا تتطور. ويتصور الواحد منهم الفضيلة والذمة في أن يكتشف الكاتب (أو الداعية) خطأه فلا يصحّحه ولا يرجع عنه، ويتصور الكمال في العجرفة الفكرية والجمود والتعصب والثبات - ولو على الخطأ - طالما أن هذا الخطأ في صالحهم، ولو كنتُ مؤمناً تحولت إلى الإلحاد لأخذوني بالأحضان، ولقالوا: هذا هو المفكر الشريف بحق، هذا هو رائد النقد الذاتي.

ولكن لما كان نقدنا لذواتنا على غير هواهم، أصابهم عَمَى الألوان، فرأوا الأبيض أسود، ورأوا الفضيلة رذيلة، والذمة خيانة.

ولقد حارب خالد بن الوليد ضدَّ الإسلام بشراسة، وأنزل الهزيمة بالمسلمين في أحد.. ثم آمن وحمل لواء الدعوة، وأصبح سيفَ الله المسلول، فلم يُقَلَّ أحدٌ إنه رجل متناقض بلا مبدأ. وحارب عمرُ بن الخطاب - رضي الله عنه - الدعوة الإسلامية في بدايتها بضراوة، ثم اعتنق نفسَ الدين الذي سبَّه وسفَّهه وحاربه.. فلم يشكك أحدٌ في إيمانه، ولا في صدقه، ولا في ذمته.

والإنسان في شبابه مندفع بطبيعته، يؤمن بالساذج البسيط، الواضح الملموس أمامه؛ ولهذا فهو يستريح إلى المادية والفكر المادي؛ لأنها لا تُطالبه بشيء غير الموجود أمامه، فهي تبدأ من القريب المحسوس ولا تتجاوزه، ولا تُجهد الذهن استخلاصاً للحكمة من ورائه، بل إنها لا تعتقد في وجود حكمة، لا شيء سوى المادة التي تتطور تلقائياً بقوانينها الجدلية الخاصة.

والمفكر المادي لا يحاول حتى أن يسأل نفسه: مَنْ الذي وضع في المادة قوانينها الجدلية هذه؟ وهو يرفض الدين لأنه يعتبره «غيبات»، وهو نفسه غارق في الغيبات إلى أذنيه، بل إن العلم نفسه الذي يتشدد به ويحتكم إليه غَرِقَ في الغيبات هو الآخر. العلم يتكلم عن الإلكترون على أنه حقيقة، ولم يرَ أحدٌ الإلكترون، ولا نعلم عنه إلا آثاره، أما الإلكترون ذاته فهو غيب.

وبالمثل الموجة اللاسلكية، لا نعلم عنها إلا آثارها في عمود الإرسال وجهاز الاستقبال.. لم يرَ أحدٌ تلك الموجات الأثيرية، ولم يعرف أحدٌ كُنْهَهَا، بل إن الكهرباء ذاتها هي الأخرى طاقة لا شك فيها، ولا نعرف عنها إلا مجموعة آثارها الظاهرة من حرارة إلى ضوء إلى حركة مغناطيسية وحركة إلكترونيات...

فإذا قلنا لهم: إن الله عرفناه بآثاره، وإن هُوَيْتَهُ غَيْبٌ، لم يعجبهم كلامنا، بل إن المفكر المادي يقول في جرأة عجيبة: في البدء كانت المادة، ثم تطورت المادة إلى كافة صور الحياة والفكر، وكأنه كان موجودًا لحظة بداية الخلق متربعا في كرسي بلكون يتفرج على ميلاد الدنيا، هو يتكلم عن غَيْبٍ، ويبدأ من غيب، ولا يملك إلا افتراضات واحتمالات ونظريات، ثم يتهمنا بالغيبية.

وهؤلاء هم دراويش المادية، لا وسيلة لإقناعهم؛ لأنهم لا يريدون اقتناعًا، وإنما هم اختاروا الجمود العقائدي وتشنَّجوا عليه، واستراحوا إلى ما فيه من تبسيطٍ مُخِلٍّ، وتلخيصٍ ساذجٍ للحقائق الكونية.

وليس أبعثَ للراحة من اعتقاد الإنسان أنه لا مسؤولية هناك، ولا بعث ولا حساب، وأن له أن يفعل ما يشاء، لا رقيب عليه ولا حسيب سوى الشرطة والمخابرات، ومثل هذه العقيدة المادية أقرب إلى قلب الشباب المندفع الذي يريد أن ينطلق على هواه بلا علامات مرور، وبلا ضوابط، وبلا مساءلة، وليس صحيحًا أن الفكر الإلحادي المادي هو الذي أعطانا حياتنا المتقدمة بما فيها من قطارات وعربات وطائرات وصواريخ وراديو وتلفزيون... فهذه الأشياء هي عطاء العلم، والعلم تراثٌ مُتَّاحٌ للكل، ولا مذهب له، يطلبه رجلُ الدين كما يطلبه الإنسان العادي، ورجُلُ الفكر من يمين ويسار.

كان العلم يرفع راياته في مصر الفرعونية الوثنية، كما كان يرفع راياته في صدر الإسلام، العلم تراثٌ بشري لا يستطيع أن يدَّعي أحدٌ ملكيته، وليس صحيحًا أن الدين يناقض العلم، وديننا الإسلامي يأمر بالعلم في أول آية من القرآن (اقرأ)، أمْرٌ صريح بالعلم والتعلم في أول حرف نزلت به تعالىمنا السماوية.

والعلماء عندنا هم ورثة الأنبياء، وهُم في القرآن في درجة من الملائكية، كما جاء في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨)، والذي يَتَصَوَّر تناقضًا بين الدين والعلم لا يعرف ما الدين ولا ما العلم! وإنما يريد أن يخلق لنفسه مُبرَّرًا للرفض، وما أسهل الرفض!! - انتهى المقال -.

ولهذا فإننا في هذا الكتاب سوف نلقي الضوء على موقف الإسلام من العلم، وإسهاماته فيه، وإعجاز القرآن الكريم في محتواه الديني والديني على السواء في هذه الحضارة البشرية، ولقد انتقينا العديد من الآراء والمقالات والدراسات الموثقة في المكتبات الإسلامية وأدوات البحث الإلكتروني لكثير من العلماء الأفاضل الذين ذكرنا أسماءهم ومراجعهم في كل موضوع من المواضيع التي بُيِّنَتْ في هذا الكتاب.

إنَّ القرآن الكريم هو دستور الأمة الإسلامية، وهو الحافز الأساسي - مع السنة النبوية الثابتة - لطلب العلم بشتَّى أنواعه، قال تعالى في سورة الزُّمَر: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٩)، وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٥)، وقال تعالى في سورة المجادلة: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١١)، وقال الرسول ﷺ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» (رواه ابن ماجه)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» (رواه مسلم)، بالإضافة إلى وجود إشارات إعجازية علمية كثيرة تحث على البحث للوصول إلى قوانين وحقائق علمية أوجدها الله في الكون، وحددها الله تعالى لعباده لإسعادهم في الحياة إذا استيقنوا الحكمة منها، وعملوا بها على مُرَادِ الله تعالى.

وقد كُتِبَ العديدُ من الكتب حول الحضارة الإسلامية القديمة، والإعجاز في القرآن الكريم، وما ذُكِرَ في هذا الكتاب ليس بحثًا تأصيليًا لكل نوع من هذا الإعجاز، فهذا يحتاج مجلدات، وليس المقصود فيه تكرار ما كُتِبَ في هذا المجال، بل هو محاولة متواضعة للإحاطة والعلم من خلال تبسيط المعلومات قدر الإمكان بمجمل أنواع الإعجاز في القرآن الكريم وفي أقوال نبينا محمد ﷺ، ولقد ابتعدنا - ما استطعنا - عن السرد والإنشاء، وركزنا على أقوال العلماء، وعلى التوصيف ونتائج البحث العلمي للمواضيع المثارة، ومقارنتها بما جاء في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة؛ للاستفادة منها بصورة أساسية في تقوية الإيمان وثباته، وزيادة الوعي الثقافي للشباب المسلم، ولمعرفة الحقيقة بعيدًا عن آراء المُدَلِّسين الحاقدين على الدين الإسلامي.

ولقد كان تركيزنا في المجلد الأول من هذا الكتاب حول بيان:

- هل هناك تعارض بين العلم والدين الإسلامي (على وجه الخصوص)؟
- ما موقف العلماء (العرب، والمسلمين، والمستشرقين، والغربيين) من الإسلام وتأثيره في العلوم التطبيقية والمدنيات والحضارات السابقة والحالية.
- ما هو الإعجاز في القرآن الكريم؟ وما شروطه؟ مع بيان أنواعه، مع بعض التفصيل بموضوعية لكل نوع.

وقد كانت مراجعنا في هذه المُجلَّد من مختلف الكتب والمقالات التي ذُكرت أسماءُ مؤلفيها من أشهر الكتاب والعلماء في هذا الصدد، وقد ذُكروا في الأقسام والمواضيع وفي الأجزاء ذات الصلة.

وقد خصصنا المجلد الثاني لبعض التفصيل حول بيان (الآيات الكونية) التي ذُكرت في القرآن الكريم، والتي كانت «إشارات علمية إعجازية» (علمية بمعنى Science علم الطبيعة)، والتي سمّاها علماء كثيرون من مختلف الجنسيات بـ «الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة الشريفة»، وسمّاها آخرون «السَّبق العلمي»، أو «التطابق العلمي مع آيات القرآن الكريم»،

أو «التفسير العلمي»، أو «الدلائل العلمية»، أو «ربانية القرآن الكريم»، أو «الإشارات الإلهية أو الإعجازية في القرآن»، وإلى ما هناك من تسميات مماثلة، والعبرة ليست في التسمية، وإنما في جوهر النصوص؛ حيث إن الكثير مما قيل حول الإعجاز العلمي وتطابق تفسير بعض الآيات القرآنية مع ما اكتُشف من ظواهر طبيعية، أو مع ما أثبتته العلم التجريبي حديثاً، هو حقيقي وظاهر للعيان بلا أدنى شك، ولا يعارضه إلا معاند، ومما لا شك فيه أن هناك مقالات غير موفقة لبعض العلماء المسلمين الغيورين والمتحمسين حول تفسير وتأويل بعض الآيات القرآنية على أنها من الإعجاز العلمي للقرآن، ثم تهكّم بها كثيرون! وهذا - للأسف - يأخذه المُشكِّكون كمادة للتهجّم على القرآن والإسلام من خلال تفنيد أخطاء هؤلاء المفسّرين، كما أن هناك إنكاراً من كثير من العلماء - المسلمين وغير المسلمين - للإشارات الإعجازية الموجودة في القرآن، والتي أثبتتها العلم حديثاً، ولقد اجتهدنا في بيان صحّة هذه الإشارات والتفسيرات والإعجازات بتجرّد، وقد كانت أهم مصادر المجلد الثاني التي أخذنا منها - بتصرّف -:

١. كتاب «العلم وحقائقه، بين سلامة القرآن وأخطاء التوراة والإنجيل» للدكتور سامي عامري^(١) - حفظه الله -، وقد كان التركيز عليه في بيان الإعجاز العلمي لبعض آيات القرآن، والردّ على المعترضين.

٢. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بجزأيه: الأول (آيات في الآفاق)، والثاني (آيات الله في الإنسان) للدكتور محمد راتب النابلسي^(٢) - حفظه الله -، وقد تمّ الاقتباس منه في المقدمة والخاتمة.

١. د. سامي عامري، تونسي حاصل على دكتوراه في مقارنة الأديان، مؤلف ومحاضر وباحث في الأديان المقارنة والمذاهب المعاصرة، ويتقن عدة لغات، منها: العبرانية والسريانية والإغريقية، المشرف العلمي على مبادرة البحث العلمي لمقارنة الأديان، وأحد مؤسسيها. الاهتمامات البحثية هي مقارنة الأديان، والمذاهب المعاصرة، والاستشراق، ويقدم فيها الكتب والتسجيلات المرئية.

٢. د. محمد راتب النابلسي، داعية سوري معاصر، له دروس ومحاضرات في الإعجاز العلمي والتفسير، والمنهج العلمي والمعرفة، اشتهر بسلسلته عن أسماء الله الحسنى، وعن الشائلك النبوية، =

٣. كتاب «الإعجاز العلمي في السنة» للدكتور زغلول النجار^(١) - رحمه الله -، وكان الاقتباس منه في الإعجاز العلمي لبعض أحاديث الرسول الكريم ﷺ.

٤. كتاب «موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة» للدكتور عبدالله المصلح^(٢)، وقد تمّ الاقتباس منه في التعريفات للإعجاز العلمي.

٥. كتاب «التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيقات» للدكتورة هند شلبي^(٣) - رحمها الله -، وقد تمّ الاقتباس منه في مواضع وأجزاء متفرقة.

وما يهمنا في هذه الموضوع هو أن يكون الشباب والشابات المسلمون على ثقة ويقين بديننا الحنيف، وأنهم يستطيعون اللحاق بالركب، والمشاركة مع جميع المدنيات في عصرنا الحديث، بالبحث العلمي، والمساهمة في

= وقد تقلّد منصب رئيس هيئة الإعجاز القرآني، وله العديد من المؤلفات، وشارك في العديد من المؤتمرات العالمية.

١. د. زغلول راغب محمد النجار، هو داعية إسلامي، يركز على الإعجاز العلمي في النصوص المقدسة الإسلامية. وأكاديمياً هو أستاذ في علم الجيولوجيا، وباحث مصري ومستشار علمي لمجالات علمية عديدة، درس في كلية العلوم جامعة القاهرة وتخرج منها سنة ١٩٥٥م بمرتبة الشرف، وكرّم بال حصول على جائزة الدكتور مصطفى بركة في علوم الأرض، ودرس في عدّة جامعات عربية وغربية، وأحد مؤسسي الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

٢. عبد الله بن عبد العزيز المصلح هو عالم دين مسلم، سعودي ولد ونشأ في الرياض في المملكة العربية السعودية عام ١٣٦٧هـ. التحق بمعهد إمام الدعوة بالرياض وأكمل الدراسات العليا بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ونال منها شهادة الماجستير والدكتوراه، ثم عمل عميد لكلية الشريعة واللغة العربية في أبها عام ١٣٩٦هـ. ثم مديراً لفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بأبها وافتتح كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء، وكان مقدماً ومعداً لبرنامج التلفزيوني الذي استمر لمدة تسعة عشر عاماً (قضايا وردود) وتخرج على يده الكثير من طلبة العلم وفي عام ١٤١٢هـ. عُيّن أميناً عاماً لهيئة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية برابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وما زال حتى الآن وله العديد من المؤلفات.

٣. د. هند شلبي (توفيت في ٢٤ يونيو ٢٠٢١)، هي باحثة تونسية في علوم القرآن، كانت تشغل منصب أستاذة التفسير بجامعة الزيتونة. لُقبت بـ «صاحبة الزي الشلبي»، وهو وصف أطلقه عليها العالم محمد الشاذلي النيفر؛ لأنها أول تونسية ترتدي الحجاب وتتحكم به أسوار الجامعة، ولها مؤلفات عديدة قيمة.

صنع مختلف الابتكارات في جميع المجالات العلمية والقوانين الحضارية الحالية، وما ذُكر من بعض أسماء وإسهامات العلماء المسلمين المعاصرين لاحقاً، ما هو إلا جزءٌ يسيرٌ من مساهمات العلماء المسلمين في كافة دول العالم بالتقدم المدني والحضاري، ومن مختلف العلوم التطبيقية، وأن هذا من صميم تعاليم القرآن الكريم وسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ولا تناقض البتة بين العلم والإسلام، وأن الممارسات الخاطئة للكثير من المسلمين - على اختلاف مذاهبهم ومناصبهم - ليست حُجَّةً على الدين الإسلامي، بل العكس تماماً، فإن الدين الإسلامي يَحُضُّ على العلم بكافة أنواعه، وإحقاق الحق مهما كان، بغض النظر عما يتعرَّض له الإسلام والقرآن الكريم وتفسيره من الهجوم غير المُبرَّر وغير الموضوعي، ويكفي أن الله تعالى قد تكفَّل بحفظ القرآن الكريم، ودين الإسلام العظيم إلى يوم الدين، وإنَّ غداً لناظره قريب.

وقد راجع مادة هذا الكتاب - بمُجلَّديه - الأستاذ محمد عماد قلب اللوز - حفظه الله -، الأستاذ في اللغة العربية والشريعة الإسلامية، فجزاه الله كل خير.

ونسأل الله تعالى القبول والتوفيق، وما كان من خيرٍ فبفتح وتوفيق الله تعالى، وإن كان تقصيراً في هذا الأمر أو بعض الأخطاء فمن أنفسنا، وجل من لا يخطئ، ونسأل الله العلي القدير العفو والعافية وحسن الختام.



[٣] أعظم مزية في الإسلام:

يقول الشيخ محمد الغزالي^(١) - رحمه الله - في أحد مقالاته: «وفي علاقة الإسلام بالعقل يسرُّنا أن نُضمِّن كتابنا هذا بحثًا نفيسًا مقتبسًا عن الشيخ نديم الجسر^(٢) - رحمه الله - مفتي لبنان الشمالي، قال فيه: نُوطئ للبحث بطرح السؤال الآتي: ما هي أعظم ميزة يمتاز بها دين الإسلام عن الأديان السماوية الأخرى؟

لا ريب عند المسلم في أن الأديان السماوية كلها من عند الله، ولا ريب عند العاقل أن هذه الأديان السماوية الثلاثة (اليهودية - المسيحية - الإسلام على شريعة محمد ﷺ) القائمة اليوم على الأرض هي في أصلها - الذي أنزله الله - تتلاقى جميعًا على كل معاني الحق والخير بلا أدنى خلاف. فالتفاضل بين دين سماوي ودين سماوي آخر هو تفاضل في الكم والكيف، لا في الجوهر، وهو كالتفاضل الذي يكون بين قانونين أرضيين وضعتهما الدولة في فترتين مختلفتين، وكان أولهما مختصرًا قليل المواد، وكان الثاني مطوَّلًا كثير المواد.

١. محمد الغزالي: عالم ومفكر إسلامي مصري (ت: ١٩٩٦م)، يُعد أحد دعاة الفكر الإسلامي في العصر الحديث (بلغت مؤلفاته أكثر من خمسين عملاً)، عُرف عنه تجديده في الفكر الإسلامي، وكونه من المناهضين للتشدد والغلو في الدين، كما عُرف بأسلوبه الأدبي في الكتابة، واشتهر بلقب أديب الدعوة.
٢. الشيخ نديم حسين الجسر (ت: ١٩٨٠م)، عالم بارز ومعروف، وسياسي لبناني، تقلَّد منصب مفتي طرابلس وشمال لبنان، وقد ترك للمكتبة العربية آثارًا مهمة للدارسين والمؤمنين، ومن أهم كتبه «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن».

بل الأصح أن نقول: كان أولهما بسيطاً يسرد المواد من غير أن يتبسط بذكر المبادئ والأساسيات التي يركز عليها القانون، والثاني يضع إلى جانب المواد الأساسية التي يركز عليها القانون جُملاً مفصلة، ويفتح الفهم العميق لكل مادة من هذا القانون، كما يفتح باب الاستنباط لكل مادة إضافية تقضي الحاجة أو الضرورة بوضعها في المستقبل. هكذا كان شأن الإسلام بين الأديان السماوية الأخرى، وبهذا قضت حكمة الله حين أنزل هذه الشريعة الخاتمة الكاملة التي أكد عز وجل كمالها بقوله في سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

ذلك أن الإنسان قد خُلِقَ بحكمة الله البالغة، وهو يحمل في باطنه رغبتين، رغبة (الغرائز) التي خلقها فيه ليعيش وينتصر في معركة البقاء، ورغبة (العقل) الذي خلقه الله فيه ليدرك الحق إدراكاً واضحاً يتم به الإيمان بالله وعبادته، ويتاح له به أن يتحكم في تلك الغرائز ويُلجِمها حتى لا تجمَح وتعدّي حدود الحق والخير.

ذلك أن هذه الغرائز التي سُلِّح بها الفرد لخيرهِ وخير المجتمع تنقلب إلى شرٍّ مستطير على الفرد والجماعة، وذلك حين تُتْرَك مُطلَقةً جامحة لا يُقيِّدها العقل بَقيد الحكمة، فتصبح غريزة البحث عن الطعام شَرهاً وبطنَةً، وغريزة الإنسال (التناسل والتكاثر) زنى وفسقاً وعدواناً، وغريزة الادّخار والاقتناء طمعاً وشُحاً وسرقةً، وغريزة حُبّ الظهور والسيطرة خِيلاءً وكِبَرًا واستبداداً، وغريزة الغضب جنوناً وسَفْكَاً للدماء، بدلاً من الدفاع عن النفس والحق والوطن، وغريزة حُبّ الاستطلاع تجسُّساً وبحثاً ذنباً عن عيوب الناس!

ولكن العقل في معركته مع الغرائز لم يكن دائماً هو الظافر؛ لأن الغرائز تُخَلِّقُ في الإنسان كاملاً بكل قوتها، ومتساوية في الأفراد، بينما العقل يتكامل تدريجياً مع التجارب الطويلة التي يمر بها الفرد وتمرُّ بها المجتمعات؛

ولذلك لا تتحقق فيه المساواة بين الأفراد والأجيال، فكان لا بد من اختلاف العقول قوةً وضعفًا، ولا بد من اختلاف الآراء سدادًا ونقصًا، وكان لا بد من عون السماء.

ولما كانت الإنسانية في عصورها الأولى غير مستعدة بعقولها وتجاربها لإدراك حدود الحق والخير إدراكًا كاملاً، كان الوحي يتولى هذا التحديد بأوامره ونواهيه على لسان الرسل فترة بعد أخرى.

ولما بلغ عقل الإنسانية في التصور والتكامل الحد الذي تستطيع معه أن تعتمد على فكرها في معرفة الحق والخير، أنزل الله آخر كتبه (القرآن) على آخر رسله (سيدنا محمد ﷺ)، بشريعة كاملة، لا من حيث إنها وضعت لكل جزئية من جزئيات الحياة حكمًا خاصًا، فهذا لا يمكن؛ إذ إن أحداث الحياة في تجدد مستمر، والله سبحانه أحكم من أن يخاطب الناس بحكم في أمور لا يعرفونها، ولكنها شريعة كاملة من حيث إنها تنطوي على أسس ومبادئ أصيلة تصلح أن تكون منبعا للأحكام التي يمكن استنباطها في المستقبل، وتقدّرنا على مواجهة وقائع جديدة لم ينزل بها أي نص صريح.

والآن نعود إلى السؤال: ما هي أعظم مزية يمتاز بها دين الإسلام عن غيره من الأديان السماوية الأخرى؟

رُبَّ مجيب منكم أن هذا الذي ذكرناه - من وضع (المبادئ الأساسية) التي تتفرع عنها الأحكام الجزئية المنصوص عليها وغير المنصوص عليها - هو المزية العظمى لدين الإسلام.. ولكن هذه المزية - مع كونها من أعظم مزايا الإسلام - إنما ليست أعظمها على الإطلاق.

ففي القانون الروماني فتاوى بمثابة قواعد - وإن لم تكن شاملةً محيطاً بكل أمر كما هي المبادئ الأساسية في الإسلام - إلا أنها (الرومانية) على كل قواعد كانوا يرجعون إليها في تفسير بعض المواد وزيادة بعض المواد الجديدة.

وَرُبَّ قَاتِلٍ يَرَىٰ أَعْظَمَ مَزِيَّةٍ فِي الْإِسْلَامِ هِيَ (التَّوْحِيدُ) الْمُطْلَقُ الْمَبْرَأُ
مِنْ كُلِّ شَوَائِبِ الشَّرْكِ الْخَفِيِّ وَالْجَلِيِّ.. وَجَوَابُ هَذَا أَنَّ الْأَدْيَانَ السَّمَاوِيَّةَ
الصَّحِيحَةَ كُلَّهَا مَبْنِيَّةٌ فِي أَصْلِهَا عَلَى التَّوْحِيدِ بَدَاهَةٌ؛ لِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
(الْخَالِقِ)، وَاللَّهُ وَاحِدٌ أَحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ.

وَرَبِّمَا يَأْخُذُ أَحَدٌ بِظَاهِرِ قَوْلِهِ ﷺ - كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ - : «إِنَّمَا بُعِثْتُ
لِأَتَمِّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ»، يَقُولُ: إِنَّ الْمَزِيَّةَ الْعَظْمَى لِلْإِسْلَامِ أَنَّهُ «أَكْمَلُ وَأَتَمُّ
مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ»، وَلَكِنْ هَذَا الْإِتِمَامُ - عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِهِ - لَيْسَ أَعْظَمَ الْمَزَايَا،
فَمَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ الْأَدْيَانِ، وَالْإِسْلَامُ قَدْ أَتَمَّهَا. وَقَوْلُهُ ﷺ:
«إِنَّمَا» لَا يُرَادُ بِهِ الْحَصْرُ الْحَقِيقِيُّ؛ لِأَنَّ مِنْ أَعْظَمِ غَايَاتِ الرِّسَالَةِ الْمَحْمُودِيَّةِ
تَطْهِيرَ الْوَحْدَانِيَّةِ مِنْ أَذْرَانِ الشَّرْكِ، وَهَذَا التَّطْهِيرُ هُوَ الْأَسَاسُ لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ مَزِيَّةَ الْإِسْلَامِ الْعَظْمَى هِيَ أَنَّهُ (جَمْعُ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ الدِّينِ
وَالدَّوْلَةِ).. وَلَكِنْ، مَا هَذَا الْجَمْعُ بِمَزِيَّةٍ خَاصَّةٍ بِالْإِسْلَامِ.

إِذَنْ، مَا هِيَ أَعْظَمُ مَزِيَّةٍ يَمْتَازُ بِهَا الْإِسْلَامُ؟ إِنَّهَا الْمَزِيَّةُ الْآتِيَّةُ:

إِنَّ اللَّهَ فِي شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ جَعَلَ (لِلْعَقْلِ السُّلْطَانَ الْأَعْلَى) فِي فَهْمِ
أَحْكَامِ النُّصُوصِ الْمَنْزَلَةِ، وَفِي اسْتِنْبَاطِ أَحْكَامِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ نَصٌّ خَاصٌّ، لَا
فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا الْعَقْلُ الَّذِي أَمَرَنَا اللَّهُ فِي
آيَاتٍ كَثِيرَةٍ أَنْ نَحْتَكِمَ إِلَيْهِ عِنْدَ جَدَلِنَا بَيْنَ أَنْفُسِنَا فِي مَعْرَكَةِ الشَّكِّ وَالْيَقِينِ، وَفِي
جَدَلِنَا مَعَ غَيْرِنَا مِنَ الْمَخَالَفِينَ، يَشْمَلُ بِسُلْطَانِهِ كُلَّ مَعْنَى فِي الْوُجُودِ، ابْتِدَاءً
مِنْ أَتْفَعِ الْأَشْيَاءِ، كَمَا طَاةِ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، إِلَى أَعْظَمِ مَعْنَى فِي الْوُجُودِ وَهُوَ
(الْأُلُوهِيَّةُ وَالْوَحْدَانِيَّةُ).

وَقَبْلَ أَنْ يَعْتَرِضَ مُعْتَرِضٌ، نَبَادِرُ إِلَى تَفْصِيلِ هَذَا (السُّلْطَانِ الْعَقْلِيِّ)
الَّذِي أَمَرَنَا اللَّهُ أَنْ نَحْتَكِمَ إِلَيْهِ وَبَيَانِ مَدَاهِ، وَنُؤَكِّدُ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَلَى خَمْسِ
حَقَائِقَ لَا يَجُوزُ أَنْ تَغِيبَ عَنْ ذَهْنٍ عَاقِلٍ طَرْفَةً عَيْنٍ:

الحقيقة الأولى: أن هذا العقل الذي خلقه الله لنا، وأمرنا أن نحتكم إليه، له سلطانان: سلطان مُطلق، ليس له قيود سوى قيود العقل السليم وَحَدَه، وسلطان نسبي: مقيد بقيود المبادئ الأساسية التي قررها الإسلام. فكما أن المبادئ الأساسية المنصوص عليها بالآيات المحكمات أو المستنبطة من الآيات المحكمات [من القرآن الكريم]، نحن مأمورون أن نحتكم فيها إلى سلطان العقل مع أنفسنا في عقائدنا، ومع غيرنا من أصحاب العقائد المخالفة، فإن الأحكام الجزئية التي يمكن أن نفسرها أو نستنبطها ضمن حدود تلك المبادئ الأساسية، تقع بالتالي تحت سلطان العقل الذي سميناه (سلطان العقل النسبي المقيد)؛ لأن ما بُني على المعقول فهو معقول.

الحقيقة الثانية: أن السلطان العقلي المطلَق الذي أمرنا الله أن نحتكم إليه ليس معناه أن يحتكم كلُّ فردٍ إلى عقله، فالعقول تختلف قوةً وضعفًا، فتُصيبُ وتخطئُ، ولكن معناه أن نحتكم إلى الأحكام العقلية القاطعة التي تتفق عليها العقول السليمة - كل العقول السليمة - اتفاقاً عاماً لا خلاف فيه.

الحقيقة الثالثة: كلُّ نصٍّ قطعي واضح لا يسبب تناقضاً عقلياً في الذهن - وهذا شأن الآيات المُحكِّمات كلها بلا استثناء - فمن الواجب الإيمان به، ولو كان تصوُّر معناه عسيراً على الذهن، فمن الواجب تأويله تأويلاً يرتفع به التناقض العقلي [والتأويل: صرف الكلام عن معناه الظاهر إلى معنى آخر لدليل].

الحقيقة الرابعة: أن الآيات المتشابهات التي تعجز عقولنا عن تأويلها يجب أن نردّها إلى المحكمات، وما دامت المحكمات غير متناقضة مع العقل، فإن التشابهات التي تهيمن عليها تلك المحكمات تكون - ولا بُدَّ - معقولةً وإن عجزنا عن تأويلها، فالمحكمات من عند الله، والمتشابهات من عند الله، ولكن المحكمات هي الأصول التي تسيطر على المتشابهات، وما دامت الأصول معقولة، نستطيع فهمها وإدراك حكمتها، فلا بد أن تكون

المتشابهات الواقعة تحت سيطرتها معقولة، وإن لم نستطع تأويلها، وهذا معنى قوله عز وجل في سورة آل عمران: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٧).

الحقيقة الخامسة التي يحسن ذكرها للمبتدئين هي أنه يوجد فرق كبير جداً بين المستحيل العقلي والمستحيل العادي؛ فالمستحيل العقلي هو الذي يوجب تصوُّر وجوده أو تصوُّر عدمه تناقضاً عقلياً في الذهن، أما المستحيل العادي فلا يوجب تصوُّر حصوله أو عدم حصوله تناقضاً عقلياً في الذهن أبداً، ولكن جرت عادتنا - نحن البشر - أن نعدَّ ضده مستحيلاً في العادة، كخرق النواميس الكونية بالمعجزات. فإذا كان النص الديني يتناول هذا النوع من المستحيلات العادية فلا مجال لإنكاره أو لتأويله أبداً، حتى ولا لتعليقه على أساس نواميس كونية أخرى كما يفعل العلماء عن حُسن نية، بل يجب التصديق به؛ لأن القول باستحالته عقلياً هو القول الذي يوجب تناقضاً عقلياً، فالنواميس والطبائع في الأشياء من خلق الله، والذي خلقها قادر على خرقها، والقول بغير هذا هو الذي يوجب تناقضاً عقلياً.

هذه هي الحقائق الخمس التي نحن في نطاقها مأمورون من الله بالاحتكام بها إلى العقل، بين أنفسنا في عقائدنا ومع غيرنا من المخالفين عند تعقُّلنا لمعنى الإيمان بالله، ووحدانيته وصفات كماله، فضلاً عن الجزئيات الأخرى.

وبعد أن يضرب أمثلة على ذلك مثل قضية وجود خالق لهذا الكون التي ورد بها النص والعقل يُقرُّها أيضاً ويُنكر نقيضها. وعلى نسق هذا يعقل العقل قضايا كالوحدانية والبعث والمعجزات، يقول: «وإذا تأملنا فواصل الآيات العديدة التي تحثُّ على استخدام العقل، يظهر بجلاء لا مجال للشك فيه أن الله هو الذي أمرنا بالاحتكام إلى العقل في إدراك وجوده ووحدانيته وصفات كماله، فضلاً عن إدراك ما هو أقل أهمية وخطرًا من ذلك من شتى الجزئيات».

فإنكار الاحتكام إلى العقل في نطاق الحقائق الخمس التي ذكرناها لا يجوز أن يسمى خطأ، بل هو إنكارٌ للنصوص الصريحة، ويدخل - عند الإصرار - في باب الكُفْر؛ لأنه إنكار وإعراض عن البراهين العقلية التي خاطبنا الله بها.

إن عقولنا التي خلقها الله مفطورةٌ فطرةً على قانون العِلِّيَّة [من (العلة)]، وهو ما يسمى أيضًا: قانون السببية] كما نسميه نحن البشر بالنسبة للمخلوقات، وهو الشيء الذي نسميه الحكمة من خلق الله وأوامره ونواهيه.

قد يقول الملحدون المنكرون للصانع [الله تعالى]: إنَّ عقولنا اكتسبت هذا القانون بحُكم العادة؛ لأنها كانت ترى الظاهرة تحدثُ عقب الظاهرة، فتربط بينها برباط السببية، فتسمي الأولى علةً أو سببًا، وتسمي الثانية معلولًا أو مُسببًا، ويرد عليهم المؤمنون بأن الفطرة من صنع الله عز وجل.

والذي يهْمُنَا - على كل حال - أن نُقرّر أن قانون العِلِّيَّة موجود في عقولنا، وأن الله سبحانه وتعالى قد أكّد هذا القانون، وهذا التأكيد من قبل الله لقانون السببية فيما يقع من أحداث الكون في الخلق والتدبير والتكليف والعقاب والمثوبة، أمره ظاهرٌ في آيات كثيرة لا تُعدُّ ولا تُحصى، ويكفي لإثبات هذا القانون الذي اتّخذه الله عز وجل برهانًا على وجوده وخلقهِ للعالم وللإنسان قوله في سورة الطور: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَلِيقُونَ﴾ (٣٥)، هو بذاته دليل على اعتبار السببية في دين الإسلام، فالكون حادثٌ [كان غير موجود فخلقه الله تعالى]، والإنسان الذي أتى عليه - كما قال تعالى في سورة الإنسان -: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (١)، حادث أيضًا، فلا بد لوجوده من سبب وعلة، وفاعلٍ خالق هو الله سبحانه.

كذلك يُقال عن حكمة إرادته القديمة في خلق الجن والإنس ليعبدوه، فالله عز وجل كتَبَ على نفسه الحكمة، وهي التي نسميها نحن: داعيًا وسببًا وعلةً.

وقد يصرِّح الله بحكمة أفعاله وأحكامه وأوامره ونواهيه، فيذكر سبب الحكم وعلته وحكمته، وقد لا يصرِّح، ويترك لنا أن نستنبطها من خلال الأحكام بعقولنا على قدر ما نستطيع، دون أن نحكم أن ما استنبطناه هو الحكمة، أو هو وَحْدَه الحكمة والسبب والعلة.

ويقول الشيخ الجسر: «وخلاصة القول: أن أفعال الله وأحكامه عز وجل مبنية على حِكَم وأسباب، منها ما هو صريح، ومنها ما هو باطن، ولكن ليس بمحذور علينا نحن أن نستنبط وجوه الحكمة من طريق العقل، قد يكون هناك ما يَعْجِزُ العقل عن استنباط عِلَّتِهِ وسببه وحكمته، فتتوقف دون أن نزعم أنه بلا حكمة، بل نقول: خَفِيت علينا حكمته، وَمَنْ يدري؟ فقد يكشف الغد عن هذه الحكمة؛ فتظهر لنا كما ظهرت في كثير من أفعال الله في مخلوقاته وفي أحكامه؛ لقوله تعالى في سورة فُصِّلَتْ: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، والقول بأن أحكام الله لا يجب أن تُعَلَّلَ، صحيحٌ، على معنى أننا نتبعها، ولو لم نفهم عِلَّتَهَا وحِكْمَتَهَا، ولكن لا يجوز أن نعتقد أنها بدون حكمة!

فإذا تقرر هذا قلنا: إنه ليس لعالم عاقل أن ينكر على المسلمين أنهم يستطيعون - ضمن نطاق المبادئ الأساسية للإسلام، وهي الآيات الْمُحْكَمَات - أن يستعملوا عقولهم في استنباط بعض وجوه الحكمة في الأحكام الموجودة، وفي استنباط الأحكام الجديدة للحوادث المستجدة من طريق القياس أو الاستحسان؛ لأن القول بعدم وجود حكمة للأحكام الإلهية يتناقض مع العقل، كما أن الجمود عن استنباط الأحكام للأحداث المستجدة هو تعطيل للدين، وحُكْمٌ بنقصانه، وهو الدين الكامل بشهادة الله نفسه.

وهكذا نرى أن أعظم مزية يمتاز بها الإسلام - على غيره من الأديان السماوية - أنه يجعل للعقل السلطان الأعلى - النسبي - في إدراك كل معنى في الوجود، ويأمرنا أن نحتكم إليه حتى في الإيمان بالله ووحدانيته والإيمان

بالرسل، وما كانت هذه المزية أعظم المزايا إلا لأنها هي الأصل لكل برهان ذكره الله لإثبات وجوده ووحدانيته وصدق رسوله.

فلولا العقل لما عرفنا الله، ولما استطعنا أن نفهم أدلته التي كررها في كتابه (القرآن) ليبرهن على وجوده ووحدانيته، وطلب منا أن نتفكر فيها وندركها ونعقلها، ومن ثم لَمَا استطعنا أن نؤمن بأحقية الأحكام التي بلغنا إياها الرسول ﷺ وما فيها من الهدى والخير، ولما استطعنا أن نستنبط الأحكام المستجدة بطريق القياس، ولتعطلت أحكام الدين في الوقائع التي لم يرد فيها نص، وهذا ما لا يقول به عاقل من العوام فضلاً عن العاقل من العلماء الأعلام.

فالله عز وجل يقول لنا في سورة المائدة: ﴿أَيُّومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وهو يعلم أن هناك على كل الدهور القادمة وقائع وأحداثاً ستأتي، ولم ينزل سبحانه حكماً خاصاً، فلا بد - عقلاً - أن يكون قد أجاز أن نستنبط الأحكام على أساس العقل من طريق قانون العلّة الذي ندرك به علة الحكم، وحكمة الله فيه، ضمن دائرة المبادئ الأساسية التي أنزلها الله في الآيات المحكمات التي هي أم الكتاب.

ليس عندنا في الإسلام شيء يسمى تفكيراً روحياً، أو إيماناً روحياً لا يعتمد على العقل، وليس عندنا أسرار، وليس عندنا خرافات، بل عندنا عقل، ولنا رب حكيم عليم خاطبنا بأدلة العقل وحدها؛ لأن الإيمان تصديق، والتصديق يسبقه تصور، والتصور والتصديق والاستنتاج والحكم كلها من أعمال العقل وحده.

وما ذلك الإيمان الروحاني الذي يسمونه (إيمان العجائز) إلا نوع من الطمأنينة القلبية والسكينة النفسية اللتين يتمتع بهما المؤمن إذا امتلأ عقله الباطن بالإيمان بالله والخشوع أمام قدرته العظمى، والإدراك لحكمته البالغة، والفرح برحمته الواسعة.

فإذا لم يكن الإيمان مستنداً في الأصل إلى الاستنتاج العقلي، وكان عبارة عن استهواء روحاني خيالي تظله الأسرار ويتعثر في ظلمته العقل، ذهب ذلك الإيمان الروحي مع الريح عند أول أزمة من أزمت النفس، أو شدة من شدائد الحياة.. وهو بعد ليس بالإيمان الذي يرضاه الإسلام من قوم يتفكرون، ويقرؤون البراهين العقلية البدهية التي ذكرها الله في كتابه، وصاغها بأسلوب يفهمه البدوي الساذج في القرن السابع، والعالم الفيلسوف في القرن الواحد العشرين». (انتهى كلام الشيخ محمد الغزالي المقتبس من مقال للشيخ نديم الجسر - رحمهما الله -).

ويقول الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي^(١): «نحن - المسلمون - لا نخاف من العقل، بالعكس نحن نرحب بالعقل، وليس في الدنيا كتاب أشاد بالعقل ونوّه به مثل القرآن الكريم؛ ست عشرة آية في القرآن الكريم تتكلم عن أولي الألباب، ومادة: عقل، يعقل، يعقلون، موجودة في القرآن بكثرة.

ثم إن الحديث عن الحجة، وعن السلطان، وعن البرهان في القرآن الكريم، فالقرآن حافل بمثل هذا كما جاء في قوله في سورة البقرة: ﴿قُلْ هَآؤُنَا بُرْهَانُنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١١١)، أي: إن أيّ قضية لا تُقبل بغير برهان.

ولذلك نجد القرآن ينشئ العقلية العلمية، ويحارب العقلية الخرافية التي تصدّق أيّ دعوى تقال لها.. العقلية العلمية التي ترفض الجمود على ما كان عليه الآباء، العقلية المقلدة، عقلية كما قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾^(٢٣)، [أمة: دين]

١. الشيخ د. يوسف القرضاوي، هو عالم مصري أزهري معاصر متخصص في اللغة والأدب وعلوم القرآن والسنة، وحاضر في الكثير من الجامعات العربية، وكان رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين سابقاً، وله مؤلفات كثيرة في ما يزيد عن ١٧٠ من المؤلفات، وبالإضافة إلى الكثير من المحاضرات والمناظرات، اتفق في الكثير من مفاهيمه الدينية مع العديد من العلماء، واختلف معهم في بعض المفاهيم (ت: ٢٠٢٢ م).

هذا التقليد يرفضه القرآن، سواء أكان تقليد الآباء، أم تقليد السادة والكبراء، كما جاء في قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ (٦٧)، أم تقليد العوام من الناس، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (١١٦).

إنما يريد من الإنسان أن يفكر وأن يستخدم عقله لا عقل غيره، فالدعوة إلى التفكير، وإلى النظر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، متواترة في القرآن، لقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (١٨٥)، وقوله تعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١٠١)، عملية النظر والتفكير، دعوة إلى النظر والفكر، الحملة على التقليد بكل أنواعه، على الجمود بكل صوره.

وحول العلاقة بين النقل والعقل يقول: «لم يرَ علماؤنا إطلاقاً أيَّ تعارض أو تناقض بين صحيح المنقول وصريح المعقول»، وقد أُلِّفَ في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية كتاباً ظهر في عشرة أجزاء، اسمه «درء تعارض العقل والنقل»، فلا يمكن أن يتعارض عقل صريح مع نقل صحيح، وإذا رأيت تعارضاً فلا بد أن ما ظننته نقلاً ليس صحيحاً، أو ما ظننته عقلاً ليس صحيحاً؛ لأن العقل أثّر من آثار رحمة الله بالإنسان وفضله عليه، والنقل هو وحي الله للإنسان، فكيف تتعارض آثار الله بعضها مع بعض، لا يمكن أن يتعارض العقل مع النقل، لن يحدث التعارض إلا من الناحية الظاهرية الشكلية، لكن عند التأمل لا يمكن أن يوجد تعارض، ولا بد أن يكون هناك توفيق بين ما يُظنُّ من التعارض، أو أن أحدهما ليس صحيحاً.

فلذلك ليس عندنا مشكلة بين «الدين» و«العلم»، الدين عندنا علم والعلم عندنا دين.. الدين عندنا يقوم على أساس من العلم، وأول آيات نزلت في

كتابنا في سورة العلق: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (٢) ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٣) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (٤) ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٥)، وَكَوْنُ أَوَّلِ مَا نَزَلَ عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَادَّةُ الْقِرَاءَةِ وَالْعِلْمِ، وَالتَّعَلُّمِ، وَالْقَلَمِ يُؤَكِّدُ أَنَّ طَلِبَ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ، سَوَاءٌ أَكَانَ عِلْمٌ دِينِيٌّ أَمْ عِلْمٌ دُنْيَا، وَقَدْ اعْتَبَرَ الْإِسْلَامُ تَعَلُّمَ عُلُومِ الدُّنْيَا فَرِيضَةً كِفَائِيَّةً إِذَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا.

لا نعانِي - نحن المسلمِين - من مشكلة عانتها النصرانية في المجتمع الغربي، وهي مسألة التعارض بين العلم والدين، وقامت من أجل ذلك محاكم التفتيش، وحرق العلماء، وحدث ما حدث، ليس عندنا شيء من هذا.

ولكنه يحذر في النهاية من اللعب بالألفاظ، داعياً إلى تحرير المقصود بالعقلانية، فيقول: «فإذا كانت العقلانية هي هذه فنحن - كما قلنا - دُعاة عقلانية، أما إذا كانت العقلانية أن نرفض وحي الله عز وجل أو نُغَلِّبَ الْعَقْلَ عَلَى النِّصِّ، وَلَوْ كَانَ النِّصُّ قِطْعِيَّ الشُّبُوتِ قِطْعِيَّ الدَّلَالَةِ، فَهَذَا لَيْسَ مِنَ الْعُقْلَانِيَّةِ فِي شَيْءٍ؛ لِأَنَّهُ كَمَا يَقُولُ الْإِمَامُ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ^(١) - رَحِمَهُ اللَّهُ -: إِذَا ثَبَتَ وَجُودُ اللَّهِ بِالْعَقْلِ، أَوْ أَثْبَتْنَا النُّبُوَّةَ بِالْعَقْلِ، وَأَثْبَتْنَا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَنَّهُ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كِتَابٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ، إِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِالْعَقْلِ، عِنْدَ ذَلِكَ يَعْزَلُ الْعَقْلُ نَفْسَهُ، وَيَتَلَقَّى مِنَ الْوَحْيِ، وَقَدْ يَأْتِي الدِّينَ بِشَيْءٍ فَوْقَ مَسْتَوَى الْعَقْلِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَأْتِي بِمَا يَسْتَحِيلُهُ الْعَقْلُ، فَلَا يَأْتِي الدِّينَ بِمَا يَسْتَحِيلُ عَقْلاً، وَإِنَّمَا بِمَا يَسْتَحِيلُ عَادَةً، وَالِاسْتِحَالَةُ الْعَادِيَّةُ أَمْرٌ يَتَغَيَّرُ، وَكَمُ مِنْ أَشْيَاءَ كَانَتْ مُسْتَحِيلَةً فِي عَادَاتِ النَّاسِ، تَغَيَّرَتْ، فَلَوْ ذَكَرْنَا لِأَجْدَادِنَا مِنْذُ عَشْرَاتِ السِّنِينَ مَا يَحْدُثُ الْآنَ لَقَالُوا: هَذَا جُنُونٌ، وَكُلُّهَا أَشْيَاءُ كَانَتْ مُسْتَحِيلَةً عَادَةً وَأَصْبَحَتْ عَادِيَّةً نَعِيشُهَا يَوْمِيًّا».

١. أَبُو حَامِدٍ مُحَمَّدُ الْغَزَالِيُّ، أَحَدُ أَعْلَامِ عَصْرِهِ، وَأَحَدُ أَشْهُرِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْمُهْجَرِيِّ، (٤٥٠ هـ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ م - ١١١١ م)، كَانَ فَقِيهًا وَأَصُولِيًّا وَفِيلَسُوفًا، لُقِّبَ بِـ «حُجَّةِ الْإِسْلَامِ».

والخلاصة:

إنه لَغَبْنٌ للإسلام أن يُحَكَمَ عليه بما ليس فيه، وأن تُعَمَّمَ أحكامُ كالفصل بينه وبين العلم، ثم تُسَقَطَ عليه، وهي إن صح إسقاطها على غيره - في ظروف معينة - لا يصح أن تُسَقَطَ عليه بحال.

لم تعرف البشرية دينًا - سماويًا كان أو وَضْعِيًّا - حض على العلم والتعلم، وقرن بينهما وبين العبادة، تحقيقًا لغاية استخلاف الإنسان على وجه الأرض - وهي العبادة وعمارة الأرض - مثل دين الإسلام.

وفي التراث الإسلامي لا تعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول البتة. وعلى هذا قامت الأدلة - نقلية وعقلية -، وأنى يكون ثمة تعارض بينهما وأول لفظة نزلت من القرآن هي (اقرأ)؟

إن أعظم مزية يتميز بها الإسلام على غيره من الأديان السماوية أنه يجعل للعقل السلطان الأعلى في إدراك كل معنى في الوجود، ويأمرنا أن نحتكم إليه حتى في الإيمان بوجود الله ووحدانيته والإيمان برسله.



[٤] دعوى تعارض الدين الإسلامي والعلم:

يدعي بعض المُعْرِضِينَ أن الدين الإسلامي بمنأى عن العلم، ولعجزه عن مُجاراته وتناقضه معه، أغفله في أحيان، ونفر منه في أحيان أخرى، واستنادًا إلى ما ادَّعَوْه من عجز وما توهموه من تعارض، يدعون إلى فصل هذا عن ذاك، ويرمون من وراء ذلك إلى اتهام الإسلام بالجهل والرجعية، لتزهد الناس فيه، وذلك من خلال وَصْمِهِ بما ليس فيه.

ولمَّا كان الدين الإسلامي شديدَ الاهتمام بالعلم من جهة، وكان العلم وثيقَ الاتصال بالعقل من جهة ثانية، أمرنا القرآن في غير موضع بالتفكير والتعقل، حتى صار العقل أعظمَ ما يتميَّز في الإسلام.

وقد كتب حول هذا الموضوع فضيلة الشيخ الإمام عبد الحليم محمود^(١) -رحمه الله-، حيث قارن التجربة الإسلامية في هذا الصدد بتجربة الكنيسة الأوروبية، فيقول: «إنه لَتَقْلِيدُ بَبْغَاوَاتٍ أَنْ نَنْقُلَ الفكرة التي نشأت في التعارض بين الدين والعلم من بيئتها الجزئية ومن ظروفها الخاصة إلى مجال الدين عامة أينما كان، وفي أيِّ زمان وُجِدَ، وإنه لَمِنْ السُّخْفِ الواضح، وسوء النية المُبَيَّتَةِ أَنْ نَنْقُلَ الفكرة من جوِّ المسيحية إلى جوِّ الإسلام، الذي كانت أول كلمة في وحيه «اقرأ»، والذي يصل بالعلماء إلى أن يشهدوا التوحيد مع الله والملائكة.

لقد أحدث الإسلام في الدنيا - بموقفه هذا من العلم - نهضةً علمية، كان من ثمارها الحضارة الإسلامية، والتي كانت تسمي البحث في الطبيعة وفي الكون هذه التسمية الجميلة: (العلم بِسُنَنِ الله الكونية).

١. د. عبد الحليم محمود، شيخ الأزهر الأسبق (ت: ١٩٧٨م)، وكان قد تولى أمانة مجمع البحوث العلمية في مصر ووزارة الأوقاف، وله الكثير من المؤلفات في العلوم الإسلامية بما يزيد عن ٥٩ كتابًا.

فَعِلْمُ الطَّبِيعَةِ (Science) فِي الصُّورَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ هُوَ الْعِلْمُ بِسَنَنِ اللَّهِ الْكَوْنِيَّةِ، وَقَدْ قِيَّدَتْ مِنْذُ الْبَدَايَةِ مُبَاشَرَةً بِأَنْ تَكُونَ (بِاسْمِ رَبِّكَ)، وَالْعِلْمُ فِي الْإِسْلَامِ - بِالذِّينِ وَبِالْمَادَةِ - لَا شَرْطَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي اتِّجَاهِ رَبَّانِيٍّ.

إِنَّ الْإِسْلَامَ يُوجِبُ أَنْ تَكُونَ أُسُسُ الْعِلْمِ مُتَّسِمَةً بِالْخَيْرِ، وَيُوجِبُ أَنْ تَكُونَ غَايَاتُهُ مَنْعِمَةً فِي الْخَيْرِ، وَيَجْعَلُ مِنَ الْعِلْمِ قُرْبَى إِلَى اللَّهِ، وَيَجْعَلُ مِنْهُ عِبَادَةً لِلَّهِ، إِنَّهُ سَبْحَانَهُ يَجْعَلُهُ بِاسْمِهِ الْكَرِيمِ، وَمِنْ الْمُلَاحَظَاتِ الدَّقِيقَةِ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي كَانَتْ فِي افْتِتَاحِ الْوَحْيِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١)، أَي: اقْرَأْ بِاسْمِ الْمُرَبِّيِّ سَبْحَانَهُ، أَي: اقْرَأْ فِي إِطَارِ التَّرْبِيَةِ الْإِلَهِيَّةِ.

فَلَمْ يَتَّخِ الْعِلْمُ الْإِسْلَامِي فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ التَّنْكِيلَ بِالْإِنْسَانِيَّةِ أَوْ الْاسْتِعْلَاءِ أَوْ التَّسَابُقِ مِنْ أَجْلِ إِيجَادِ وَسَائِلِ التَّدْمِيرِ وَالتَّخْرِيبِ، كَلَّا.. وَإِنَّمَا هُوَ بِاسْمِ الْمُرَبِّيِّ (اللَّهُ تَعَالَى خَالِقُ الْكَوْنِ)، وَكَانَ الْعِلْمُ الْإِسْلَامِي مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ضَرُورَةً لَا تَرَفًّا.

وَقَدْ يَتَسَاءَلُ إِنْسَانٌ أَيْضًا عَمَّا إِذَا كَانَتْ هَذِهِ النُّهْضَةُ الْعِلْمِيَّةُ الَّتِي دَوَّتْ فِي أَرْجَاءِ الْعَالَمِ - مُنْطَلَقَةً مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ - لَهَا أَثَرٌ فِي النُّهْضَةِ الْأُورَبِيَّةِ أَمْ لَا؟

وَعَنْ ذَلِكَ نَنْقُلُ عَنِ الْعَالَمِ (الْفِيلَسُوفِ) الْإِنْجِلِيزِيِّ الْأَسْتَاذِ بْرِيفُولْتِ^(١) صَاحِبِ كِتَابِ (بِنَاءُ الْإِنْسَانِ)، - وَهُوَ مِمَّنْ أَنْصَفُوا الْحَضَارَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ بَعْدَ أَنْ ظَلَمَهَا الْغَرَبِيُّونَ قُرُونًا مُتَعَدِّدَةً -: إِنَّ رُوجِرَ بِيكُونِ^(٢) (ت: ١٢٩٢م) دَرَسَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ وَالْعِلْمَ الْعَرَبِيَّ فِي مَدْرَسَةِ إِكْسْفُورْدَ، عَلَى يَدِ مُعَلِّمِيهِ الْعَرَبِ فِي

١. د. روبرت بريفولت، فرنسي الجنسية، كان روائيًّا وباحثًا أنثروبولوجيًا وعلم الإنسان - وهو صنف فرعي العلوم الاجتماعية، وينقسم لعدة أقسام: اجتماعي، ثقافي، لغوي، حيوي، تاريخي -.

٢. روجر بايكون، ويعرف أيضًا باسم Doctor Mirabilis أي: «المعلم المذهل» باللاتينية، كان فيلسوفًا إنجليزيًّا وراهبًا فرنسيسكانيًّا، وهو الذي وضع التأكيد على التجربة. ويشكر أحيانًا على إنجازاته كأول أوروبي يضع قوانين المنهج العلمي، وقد أثرت أعمال أفلاطون عليه، وعندما رأى العلوم الإسلامية ودعا إليها، سجن لفترة بسبب آرائه واهتماماته.

الأندلس، وليس لروجر يكون - ولا لسميّه الذي جاء بعده - يقصد فرنسيس بيكون، وهما المنسوب إليهما في الحضارة الغربية ابتكار المنهج العلمي التجريبي - الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي - في العلم -.

فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم الإسلامي والمنهج الإسلامي إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يَمَلْ قطُّ من التصريح بأنَّ تعلّم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقّة. والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرق من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية! لأنّ منهج العرب التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشاراً واسعاً، وانكبّ الناس - في لهف - على تحصيله في ربوع أوروبا.

ويقول: «لقد كان العلم أهمّ ما جادت به الحضارة العربية الإسلامية على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج. إن العبقرية التي ولّدتها ثقافة العرب في إسبانيا لم تنهض - في عنفوانها - إلا بعد مُضيّ وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام، ولم يكن العلم العربي وحده هو الذي أعاد إلى أوروبا الحياة، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية».

ويضيف: «بالرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوروبي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، فإن هذه المؤثرات توجد - أَوْضَحَ ما تكون - في نشأة الطاقة التي تُكوّن ما للعالم الحديث من قوة متميزة ثابتة، وفي المصدر القوي لازدهاره، أي: في العلوم الطبيعية، وفي روح البحث العلمي».

ويقول: «إن ما يدين به عالمنا لعلماء المسلمين ليس فيما قدموه إلينا من كشف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العالم لهم بوجوده نفسه، فالعالم القديم - كما رأينا - لم يكن للعلم فيه وجود، وعلم النجوم عند اليونان

ورياضياتهم كانت علومًا أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم في يوم من الأيام فتمتزج كليًا بالثقافة اليونانية».

وقد نظم أهل اليونان المذاهب، وعمموا الأحكام، ووضعوا النظريات، ولكن أساليب البحث في تمهّل وتبصّر، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبي، كل ذلك كان غريبًا تمامًا عن المزاج اليوناني، ولم يقارب البحث العلمي نشأته في العالم القديم إلا في الإسكندرية في عهدها الهلينستي^(١).

أما ما ندعوه (العلم) فقد ظهر في أوروبا نتيجةً لروح من البحث جديدة، ولطُرُق من الاستقصاء مُستحدثة، ولطرق التجربة والملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها أهل اليونان، وهذه الروح، وتلك المناهج العلمية، أدخلها المسلمون والعرب إلى العالم الأوروبي. - انتهى
بيكون من مقولته -

لم تعرف البشرية دينًا - سماويًا كان أم وضعيًا - حَصَّ على العلم والتعلُّم، وقرن بينهما وبين العبادة، مثل الإسلام، وقد تتابعت الدراسات والبحوث في مسألة (تحرير العلاقة بين الدين والعلم في الإسلام)، ومن هذه الدراسات فصل رائع كتبه المستشرق الألماني - الذي أسلم في ما بعد - السفير مراد هوفمان في كتابه «الإسلام كبديل» تحت عنوان (الإيمان والعلم)، يقول: «... فطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، والقرآن يحث المسلمين في آيات متعددة على ضرورة طلب العلم مستعينين بالله ليزدادوا علمًا، متوسِّلين بما منحهم من بصر وبصيرة وقلوب وألباب، ووسائل إدراك، فيقول عز وجل في سورة طه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(١١٤)، ويقول عز وجل في سورة آل عمران: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١١٥)، وقال تعالى في سورة لقمان:

١. العهد الهلينستي، فترة في التاريخ القديم كانت فيها الثقافة اليونانية تزدح بالكثير من مظاهر الحضارة، وبدأت بعد وفاة الإسكندر الأكبر عام (٣٢٣ ق.م)، واستمرت حوالى ٢٠٠ سنة في اليونان و ٣٠٠ سنة في الشرق الأوسط فقط.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾، ويقول عز وجل في سورة الأنعام: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

إن المسلم العاقل يفكر في خلق الله عز وجل، فتري المسلمين من ذوي الألباب يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، يسعون إلى الموضوعية سعيًا، لا يميلون إلى الهوى بغيًا، يدفعون الشك بالدليل واليقين، ولا يركنون أو يأخذون بمجرد الظنون والتخمين، كما وصفهم رب العالمين.

في ضوء هذا نتفهم طلب الرسول ﷺ إلى كل مسلم ومسلمة السعي الحثيث للتعلم، والأحاديث الصحيحة تبين أن طلب العلم فريضة على كل مسلم، مهما بُعدت الشُّقَّة، حتى قيل: ولو بالصين، وهو الأمر الذي يقاس اليوم برحلات الفضاء إلى القمر مثلاً.

ولقد بلغ من تقدير الرسول ﷺ للعلم والتعلم أنه قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِّطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَفَضَّلَ الْعَالِمُ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ» [رواه أبو داود والترمذي]

-والعلم بكافة أشكاله علم ديني ودنيوي-.

كان هذا الظماً إلى العلم مُقْتَرَنًا باستعداد المسلم لاستخدام عقله، فشكلاً القاعدة المنبسطة لازدهار العلوم الإسلامية مع مُسْتَهْلَ القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري)، وكان ينبغي أن نجتزئ في هذا المضممار بذكر أربعة عشر مَعْلَمًا عالميًا - وهم بعض من مئات العلماء المسلمين -،

كالخوارزمي^(١) وابن فرناس^(٢)، والرازي^(٣)، وأبو الوفا البوزجاني^(٤)،
والزهراوي^(٥) وابن يونس المصري^(٦) وابن سينا^(٧)، والبيروني^(٨)،

١. أبو عبد الله مُحَمَّد بن مُوسَى الخوارزمي، عالم رياضيات وفلك وجغرافيا مسلم، يكنى بأبي جعفر، ولد
حوالي ١٦٤ هـ ٧٨١ م، يعد من أوائل علماء الرياضيات المسلمين؛ حيث ساهمت أعماله بدور كبير في تقدم
الرياضيات في عصره (ت: ٢٣٢ هـ).

٢. أبو القاسم عَبَّاس بن فرناس، هو عالم مخترع موسوعي مسلم أندلسي، ولد في زمن الدولة الأموية في
الأندلس، واشتهر بمحاولته الطيران، إضافة إلى كونه شاعراً وعالماً في الرياضيات والفلك والكيمياء.
عُرف ابن فرناس في الغرب باللاتينية باسم: Armen Firman (ت: ٢٧٤ هـ).

٣. أبو بكر مُحَمَّد بن يَحْيَى بن زَكَرِيَّا الرَّازِي، طبيبٌ وكيميائي وفيلسوف ورياضيَّاتٍ مسلم من علماء العصر
الذهبي للعلوم، وصفته سيغريد هونكه في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب «أعظم أطباء الإنسانية
على الإطلاق»، حيث ألف كتاب الحاوي في الطب، الذي كان يضمُّ كل المعارف الطبية منذ أيام الإغريق
حتى عام ٩٢٥ م (ت: ٣١١ هـ).

٤. أبو الوفاء محمد بن العباس البوزجاني، عالم رياضيات مسلم من خراسان، وعالم فلك عمل في بغداد، من
أعظم رياضيين المسلمين، ومن الذين لهم فضل كبير في تقدم العلوم الرياضية. لمع اسمه وظهر للناس
إنتاجه في كتبه ورسائله وشروحه لمؤلفات إقليدس وديوفانتوس والخوارزمي. وعلى الأرجح يعتبر أبو
الوفاء أحد الأئمة المعدودين في الفلك والرياضيات، وله فيها مؤلفات قيمة، وكان من أشهر الذين برعوا
في الهندسة، أما في الجبر فقد زاد على بحوث الخوارزمي زيادات تعتبر أساساً علاقة الجبر بالهندسة، وهو
أول من وضع النسبة المثلثية (ظل)، وهو أول من استعملها في حلول المسائل الرياضية، ووضع الجداول
الرياضية للمماس، وظهرت عقبرية البوزجاني في نواح أخرى كان لها الأثر الكبير في فن الرسم، فوضع
كتاباً عنوانه (كتاب في عمل المسطرة والبركار والكوتيا) المثلث القائم الزاوية، وفي هذا الكتاب طرق
خاصة مبتكرة لكيفية الرسم واستعمال الآلات كذلك (ت: ٣٨٨ هـ).

٥. أبو القاسم خَلْف بن عَبَّاس الزَّهْرَاوِيُّ المعروف في العالم الغربي بإسم: Abulcasis، هو طبيب عربي
مسلم عاش في الأندلس، يعد أعظم الجراحين الذين ظهرُوا في العالم الإسلامي، ووصفه الكثيرون
بأبي الجراحة الحديثة، أعظم مساهماته في الطب هو كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف»، الذي يعد
موسوعة طبية من ثلاثين مجلداً (ت: ٤٠٠ هـ - ١٠١٣ م).

٦. ابن يونس المصري، هو أبو الحسن الصدفي المصري، نسبة إلى قبيلة الصدف اليمنية التي سكنت مصر، ولقد
ولد بمصر، وهو من مشاهير الفلكيين العرب الذي ظهر وابتعد البتاني وأبي الوفا البوزجاني، وربما كان أعظم
فلكيي عصره. سبق جاليليو في اختراع بندول الساعة بعدة قرون. ولنبوغه أجزل له الفاطميون العطاء،
وأسسوا له مرصداً على جبل المقطم قرب القسطة، وعمل جداول فلكية، اعتمدت لمئات السنين
(ت: ٤٠٢ هـ).

٧. أبو علي الحُسَيْن بن سَيْنَا البَلْخِيّ ثم البُخَارِيّ المعروف بابن سينا، عالم وطبيب مسلم من بخارى، ولد في
سنة ٣٧٠ هـ، اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما (ت: ٤٢٧ هـ).

٨. أَبُو الرَّيْحَانِ مُحَمَّد بنُ أَحْمَدَ البِيرُونِيّ هو باحث مسلم كان رحالةً وفيلسوفاً وفلكياً وجغرافياً وجيولوجياً
وررياضياتياً وصيدلانياً ومؤرخاً ومترجماً، ولد في خوارزم (أوزبكستان حالياً)، وصف بأنه من بين أعظم
العقول التي عرفتها الثقافة الإسلامية، وقد قال بدوران الأرض حول محورها في كتابه: مفتاح علم الفلك،
كما صنف كتباً تربو عن المائة والعشرين (ت: ٤٤١ هـ).

وابن الهيثم^(١)، وعمر الخيام المصري^(٢)، وأبو عبد الله الإدريسي^(٣)،
وأبو البركات البغدادي^(٤)، وابن رشد^(٥)، والجزري^(٦) وابن البيطار^(٧)،

١. أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم، عالم موسوعي عربي مسلم قدّم إسهامات كبيرة في الرياضيات والبصريات والفيزياء وعلم الفلك والهندسة وطب العيون والفلسفة العلمية والإدراك البصري والعلوم بصفة عامة بتجاربه التي أجراها مستخدماً المنهج العلمي، وله العديد من المؤلفات والمكتشفات العلمية التي أكدها العلم الحديث (ت: ٤٣٠هـ).

٢. عمر الخيام، هو غياث الدين، أبو الفتح الخيام نيسابوري، لقب بعمر الخيام لأن والده كان يعمل في صنع الخيام، وهو عالم فلك ورياضيات، وفيلسوف وشاعر فارسي مسلم، ويذهب البعض إلى أنه من أصول عربية، وُلِدَ في مدينة نيسابور بخراسان، تخصص في الرياضيات والفلك واللغة والفقه والتاريخ. وهو أول من اخترع طريقة حساب المثلثات والمعادلات الجبرية من الدرجة الثالثة، وهو صاحب الرباعيات المشهورة. وهو أول من استخدم الكلمة العربية (شيء) التي تكررت في القرآن الكريم، وقد استخدمها الخيام للدلالة على الكلمة التي رسمت في الكتب العلمية البرتغالية (Xay) وما لبثت أن استبدلت بالتدريج بالحرف الأول منها «x» الذي أصبح رمزاً عالمياً للعدد المجهول. ويعتبر بعض المؤرخين عمر الخيام - نظراً إلى مقارنته الهندسية من أجل حلحلة معادلات جبرية - رائداً في اختراع الهندسة التحليلية، قبل رينيه ديكارت بحوالي خمس قرون. برع عمر الخيام في الفلك أيضاً. أنشأ مرصد في مدينة أصفهان. وقد عدل التقويم الفارسي القديم. ويقول المؤرخ جورج سارتن إن تقويم الخيام كان أدق من التقويم الجريجوري. (ت: ٥٢٥هـ)

٣. أبو عبد الله بن محمد الإدريسي القرشي، عالم عربي مسلم يعتبر من كبار الجغرافيين في التاريخ ومن مؤسسي علم الجغرافيا الحديثة، كما كتب في الأدب والشعر والنبات ودرس الفلسفة والطب والنجوم في قرطبة، استخدمت مصوراته وخرائطه في سائر كشوف عصر النهضة الأوروبية (ت: ٥٥٩هـ).

٤. أبو البركات البغدادي، أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكا البغدادي، وهو طبيب وفيلسوف اشتهر في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، ولقب بأوحد الزمان، وعرفه عامة الناس باسم البلدي. ولد ونشأ في مدينة البصرة، ثم سافر وعمل في بغداد، ولقب بفيلسوف العراقيين في عصره، وكذلك فهو له باع طويلة في العلوم الطبيعية ومكتشف قوانين الحركة.. وقد ذكرها في كتابه «المعتبر في الحكمة» وفيها نصوص هامة تختص بحركة الأجسام (قبل نيوتن بمئات السنين) وقد حقق سبقاً أكيداً في مجال حركة الأجسام تحت تأثير الجاذبية الأرضية قبل جاليليو جاليلي (١٥٦٤-١٦٤٢م) بحوالي خمسة قرون من الزمان (ت: ٥٦٠هـ).

٥. أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد يسميه الأوروبيون Averroes واشتهر باسم ابن رشد الحفيد هو فيلسوف وطبيب وفقه وقاضي وفلكي وفيزيائي عربي مسلم أندلسي. نشأ في أسرة من أكثر الأسر وجاهة في الأندلس والتي عرفت بالمذهب المالكي، حفظ موطأ الإمام مالك، وديوان المتنبي (ت: ٥٩٥هـ).

٦. بديع الزمان أبو العز الجزري الملقب بـ الجزري عالم مسلم عربي يعتبر من أعظم المهندسين والميكانيكيين والمخترعين في التاريخ، ولد الجزري في منطقة جزيرة ابن عمر التي تقع اليوم في الأقاليم السورية الشمالية على نهر دجلة، ثم عمل كرئيس المهندسين في ديار بكر شمال الجزيرة الفراتية (ت: ٦٣٠هـ-١٢٠٦م).

٧. ضياء الدين المألقي (يلقب بابن البيطار)، عالم نباتي وصيّلي مُسلم، يعتبر من أعظم العلماء الذين ظهروا في القرون الوسطى. والملقب بالنباتي والعشاب، يعتبر من أعظم العلماء الذين ظهروا في العصر الذهبي للإسلام، وعالم عصره في علوم النبات والعقاقير، والصيدلاني الأول في تراكيب الدواء ورائد العلاج الكيميائي. ولد في الأندلس بمدينة مالقة، وتلقى علومه في إشبيلية على أيدي علمائها، انتقل إلى المغرب بعد أن بلغ العشرين من عمره، واستقر في دمشق، حيث قام فيها بأبحاثه فيما يخص النباتات وضع ابن البيطار

وابن النفيس^(١)، وابن بطوطة^(٢)، وابن خلدون^(٣)، وجابر بن حيّان^(٤) وتقي الدين الشامي^(٥).

وبعد أن يورد مراد هوفمان تعريفًا بهؤلاء الأعلام المسلمين يبيّن أثر هذه الحضارة التي تأسست على تلك المرجعية الإسلامية، ومنها انطلقت على الحضارة الغربية، فيقول: ويدل هذا البيان الموجز بأسماء الأعلام الأربعة عشر وحده على أن الغرب لم يرث ما يسمى الحضارة الهلينية (الحضارة الأوربية القديمة)، وإنما الشرق الإسلامي هو الذي ورثها وبعثها وطورها.

ونظرًا لتدفق العلوم والتكنولوجيا الناهضة في تلك الحضارة الإسلامية آنذاك، كان من المفهوم أن يسير التبادل الحضاري في العصور الوسطى في طريق ذي اتجاه واحد بأخذ الغرب عن المسلمين وليس العكس، أو على

-
- عددًا من المؤلفات أشهرها الموسوعة النباتية المسماة «الجامع» لمفردات الأدوية والأغذية، والذي وصف فيه أكثر من ٤٠٠، ١ عقار نباتي وحيواني ومعدني منها ٣٠٠ من صنعه، بل ساهم في استقرار المصطلح الطبي العربي وأثرى معجمه الذي أصبح من بعده مصدرًا ثريًا لكل أطباء أوروبا والغرب (ت: ٦٤٦هـ).
١. أبو الحسن علاء الدين الخالدي المخزومي (يلقب بابن النفيس)، القرشي الدمشقي الملقب بابن النفيس، ويعرف أحيانًا بالقرشي، هو عالم موسوعي وطبيب مسلم، له إسهامات كثيرة في الطب، ويعتبر مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وأحد رواد علم وظائف الأعضاء في الإنسان (ت: ٦٨٧هـ).
٢. محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، ولد في طنجة في المغرب، وهو رحالة ومؤرخ وقاضي، ولقب بأمر الرحالين المسلمين، وهو فقيه وقاضي شرعي ومستكشف ورسام خرائط ورحالة معروف (ت: ٧٧٩هـ).
٣. عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي المعروف بابن خلدون، ولد في تونس، وتخرج من جامعة الزيتونة، وكان سياسيًا وعمل في الاقتصاد وعلم الاجتماع والفلسفة وعلم الإنسان (ت: ٨٠٨هـ).
٤. جابر بن حيّان بن عبد الله الأزدي عالم مسلم عربي، برع في علوم الكيمياء والفلك والهندسة وعلم المعادن والفلسفة والطب والصيدلة، ويُعد جابر ابن حيّان أول من استخدم الكيمياء عمليًا في التاريخ (ت: ٨١٥هـ).

٥. تقي الدين محمد بن معروف الشامي، كان مصنفًا عسكريًا عثمانيًا وهو واحد من المسلمين العرب الموسوعيين الذين أحاطوا بكل العلوم: كان عالمًا، فلكيًا ومنجمًا، مهندسًا ومخترعًا، وصانع ساعات الحائط والساعات اليدوية، رياضيًا وفيزيائيًا، خبيرًا زراعيًا وجنائيًا، طبيبًا وصيدليًا، حاكمًا مسلمًا وحافظًا لمواقيت الصلاة في المسجد، فيلسوفًا مسلمًا وصاحب علم الكلام، ومعلم مدرسة، كان مؤلفًا لأكثر من ٩٠ كتابًا في شتى المواضيع المختلفة، والتي تشمل: علم الفلك، والتنجيم، وصناعة الساعات، والهندسة، والرياضيات، والميكانيكا، والبصريات، والفلسفة الطبيعية؛ وعلى الرغم من ذلك، فإن ٢٤ كتابًا فقط قد نجت من بين هؤلاء الكتب، حظي بتقدير واسع بسبب شهرة سمعته التي عاصرت علماء عصره في الدولة العثمانية كأعظم عالم على وجه الأرض (ت: ٩٦٣هـ-١٥٨٥م).

حد تعبير مارشال هدجسون (وهو مؤرخ أمريكي شهير توفي ١٩٦٨ م.): «لم يجد المسلمون لدى الغرب شيئاً يُذكر يستحق أن يبذلوا جهداً ليتعلموه». وهكذا كان الغرب في تلك العلاقة مستورداً بحثاً فحسب، سواء على الصعيد المادي أو المعنوي... هذا الغزو الحضاري الإسلامي العالمي، أو بلغة العصر (الاستعمار الفكري) - كما يحلو لبعضهم أن يسميه -، ترك بصماته التي تحكي الكثير، في شكل روااسب لغوية وتعايير، ولم نزل حتى اليوم نتوسل بألفاظ عربية الأصل، من مثل: أميرال (أمير البحر)، ألجبرا (الجبر)، والكحول، والعود، والقيثارة...

(انتهى كلام الدكتور الشيخ عبدالحليم محمود رحمه الله تعالى).

ولزيادة المعرفة عن تأثير العلماء المسلمين في الفترة ما بين ٨٠٠ م. - ١٦٠٠ م. يرجى الرجوع إلى كتاب «ألف اختراع واختراع - التراث الإسلامي في عالمنا»، وهو من تأليف البروفيسور سليم الحسني، رئيس مؤسسة العلوم والتكنولوجيا والحضارة (FSTC) إنجلترا.



[٥] مفهوم العلم في الإسلام:

العلم في اللغة: مصدر من الفعل عَلِمَ، وهو إدراك الشيء على حقيقته.
أمّا مفهوم العلم في الاصطلاح: فهو مجموعة من النظريات والوقائع والحقائق، بالإضافة إلى مناهج البحث المتواجدة في جميع المؤلفات العلمية.

كما يمكن تعريفه أيضًا بأنه نَسَقٌ من المعارف العلميّة المُتراكمة، أو عبارة عن مجموعة من القواعد والمبادئ التي من خلالها يتمّ شرح البعض من الظواهر والعلاقة القائمة فيما بينها.

أما العلم الديني، فالمراد به: علم ما أنزل الله على رسله وأنبيائه من التعاليم والإرشادات والبيّنات والهُدَى.

وعند المسلمين: هو «علم القرآن» الذي أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ، وأوصله إليه عن طريق سيدنا جبريل عليه السلام، والذي علّمه لأصحابه رضوان الله عليهم، حيث دوّنوه وسُمّي بـ «المصحف الشريف».. والمصدر الثاني للعلم في الدين الإسلامي هو «السنة النبوية الشريفة»، وهي أقوال وأفعال وتعاليم الرسول محمد ﷺ، التي حُفِظَتْ لنا عن طريق الصحابة، وحُقِّقَتْ عن طريق العلماء الثقات على مدى العصور.

إنّ العلم عند المسلمين يجب أن لا يُفهم على أنّه العلمُ بأحكام الدين وآدابه فحسبُ، وأن لا شأن للإسلام بالعلم الكونيّ، أو العلم المادي؛ لأنّ هذا

الفهم خاطئ، حيث جاء الإسلام شاملاً لأنواع النشاط الإنساني، ولجميع نواحي الحياة، وأمرَ البشرَ بالبحث الكوني وبتعمير هذا الكون المسخر لهم، وتوجيه القرآن في هذا الصدد هو التأكيد للمنهج العلمي الصحيح، الذي يحفز الإنسان لاستكشاف ما هو مجهول في هذا الكون للتفكر والتدبر، وهذا يفتح الباب واسعاً أمام العقل، للاستنباط من أنواع العلوم المختلفة، ومنها ما يتعلق بشؤون الطبيعة والاقتصاد والسياسة والاجتماع...

ولقد اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بالعلم بجميع أنواعه، فعندما نزل القرآن الكريم، كانت أول كلمة نزلت في القرآن هي «اقرأ»؛ لعظمة العلم في حياة الإنسان؛ لأن الله لا يُعبد بجهالة، قال الله تعالى في سورة الزمر: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٩.

ويعُد الإسلام العلم بالأمور الحياتية «فرض كفاية»، حيث أشار إليه الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله منذ تسعة قرون في كتاب (إحياء علوم الدين)، تحت عنوان (بيان العلم الذي هو فرض كفاية)، وهو من العلوم المحمودة، وهو كل علم لا يُستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب؛ إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب؛ فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والموارث، والتجارة، وكذلك أصول الصناعات والبناء والفلاحة والحياسة وغيرها.

[٥-١] وظائف العلم (العلوم الطبيعية Science) وأنواعه:

تتمثل الوظيفة الرئيسة للعلم - في وجهة نظر علماء الطبيعة Science - في اكتشاف النظام الذي يسود في الكون، ومعرفة وفهم القوانين الطبيعية، وإيجاد الطرق والوسائل المناسبة للسيطرة على القوى الطبيعية، والتحكم فيها، ويتم ذلك من خلال رفع قدرة الإنسان على تفسير الظواهر والأحداث، ومحاولة التنبؤ بها لضبطها (قدر الإمكان)، حيث تنحصر وظائف العلم - بهذا التوصيف - في تحقيق ثلاثة أهداف أساسية، نذكرها على النحو الآتي:

[١-٥-١] التنبؤ العلمي:

حيث إنّ العلم يُساهم في المساعدة على التنبؤ الصحيح لعملية سير الظواهر والأحداث، سواءً أكانت طبيعيّة أم غير طبيعيّة، والتي تكون مُنظمة بقوانين علمية مكتشفة، وعلى سبيل المثال: التنبؤ بحالة الجو، وتوقُّعات مواعيد الكسوف والخسوف، وذلك يهدف إلى أخذ الاحتياطات اللازمة والمتوفّرة لمواجهة أيّ أمرٍ طارئ. فالمقصود بالتنبؤ في هذه الحالة ليس التخمين أو التكهن بمعرفة المستقبل، إنّما هو القدرة على توقُّع ما قد يحدث في حال كانت الظروف تسير سيراً مُعيّناً وفق قوانين محدّدة وضعها الله تعالى، وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنّ التنبؤات العلمية التي يقرّرها العلماء بالعلم الكونيّ الماديّ ليست دقيقةً في كل مجالات العلم؛ حيث إنّها في العلوم الطبيعية تكون أكثر دقة منها في مجالات المعرفة الاجتماعية والعلوم السلوكية.

[٢-١-٥] التعبير والاكتشاف:

تشمل هذه الوظيفة اكتشاف القوانين العلميّة الشاملة والعامة للأحداث والظواهر المتشابهة والمتناسقة والمترابطة، بواسطة ملاحظتها ورصدها وتصنيفها وتحليلها، من خلال وضع فرضيّاتٍ علميّة، والتجريب العلمي من أجل الوصول إلى قوانين علمية موضوعية شاملة وعامة تفسر الظواهر والوقائع والأحداث.

[٣-١-٥] الضبط والتحكّم:

يُساهم العلم في عمليّة الضبط والتحكّم في بعض الأحداث والظواهر والأمراض والسلوكيات والسيطرة عليها قدر الإمكان، وتوجيهها التوجيه المناسب، وقد نجح العلم - نسبياً - في التفاعل مع هذه الأحداث وتقديم حلول، ولكنه ما يزال عاجزاً أمام الطبيعة والقوانين الإلهية التي وضعها الله سبحانه في الكون.

ظهر العلمُ مع نشأةِ الإنسانيَّةِ، وشهد تاريخُ العلم سلسلَةً من الثورات والتطوُّرات عبَّرَ العديد من الحِقَبات المتعاقبة، والتي كان من أبرزها التي جاءت بعد الحرب العالميَّة الثانية، ممَّا أدَّى إلى انقسام العلم المدني المادي إلى عدَّة فروع أو علوم، حيث تُصنَّف العلوم حسب معايير محدَّدة تميِّز بأهدافها ومناهجها والمواضيع التي تدرسها، وقد قسمها بعض العلماء كما يلي:

- علوم أساسيَّة، كعلم الفيزياء (العلوم الطبيعيَّة كما يسميها العرب).
- علوم تطبيقيَّة، مثل العلوم الطَّبيَّة والصحيَّة، من حيث المناهج العلوم التجريبيَّة، وهي العلوم التي تعتمد على دراسة الظواهر القابلة للملاحظة، والتي يمكن اختبار صحَّة نظرياتها من خلال التجربة.
- العلوم التجريديَّة: هي العلوم التي تعتمد على مفاهيم وكميَّات مجردة، والاستدلال فيها يكون رياضيًّا. نذكر أمثلة عليها: علوم الرياضيات، كعلم المثلثات، وعلم الجبر، والعلوم المعلوماتية، وعلم النفس، وعلم المنطق، وعلم الفلسفة.
- ومن حيث المواضيع: العلوم الطبيعيَّة، والتي تهتم بدراسة الطبيعة ومنها: علم الكيمياء، والعلوم الجغرافية، كعلم الطقس والأرصاد الجوية، والعلوم الفيزيائيَّة، كال بصريات والأشعة والحركة، والعلوم الحيائيَّة كعلم النبات وعلم الجراثيم، بالإضافة إلى علم الفلك وعلم البيئة.
- العلوم الإنسانيَّة: وهي العلوم التي تدرُس الإنسان والمجتمع البشري، نذكر منها: علم الاجتماع، وعلم الاقتصاد.

- العلوم الإدراكية: والتي تتضمن كلاً من: علوم الأعصاب والنفس،
واللسانيات -اللغات-، وعلم الأحياء والمعلوماتية والعلوم الهندسية: مثل
الهندسة الميكانيكية، والزراعة، والعمارة ومثلها.

[٣-٥] العلم الديني والديوي (المادي) وأهميتهما معاً:

(العالم) في مفهوم معظم الناس، هو ذلك الشخص الجليل الذي ينحني
له الجميع احتراماً، كيف لا، وهو المتفرغ للبحث والاكتشاف والاختراع
لتسهيل معيشتهم وكسب المال بأسهل الطرق، وجعل حياتهم رغيدة ممتعة،
بغض النظر عن المسؤولية الاجتماعية والأخلاقية.

لذلك ارتبط مفهوم العلم في أذهان العامة بذلك المتعلق بالأمر
التطبيقية فقط، فلا يسمون المتخصص في العلوم الدينية عالماً، بل (رَجُلُ
دِين)! واعتقادهم أنه لا يطلق على الباحث في أمور الدين مُسمًى العالم، مع
أن جميع العلوم الإنسانية كالفلسفة والاجتماع واللغة والتاريخ... ليس فيها
تجريب، بل هي أفكار تتحول إلى فرضية بالملاحظة والاستنتاج، وإن ثبت
انطباقها على الواقع فصارت نظرية، فإنها تظل جدليةً مثل القوانين الطبيعية
الناظمة للكون.

لا تفسير لتلك الازدواجية في الحكم إلا بالتحيز المضاد للفكر الديني،
فالفضاء الثقافي والإعلامي والسياسي محكوم بأسره من قِبَل جماعات
المناوئين للدين واللادينين والعلمانيين، وهؤلاء يعدُّون الدين - بقيمه
الإنسانية الأخلاقية - المُناوئ الوحيد لأطماعهم الاستحواذية، أو على الأقل
غير متوافق مع مصالحهم ومنافعهم.

وحقيقة الأمر أن العلم الديني لا يختلف من حيث الآليات والوسائل، فهو
يعتمد على العقل وأدواته، مثله مثل الفلسفة وباقي العلوم النظرية، لكنه يزيد
عنها بعنصر هام، وهو أن له مصدرًا أساسيًا هو النقل عن المصدر الموثوق

الثابت، وهو الإله الخالق لهذا الكون، والذي يعتبره هؤلاء المُعادون نقطة ضعف، بينما هو مصدر القوة الأمثل، فكل الحقائق العلمية تخضع لقانون النسبية، بينما المعرفة التي مصدرها العلم المطلق (الإلهي) تغدو حقيقة مطلقة لا تحتاج إلى تجريب ولا إثبات.

العلمانيون مقتنعون بوجود الله وبالدين، لكنهم ضد تطبيق تعاليم الدين (التشريعات)، بل يريدونه مجرد ثقافة فردية اختيارية، وأما اللادينيون فيؤمنون بوجود الخالق، لكنهم لا يؤمنون أن الدين من عنده، بل من اختراع البشر، أما الملحدون فلا يؤمنون بوجود خالق أصلاً.

إذن، فالغالبية تؤمن بالله خالقًا، وبتفرد بالألوهية، وهذا يقتضي الاعتراف بأنه وحده يملك «المعرفة المطلقة»، ولما كان من المنطقي أن لا يكون الإله منظورًا بذاته وصفاته، فالمخلوق إدراكًا وعلمًا لا يمكن أن يناظر إدراك الخالق، وإلا لما كان هنالك تُمائزٌ؛ ولذلك فالإله هو الذي يُصدر المعرفة بطريق الوحي إلى فئة مخصوصة من البشر، وبالقدر الذي يحقق غاياته ومراداته من إيجاد هذا المخلوق، هذا ما يسميه المؤمن «العلم المنقول»، ويسميه غيره: الغيبات، أو (الميتافيزيقيا)، ويسميه الملحدين «خرافات»؛ لأن عقله يعجز عن استيعابها وفهمها.

أمّا الدين الإسلامي، فإن هذه المعرفة المكتسبة بالنقل هي محدودة بالأصول والأُسُس، وتسمى «أصول الدين»، ومصدرها ثابت، وهو النص القرآني والسنة الثابتة، وتركت الفروع والتفصيلات والحِثِّيَّات والتطبيقات الظرفية للعلماء - على مر الزمان -، يجتهدون، يبحثون، ويتأملون، ويتدبرون، ويستنتجون.

إن أهمية العلم الديني للبشرية لا تَقِلُّ عن أهمية العلم الدنيوي (المادي)، فالشُّقُّ النقليُّ منه يفسّر ما لا يمكن للعلم الدنيوي تفسيره، مثل علة وجود الإنسان، ومبتدئه ومنتهاه، ودوره ومبتغاه.

كما يفصل الشُّقُّ العقليُّ في منهج ومرادات الشُّقِّ النقليِّ (الشريعة) التي تضبط سلوكيات وأفعال الإنسان، بما تحقق من سعادة للأفراد، وصلاح للمجتمعات، وفوق ذلك كُلُّه رضا الخالق عن الملتزمين بحسن التطبيق (التقوى)، والذي يستوجب حسن الجزاء يوم الحساب الختامي في الآخرة، والعقوبة للخارجين على القانون الإلهي .

أما العلم الدنيوي البحت، فهو يعتمد على العقل في إجراء البحوث والاكتشافات والتجارب، وعلى النقل من التراكم العلمي السابق لهذه البحوث والاكتشافات والتجارب بما لها وعليها، فإمَّا أن يُقَرَّرها، أو يستبعد ما تم إقراره سابقاً، أو يزيد عليها أو يعدلها، وبالتالي فإن نتائج العلم ثابتة نسبياً.

هكذا نتبيّن ضرورة العِلْمَيْنِ معاً (الديني والدنيوي)، ولا يُجْزَى أحدهما عن الآخر؛ لذلك فليست القضيةُ مفاضلةً بينهما، بل إن الفلاح يكمن في الجمع بينهما، وخير العلماء مَنْ حازهما معاً.

وبالتالي، تكمنُ أهميَّةُ العلم في التقدُّم والتطوُّر، شريطة أن يقوم على مبادئ أخلاقية إنسانية من غير نفعيَّة خاصة على حساب المجتمعات، أو على حساب الأفراد بعضهم على بعض؛ لذلك فقد أرشد الله تعالى البشرية من خلال أنبيائه وكتبه السماوية؛ لتنظيم العلاقات الإنسانية على مبادئ أخلاقية لا تُفرِّق بين البشرية، فالعلم بهذه الضوابط هو المفتاح لمعظم حلول الحياة التي تنقل الناس والمجتمع من ظلام الجهل إلى نور العلم والحياة، فهو النبراس الذي لا ينطفئ أبداً؛ لأنه يستمد نوره من نور الله تعالى الذي هيأ للإنسان القدرة على طلب العلم، وأوجب عليه أن يجدَّ ويجتهد ليصل إلى أعلى مراتب العلم؛ لأن مَنْ يعرف قيمة الأشياء التي سيبلغها بالعلم، يعرف جيِّداً أنه دونه سيصبح إنساناً ناقص المعرفة، تختلط عليه الأمور، ويغرق في تحديات كثيرة لا يُعرف آخرها.

لا يُمكن لأيِّ أحدٍ أن يحضُر أهمية العلم في بضع سطور، فلو لا العلم لانتشرت الأمراض والأوبئة؛ لأنَّ مَنْ اخترع العلاج والدواء هو شخص تلقَّى العلم ليصل إلى ما هو عليه، وبالعلم أيضًا استطاع الإنسان أن يتطور في حياته وأن يُغيّر أسلوبه فيها، حيث إن العلم سهّل الحياة على الناس، وجعل كلِّ رفاهيتها تحت أيديهم، فتعالت الأبنية الكبيرة، وانتشرت التكنولوجيا التي جعلت من كل شيء أجمل وأقرب.

ثم إنَّ العلم الدينيَّ والشرعيَّ يُعدُّ أساسًا لمكارم الأخلاق، ومُنظَّمًا للعلوم الكونية المادية، ومرتبة العلماء ذوي الخُلُق الرشيد هي بعد مرتبة الأنبياء، كما أن احترام هذا الصنف من العلماء وطاعته ضرورة ومُلزِمة؛ لذلك يُعدُّ العلم - بشقيه «الديني» و «المادي» - بمثابة منهج كامل وواضح ييسر الدَّرب للعابرين، ويفتح باب مكارمه على مصراعيه لمن يُريد أن يستزيد منه دائمًا.

وإنَّ من أجمل هِباتِ الله للإنسان، أنه هبَّ له طريقَ الأجر والثواب واكتسابِ الحسنات على طلب العلم، فمنزلة «العالم» عند الله تعالى أعلى من منزلة «العابد»، وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنما يدلُّ على أن العلم - بشقيه الديني والمادي - هو الخيار الأمثل الذي ينتشل الخير من قاع الحياة ويضعه في الواجهة، كما أنه طوق نِجاةٍ كبيرٍ من براثن الجهل والسذاجة.



[٦] الهوية الإسلامية والعلماء المسلمون المعاصرون

لقد غيرت الدراسات السوسيولوجية (الاجتماعية) المعاصرة كثيرًا في المفاهيم، ومن ذلك مفهوم الهوية، فجعلته أكثر نسبية، ورأت أنها طُرُقُ تفكيرٍ وشعور وسلوك متماثلة ومهيمنة نسبيًا، وأنها انتقلُ تراثٍ اجتماعي ثقافي معيّن إلى الأجيال الجديدة، أو تنشئة هذه الأجيال في إطار خلفية اجتماعية ثقافية متماثلة، مما يجعلهم يكشفون عن سمات مشتركة فيما بينهم، كما أنها تعني أيضًا: مجتمعًا يتفاعل كوحدة مع الآخرين أو العالم الخارجي .

فلا يُمكن النظرُ إلى الهوية بوصفها أمرًا ثابتًا لا يتغير، وإنما هناك مؤثرات عديدة تؤثر في الهوية على المستوى الشخصي والجمعي، ولا بد أن نأخذ في الاعتبار عند الحديث عن الهوية لدى الأمة المسلمة أنها ليست كُلاً واحداً في جميع البلدان والأقطار الإسلامية، بل هناك ثوابت مشتركة، ومتغيرات بينها، تتمثل في الثوابت المشتركة النابعة من الإسلام، الذي ليس دينًا وعقيدة فحسب، بل هو الإطار الجامع لقيم الأمة وثوابتها ومبادئها ومنطلقاتها التشريعية، ثم تأتي اللغة العربية كلغة العبادات والعلوم الشرعية والحضارة الإسلامية، وهي وإن كانت تنتشر في مجموعة البلدان العربية بشكل كامل، إلا أنها تمثل لغة العبادة والعلوم في الأقطار غير العربية.

ثم تأتي مكونات أخرى، مثل: الموقع الجغرافي وسط العالم، أو ما يسمى الموقع الوسيط في الكرة الأرضية، في قارات ثلاث: آسيا وأفريقيا وأوروبا.

وهناك متغيرات تتمثل في الإرث الحضاري الذي يميّز كل قطر عن غيره، فهناك أقطار امتزج الإسلام بترابها ونفوس أهلها، وهي ذات حضارات سابقة على الإسلام، مثل مصر (الحضارة الفرعونية والقبطية)، وإيران (الحضارة الفارسية)، والعراق (الحضارة البابلية والآشورية)، والشام (الحضارة الفينيقية) وغيرها.

ولا شك أن هذا الإرث له دور كبير في ثقافة هذه الشعوب، ومكوناتها الفكرية والنفسية والجماعية، ولكنها استطاعت أن تتشرب الإسلام، وتساهم بموروثها الحضاري في نهضته.

أيضاً، فإن هناك عادات وتقاليد شعبية راسخة، انعكست في اللغات واللهجات، وأيضاً في الرؤى والتصورات الخاصة، كما لا بد أن نأخذ في الحسبان أن هناك مؤثرات أخرى، مثل بعض العادات والتقاليد الخاطئة، وبعض البدع والخرافات، وهي موروثات يمكن مواجهتها بنشر الثقافة الصحيحة.

وتتمايز الأقطار التي يغلب عليها الطابع البدوي أو التي ذات الطابع الزراعي أو الصناعي والتجاري وغير ذلك.

ولكن ما يعيننا أن أيّ نهضة لابد أن تضع معايير خاصة في علاقتها بهوية الأمة والحفاظ عليها، وعدم تجاهلها. ومن هنا يكون الرد على سؤال يسوقه البعض: هل نحن في حاجة إلى تكوين هوية جديدة؟

الإجابة بالنفي طبعاً، فهذا سؤال نابع من منطلقات الرؤى الحداثية -Mod- ernism التي تنتهج فكر القطيعة مع الموروث، والتدمير لكل الأفكار والقيم السابقة، على أن يقدم الإنسان قيمه وأفكاره من عنده ووفق فلسفات جديدة يضعها، وقد ردّت حركة ما بعد الحداثة Post Modernism على هذه الرؤى، وأعادت الاعتبار للمكونات الثقافية والتاريخية والاجتماعية والعقدية والفنية للشعوب، ورأت أنه من العبث تجاهل إرث تاريخي يمتد آلاف السنين، ومصادرته لصالح عقل الإنسان المعاصر الذي قد يصيب ويخطئ ويتأثر

بظروف عصره، ورأت أن التاريخ والثقافة جزء لا يتجزأ في فهم شخصية الإنسان في مجتمعه، فلا يمكن فهم الإنسان المعاصر دون قراءة تاريخ مجتمعه ومكوناته الجماعية.

وعلى ذلك لا تكون الهوية قطرية ولا إقليمية، بقدر ما تكون متجذرة في أعماق الفرد، وتشكل وطنه الروحي الذي يلوذ به، وحدوده المعرفية والتاريخية والفكرية التي يلتزم بها، وهو ما جاء في تعريف عدد من مثقفي الأمة، حيث قالوا إن مكونات الهوية العربية والإسلامية تعود إلى (الثقافة العربية الإسلامية بكل قيمها ومقوماتها وتاريخها وتراثها وموروثها وكذلك ما في اللغة العربية من حمل معرفي وقيم متنوعة عبر التاريخ، وما لها من فرادة وأصالة وتميز، وما فيها من أصول، وما تعنيه وتستثيره في النفوس من قيم ومشاعر هي بمجملها حدود الوطن الذي تنجذر في أرضه، ونحافظ فيه على هويتنا، وننمي فيه بوعي معرفي عصري خصوصيتنا، رافضين كل قطرية وإقليمية وطائفية تُقزِّمنا أو تقسمنا أو تشوه نظرنا إلى مواقفنا).

ومن هنا تتحدد أزمة الوعي المقصودة، فعندما يحدث خلل في مفهوم الهوية وفي التعامل معها، تنشأ أزمة الوعي، فحين يتجاهل المخطط الاستراتيجي مكونات ثقافة الأمة وهويتها، ويسعى إلى البدء من نقطة الصفر، ويظن أن الطالب الجالس أمامه في مدرسة حديثة، تنتهج النهج الغربي، قد جاء خالي الذهن والقلب والشعور، وعلى المعلم وإدارة المدرسة أن يملأ كل هذا بعلومهم، فهو يسقط في خطأ كبير، وهذا ما رأيناه في المنظومة التعليمية التي سنّها الاحتلال الفرنسي في بلاد المغرب العربي، وسعيه إلى محو الهوية العربية المسلمة، واعتباره التراب المغربي جزءاً لا يتجزأ من التراب الفرنسي، فنشر الفرنسية وألغى العربية، وسخر من الهوية، وحارب الإسلام ديناً وثقافة ودعاة ومجاهدين، فلما نالت هذه الدول استقلالها نادى القوى الشعبية بالتعريب، الذي حدث بالفعل، وبشكل طيب، أثبت أن الفرنسية كانت اختياراً غير متجذر في لغة الشعب وهويته.

ويكون الخطأ الأكبر عندما يحاول المخططون أن ينتهجوا نهجاً يرون أنه توفيقى وفي الحقيقة هو تلفيقى؛ لأنها حين قدمت الرؤى الحداثية قدمتها دون تنقية ولا استقراء لما فيها، بل قدمتها بمرجعياتها الغربية، وفي نفس الوقت تركت المجال لبعض علماء الإسلام عبر المؤسسات الدينية الرسمية في تقديم خطابهم التقليدي، وظلّ خطاباً تقليدياً في قضاياها.

ولا شك أنه من الممكن التركيز على شخصية المسلم الفرد، لتعزيز فكرة أن إسلامه ليس عقيدةً في القلب وعباداتٍ تؤدّى فحسب، وإنما هو تصوّرٌ كامل للحياة، قولاً وعملاً وأداءً ورسالة، وهذا يقتضي سعي كلّ مسلم إلى تعزيز هويته الفردية بروافدها الإسلامية والعربية والحضارية، وهذا يعني المزيد من الثقافة العميقة، والالتجاء إلى مصادرها.

ولكن هناك بوادر وإرهاصات جدية في العديد من الدول الإسلامية لتجديد هويتها، وتقويتها في النفوس، وإنتاج علماء في كل التخصصات بأعداد كبيرة، وخصوصاً أن إمكانيات الشباب الإسلامي المعاصر - سواء الذين أتموا دراستهم في بلدانهم الأصلية، أو تخصصوا وعملوا في البلدان الغربية أو الشرقية وساهموا في النهضة العلمية العالمية المعاصرة - هي إمكانيات كبيرة وحقيقية، ولا تقل عن نظرائهم الغربيين، بل قد تتفوق عليهم.

وهنا نذكر عدداً منهم، من الذين لهم قيمتهم العلمية والأدبية؛ وذلك بغرض العمل على تقدّم بلدانهم، واللاحق بالركب العلمي العالمي الحديث.. نذكر بعضاً منهم ليعرف الشباب المسلم ويعي وينظر بإيجابية وتفاؤل أنه كما استطاع هؤلاء العلماء المساهمة في الحضارات المعاصرة، والوصول إلى العالمية بالمثابرة والصبر والثبات على الهوية الإسلامية = فإنهم يستطيعون فعل ما فعلوا، بل أكثر، وذلك في بلدانهم الإسلامية والعربية، والله تعالى الموفق.

علماء مسلمون،

وشخصيات عالمية معاصرة مؤثرة في العالم (ولها قيمتها الأدبية والعلمية)

العلماء - على اختلاف تخصصاتهم ومجالاتهم العلمية - لهم دور مهم في بناء المجتمعات؛ فبهم تقوم الحضارات والمدنيات، وعلى عاتقهم تقع مسؤولية إيجاد الحلول للمشكلات والتحديات، بحيث يتم استخدام الموارد الطبيعية والتقنية والبشرية بشكل أمثل يضمن استمراريتها لنفع البشرية. وسنذكر بعض هؤلاء العلماء:

[١]. **الدكتور أحمد زويل:** مصري الجنسية، وهو عالم كيمياء، ويحمل الجنسية الأمريكية، من مواليد سنة ١٩٤٦، وتوفي سنة ٢٠١٦، يعدُّ من أشهر علماء الكيمياء في العالم، نال شهادة الدكتوراه في علوم الليزر، وحاصل على جائزة نوبل للكيمياء لابتكاره في مجال كيمياء المفيمتو، وهي أصغر وحدة زمنية في الثانية، بالإضافة إلى نيله عدة جوائز من مدن مختلفة من العالم.

[٢]. **الدكتور عبد الله الربيعه:** سعودي الجنسية، شغل منصب وزير الصحة السعودي سابقاً، صُنِّف كواحد من أفضل الجراحين على مستوى العالم، وقد كان التخصص الذي اشتهر به هو فصل التوأمين السيامي، وقد أجرى ٣٠ عملية جراحية ناجحة لفصل التوأم السيامي، وأكثر من ٦٠٠٠ عملية جراحية، وعادة ما يجري تلك العمليات الخطيرة بالمجان وبدون أي تكاليف على الأسرة التي تعاني من تلك المشكلة.

[٣]. **الدكتورة شادية رفاعي حبال:** سورية الجنسية، أستاذة كرسي فيزياء الفضاء في جامعة ويلز البريطانية، وترأس تحرير المجلة الدولية الخاصة

بفيزياء الفضاء، كما ساهمت في الإعداد لأول رحلة مركبة فضاء إلى الهالة الشمسية، عملت في مجال الفلك والفيزياء، وقد قدمت الكثير من الدراسات العلمية المهمة والاختراعات، خاصة حول الرياح الشمسية وكسوف الشمس.

[٤]. **الدكتور منير حسن نايفة:** فلسطيني الجنسية، يُعدُّ من أهم علماء الفيزياء المعاصرين، حصل على درجة الدكتوراه من جامعة ستانفورد الأمريكية التي حصل منها على منحة، كما حصل على جائزة البحث التصنيغي في الولايات المتحدة الأمريكية، تمكن من الإجابة على استفهام طرحه عالم الفيزياء الشهير ريتشارد فيانمان عن تحكم الإنسان في حركة ومسار الذرة، كما نجح في تحريك الذرات المنفردة ذرة ذرة، وهي تماثل تقنية الميكرو تكنولوجي.

[٥]. **الدكتور عبد القدیر خان:** باكستاني الجنسية، هو عالم باكستاني في الفيزياء النووية، ومهندس بعلم الفلزات والسبائك، ويُعدُّ هو الأب الروحي للبرنامج النووي الباكستاني؛ حيث إنه المؤسس له، والعنصر الأبرز في وجود أول قنبلة نووية باكستانية (توفي في سنة ٢٠٢١ م).

[٦]. **المهندس سلجون بيرقدار:** تركي الجنسية، مدير شركة بيرقدار التقنية المتخصصة بتصنيع المركبات الجوية من دون طيار، وتطوير خوارزميات الملاحة الجوية، وتطوير برامج المركبات. حصل على الماجستير من جامعة بنسلفانيا الأمريكية، وماجستير آخر من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وهو مؤسس نظام طائرات «بيرقدار» المسيرة بدون طيار، التي كان لها دور رئيسي في الحرب بين أوكرانيا وروسيا.

[٧]. **الدكتور رمال حسن رمال:** لبناني الجنسية، حصل في العام ١٩٧٧ على شهادة الدكتوراه في الفيزياء من جامعة جوزيف فورييه في غرونوبل في فرنسا، عمل في مجال المادة المكثفة والفيزياء الإحصائية والنظرية في مركز البحوث، حول درجات الحرارة الشديدة الانخفاض في كشرنوبل، حصل على الميدالية البرونزية التي يمنحها سنويًا المركز الوطني للبحوث العلمية

في فرنسا تكريماً لأفضل الباحثين الشباب في بداية مشوارهم العلمي، وقد منحتهم مجلة العلوم والأبحاث الأمريكية في العام ١٩٨٤ لقب أصغر عالم في جيله، ويعتبر واحداً من مائة شخصية فرنسية مهيأة لتغيير وجه فرنسا، وكان يُعدُّ أحدَ أهم علماء العصر في مجال الفيزياء بعدما تمكن من التوصل إلى اكتشافات علمية مبهرة في مجال الطاقة البديلة.

[٨]. **الدكتور عماد العيني:** أردني الجنسية، سجل الباحث الأردني في جامعة مينيسوتا الأمريكية، حصل على براءة اختراع في تصميم جهاز يعمل بالأشعة فوق الصوتية لمعالجة الخلايا السرطانية والأورام بدون تدخل جراحي وبدون تدمير الخلايا السليمة، مع السرعة والدقة والتعامل مع الخلايا المستهدفة مهما تناهى صغر حجمها.

[٩]. **الدكتور عبد الستار خان:** بنغلاديشي الجنسية، وهو مطور المعادن التي تصنع منها الطائرات المدنية والحربية ومكوك الفضاء الأمريكي.

[١٠]. **الدكتور عدنان شبيب:** ليبي الجنسية، أثرى صناعة أجهزة السمع في العالم من كاليفورنيا، وذلك من خلال تطوير عملية السمع الثورية، والجهاز الذي يخفض التكاليف بنسبة كبيرة بلغت ٩٠ في المائة؛ حيث اخترع أصغر جهاز لمساعدة فاقد السمع في العالم.

[١١]. **الدكتور محمد العباري:** تونسي الجنسية، مهندس يعمل كمستشار لدى وكالة الفضاء الأمريكية، حصل عام ١٩٨٣ على دبلوم الهندسة المدنية، ثم اتجه إلى جامعة كولورادو بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث تخصص بالميكانيكا التطبيقية.

[١٢]. **يوسف تومي كمال:** جزائري الجنسية، عالم في علم الروبوتيك الهندسية الميكانيكية، عمل مستشاراً للعديد من الشركات التقنية، ويعمل باحثاً لدى وكالة الفضاء الأمريكية، بدأ دراسته في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا بأمريكا عام ١٩٨٥، وتركزت معظم أبحاثه حول نظرية التصميم

والتحكم وتطبيقاتها في الأنظمة الديناميكية، ودرس مجموعة من الدورات في مجالات الأنظمة الديناميكية والنمذجة والمحاكاة والضوابط والروبوتات والميكاترونك، كما أشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه.

[١٣]. **الدكتورة مناهل عبد الرحمن:** يمنية الجنسية، تعد أصغر فتاة في العالم تحصل على الدكتوراه في الهندسة المالية، وقد حصلت على أول دكتوراه بعمر ٢٥ عامًا، والثانية في عمر ٢٨ عامًا، وأصبحت نظريتها الاقتصادية تستعين بها كبرى المؤسسات المالية في العالم، وقدمت هذه العالمة اليمنية المقيمة في دبي معادلةً رياضية يتمكن العلماء من خلالها من حساب سرعة الضوء، وذلك في كتاب مكون من ٣٥٠ صفحة. مما دعا (ناسا) والعديد من الوكالات المختصة بالفضاء أن تتفاوض مع العالمة اليمنية لتطوير المعادلة، عُيِّنت رئيسةً لشبكات الذكاء العالمية.

[١٤]. **الدكتور محبوب عبيد طه:** سوداني الجنسية، عالم فيزيائي، حاز على درجة الدكتوراه والأستاذية من جامعة كامبردج بالمملكة المتحدة، قدم طريقة رياضية جديدة سميت بطريقة طه لتحليل التكاملات على متغيرات الاندفاع في التفاعلات الكهرومغناطيسية والتفاعلات الضعيفة، كما ابتكر قواعد جمع طه التي برهنت صحتها في نظرية الاضطراب.

[١٥]. **الدكتور جعفر ضياء:** عراقي الجنسية، من مواليد عام ١٩٤٣م، برع في مجال إنتاج البرنامج النووي، وكان عالمًا مشهورًا ومعروفًا قيمته في المجال النووي، حقق نجاحات وإسهامات كبيرة في مجال القنبلة النووية العراقية في عهد الرئيس صدام حسين قبل تدميرها.

[١٦]. **الدكتورة إقبال محمود الأسعد:** فلسطينية، من سكان لبنان، والدها من قضاء صفد بفلسطين، دخلت موسوعة (غينيس) للأرقام القياسية مرتين، الأولى بتسجيلها أصغر طالبة جامعية، والثانية بتخرجها من كلية الطب كأصغر طبيبة في العالم، نالت الشهادة الثانوية العامة بعمر ١٢ عامًا، تم تكريمها

من قبل وزير التربية آنذاك خالد قباني، وحصلت على منحة من الشيخة موزة عام ٢٠٠٦ لدراسة الطب العام، وكانت بعمر ١٤ عامًا، تخرجت لتصبح طبيبة بعمر ٢٠ عامًا، فدخلت موسوعة (غينيس) من واسع أبوابها للمرة الثانية، حصلت على موافقة رابع أشهر مستشفى بالعالم (كليفلاند كلينك) للتخصص في طب الأطفال، تم تكريمها من الرئيس اللبناني العماد ميشال سليمان بسبب تفوقها المبهر.

[١٧]. **البروفيسور رشيد اليزمي:** مهندس وعالم مغربي، وهو متخصص في مجال علم المواد، مكّنت أعماله المرتبطة بتطوير حجر الجرانيت من جعل البطاريات (أيون الليثيوم) بطارية الهاتف قابلة للشحن التي أحدثت طفرة في مجال الإلكترونيات المحمولة، ونال العديد من الجوائز العالمية.

[١٨]. **الدكتور حاتم زغلول:** أحدث اختراعاته طفرة كبرى في مجالات الاتصال عالميًا، وهو مكتشف «الواي فاي» وتقنية الـ 4G، وحصل هذا العالم المصري على العديد من الشهادات والألقاب العالمية.

[١٩]. **المهندس محمود سيد فايد:** وهو مبرمج كومبيوتر مصري، مبتكر تقنية البرمجة بدون كود (لغة البرمجة)، (RING) (FWCT)، وقد حققت هذه البرامج انتشارًا كبيرًا على المستوى العالمي.

[٢٠]. **محمد الشائي:** عالم مصري، متخصص في مجال الفيزياء النظرية، استطاع تصحيح بعض الأخطاء والمفاهيم العلمية التي وردت في نظرية النسبية العامة لأينشتاين، وهو صاحب نظرية المقطع الذهبي في فيزياء الكم سنة ١٩٩١م. وقد حصل على تكريمات عديدة، ولديه أبحاث مسجلة في الجمعية الأمريكية للرياضيات، وهي أكثر من مئة بحث، وقد رُشح مرارًا لـ (جائزة نوبل) في الرياضيات.

بالإضافة لعشرات الآلاف من العلماء الآخرين في جميع تخصصات العلم الحديث، وهم منتشرون في أنحاء عديدة من العالم، والله الموفق.



[٧] الآيات الكونية في القرآن وتوظيفها في الدعوة:

الكون اصطلاحاً هو: مجموع الموجودات الكائنة من مختلف صور المادة والطاقة والزمان والمكان، من كافة الجماعات والأحياء.

معنى الآيات الكونية:

الآيات الكونية هي الآيات المنسوبة إلى الكون، وهو الخلق الذي كَوَّنه الله تعالى فكان، وذلك: السماوات والأرض والجبال والسهول والأنهار والشمس والقمر والنبات والحيوان والجماد والإنسان...

يوضح الدكتور عبد الله شحاتة^(١) رحمه الله، - وهو عالم في التفسير، ورئيس سابق لقسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم - أن الهدف الأول والأساسي للإشارات العلمية الواردة في القرآن الكريم دعوة المسلم إلى بذل الجهد، والعمل على التعمق في العلوم الدنيوية؛ ليتحقق له الفهم والقوة اللازمة لأداء هيئته في الكون، المتمثلة في عبادة الله تعالى وخلافته في الأرض؛ فدراسة العلماء والباحثين لطبقات الأرض وصخورها وكنوزها ومحتوياتها، ولطبقات الفضاء والهواء، ومعرفة أسرار الكون ونظامه، امتثالاً لأمر الله، وتلبية لرغبة القرآن الكريم في الحث على

١. د. عبد الله محمود شحاتة: مصري، وهو أحد علماء الأزهر المعروفين، عالم ومفسر ورئيس سابق لقسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، وله العديد من الكتب والمقالات (ت: ٢٠٠٢م).

العلم والمعرفة، ويؤمن غالبية المسلمين بأن الله تعالى قد دَلَّ في القرآن الكريم في ما يسمونه (الآيات الكونية) إلى إشارات علمية، وهي الآيات القرآنية التي تختتم بهذه الجمل الهادفة كما وردت في سورة الأعراف: ﴿فِي آيِ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٥)، وفي سورة الرعد: ﴿لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءَ رَبَّكُمْ تَوْقِنُونَ﴾ (٢)، وسورة الروم: ﴿لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَفْكُرُونَ﴾ (٢١)، وفي سورة النحل: ﴿لَا يَأْتِيَنَّ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٦٧).

فهذه الجمل القصيرة من الآيات تُوضِّح أهداف الإشارات العلمية القرآنية، وأن الحقيقة العلمية التي تشير إليها الآيات ليست مقصودة لذاتها، ولكن لهدف أسمى، هو الإيمان بالله ووحْدانيته وقدرته، وبال دعوة الإسلامية ومبادئها وقواعدها، والتعقُّل في فهم وجود الإنسان في الكون، والتعمُّق في العلوم الكونية وتعقُّلها والتفكر فيها وتدبُّرها.

ويمكن تقسيم أهداف الآيات القرآنية ذات الإشارات العلمية إلى مجموعتين:

الأولى: هي الأهداف الرئيسة والعامّة، وتماثل تلك الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها الآيات الشرعية أو الدينية، وهي:

- الإيمان بأن للكون إلهاً واحداً خالقاً مبدعاً قادراً على كل شيء، كما ورد في سورة آل عمران:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١١٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١١١).

وسورة الطارق:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (٧).

- الرد على حُجَج وأباطيل المنكرين والملحدين والمشرَكين، كما ورد في الحجر:

﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيَهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾

- توضيح النظرة الإسلامية للحياة الدنيا، وتوضيح معنى وجود الإنسان في الكون، وأن حياته مرحلة انتقالية لاختباره، ثم لبعثه بعد موته ومجازاته الجزاء الأوفى في الآخرة، كما ورد في سورة البقرة:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وسورة المؤمنون:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

الثانية: هي الأهداف الخاصة، وهي التي تركها الوحي الإلهي للآيات الكونية، وتتلخص في هدفين اثنين، هما:

الأول: تعلُّم العلوم الكونية والتعمُّق فيها، ومحاولة فهم ظواهر مخلوقات الله؛ وذلك لأن الإشارات العلمية في القرآن الكريم لا تكتفي

بدعوة الإنسان إلى التأمل في الكون واستخدام عقله لفهم الظواهر الكونية الواضحة ليستدل على وجود الخالق ووحدانيته وقدرته، والإيمان تبعاً لذلك بالرسالة الخاتمة، ودعوة غير المسلمين لحقيقة الدين الإسلامي ولعبادة الله تعالى على مراده، وقد كان ذلك في الفترة الذهبية للحضارة الإسلامية التي سادت العالم في الفترة ما بين القرن الثامن وحتى القرن السابع عشر الميلادي.

والثاني: دعوة لجذب فئة من المسلمين في كل عصر ومن كل بلاد العالم، للتخصص في العلوم الكونية، والتعمق في الدراسات العلمية في كافة المجالات، وهذه الفئة من العلماء هي التي سيكون لها في كل مرحلة من مراحل الإسلام شرف حمل لواء الدعوة الإسلامية ومسؤولية نشرها، خصوصاً في عصرنا هذا التي تسيطر فيها المادة والثراء والقوة على بعض البشر، إنها المرحلة التي يهيئ الله فيها هذه المجموعة من العلماء المسلمين الراسخين من كل بقاع الأرض في علومهم لتوضيح مصداقية القرآن وتبيين سبقه العلمي، وإثبات ألوهية المصدر، وإظهار الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عصر العلم والتكنولوجيا، وهو هدف وإن لم يكن ظاهراً عند نزول القرآن، إلا أنه هدف مستمر كامن في القرآن إلى أن يشاء الله أمراً كان مفعولاً.



[٨] إعجاز القرآن الكريم وأنواعه:

الإعجاز لغةً: مشتقٌّ من العَجَز. أي: الضعف وعدم القدرة، ويقال: أعجزني فلانٌ إذا عجزت عن طلبه وإدراكه.

والإعجاز القرآني مصطلح يدل على: قصور الإنس والجن عن أن يأتوا بمثل القرآن الكريم أو بسورةٍ من مثله إلى يوم القيامة. هذا من ناحية المحتوى والشكل معاً.

إعجاز القرآن في الإسلام هو اعتقادٌ عند المسلمين ينصُّ على أن القرآن له صفة إعجازية من حيث المحتوى والشكل، ولا يمكن أن يضاهيه كلامٌ بشري، ووفقاً لهذا الاعتقاد، فإن القرآن هو الدليل المُعطى للنبيِّ محمدٍ ﷺ للدلالة على صدقه ومكانته النبوية في كل العصور.

يؤدي الإعجازُ ثلاثةَ أغراض رئيسة:

الأول: إثبات أصالة القرآن وصحَّته مصدرًا من إله واحد (ربانية القرآن الكريم).

الثاني: إثبات صدق نبوة سيدنا محمد ﷺ الذي نزل عليه الوحي؛ فهو من كان ينقل الرسالة.

الثالث: إعادة الثقة بقدرات المسلمين، إذا تمسكوا بالعلم والهدى الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ، والذي انتشل البشرية بالعلم والحضارة والتمدُّن على مدى التاريخ.

وقد ظهر مفهوم إعجاز القرآن منذ اليوم الأول لقيام النبي محمد ﷺ بتبليغه للعرب؛ حيث كان يبلغ من العمر آنذاك ٤٠ عامًا.

إن أهم ما يميز هذا الإنسان العظيم محمدًا صلى الله عليه وسلم، أنه رسولٌ من عند ربِّ العالمين، كما قال الله عز وجل في سورة آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...﴾ (١٤٤)، وقد جاء كغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام ليُعَلِّمَ الناسَ بما يريد ربُّهم، ويصحِّح ما قد حُرِّفَ من الديانات السماوية السابقة من معتقدات أو أحكام، ويشرِّهم بالسعادة في الحياة وبالجنة في الآخرة إن هم أطاعوا ربهم.. وينذرهم بالشقاء في الدنيا، وبالنار يوم القيامة إن هم سبَّحانه، وهذه وظيفة الرسل التي ذكرها ربُّنا في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٦٥)، ولكن من السهل أن يدَّعي إنسانٌ له ميزةٌ معينة أنه رسول من عند ربِّ العالمين؛ لذلك شاء الله عز وجل أن يؤيِّد كلَّ رسولٍ بمعجزات تُثبِت صدقَ كلامه، وأنه فعلاً مرسل من الله عز وجل، ويكون من أهم صفات هذه المعجزات أن الناس في وقته لا يستطيعون الإتيان بها، كما أنهم يعترفون جميعاً بعظمتها، إلا من بعض الناس الذين يجحدون ويكفرون لأسباب لا علاقة لها بالرسالة، بل بالنفوذ والمنفعة، وكانت معجزة كلِّ نبيٍّ من جنس ما اشتهر به قومه، وكان لا بُدَّ من معجزة تُلائم طبيعتها رسالة الله الخاتمة إلى العالمين، فتعدَّد وجوه إعجازها، لتُقيم الحُجة على الخلق كافةً، وتظلَّ شاهدة على صدق الرسالة الخاتمة وربانيتها.

ولذا لم تكن معجزة سيدنا محمد ﷺ معجزةً مؤقتةً كمعجزات الأنبياء والرسل عليهم السلام من قبله؛ لأن المعجزة المؤقتة لا تؤدِّي هذا الدور، ولا تصلح لهذه المهمة، وإنما كانت هذه المعجزة الخالدة هي القرآن الكريم، الذي تحدَّى به سيدنا محمد ﷺ العربَ جميعاً، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان، ولم تنته هذه المعجزة بوفاة رسول الله ﷺ، بل استمرت حتى زماننا

هذا، وستظل مستمرة - كما وَعَدَ الله عز وجل - إلى يوم القيامة، حيث قال تعالى في سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١) . والذكر هنا هو القرآن الكريم.

وقد بين القرآن ما أصاب العرب عند سماعهم آياته لأول مرة، فبعضهم وصف النبي محمدًا ﷺ بأنه شاعر، فأنزل الله تعالى في سورة يس: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (٢١) ، بعضهم قال: إن النبي محمدًا ﷺ قد نقل هذا الكلام ممن سبقوه من الأنبياء أو الأخبار والقساوسة في الديانات السماوية السابقة لبعثته، أو من السحرة والكهنة، كما قال الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٥) .

بينما اتَّهم بعضهم النبي محمدًا ﷺ بأنه ساحر، يقول الله تعالى في سورة يونس: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢) .

ونحن في المقالات والبحوث التي ذكرت في هذا الكتاب نستشهد بالقرآن على أنه دليل عقلي على نبوة سيدنا محمد ﷺ، وبرهان على صدقه، لقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (١٧٤) .

وقد قالت د. صوفيا فاسالو^(١): «إن الأخبار التي وصلت إلينا عن طريقة تلقّي العرب للقرآن وإصابتهم بالحيرة، أمرٌ بالغ الأهمية في النقاشات، وإن العرب لما سمعوا القرآن احتاروا في محاولة تصنيف كلماته وتساءلوا: هل هذا شعر؟ هل هذا سحر؟ هل هو أساطير؟ ولم يتمكن العرب من العثور على

١. د. صوفيا فاسالو، أكاديمية ومترجمة، نالت الدكتوراة من جامعة كامبريدج، تعمل حاليًا أستاذة في اللاهوت الفلسفي في قسم الدراسات الدينية في جامعة بيرمينغهام، لها أبحاث في الفكر الأخلاقي الإسلامي، وقد حاضرت في جامعات بيروت - لبنان والإمارات العربية المتحدة.

أي شكل أدبي يتوافق مع القرآن، فالكثير من العلماء والشعراء والمفكرين والأدباء المسلمين وبعض العلماء المستشرقين الموضوعيين المتمكنين من اللغة العربية، يشددون على فصاحة القرآن وبيانه مما جعل لفظة (الإعجاز) تزداد ارتباطاً به بما له من أسلوب بياني رفيع، غير أن بعضهم قالوا بأن فكرة الإعجاز يجب ألا تُفهم هذا الفهم الضيق، وأن الله بهذه البلاغة صرف العرب عن مُعارضته بأن سلب علومهم به، ولم يقبل هذا الفكرة إلا قلائل فقط!».

واستمرت الكتابات عن الإعجاز منذ القرن الثالث الهجري، لكن وجوه الإعجاز ظل مدار نقاش بين المفكرين المسلمين وغير المسلمين حتى يومنا هذا، وقد كتب الكثير منهم في الإعجاز، منهم:

«أبو الحسن الرماني^(١) في كتابه (النكت في إعجاز القرآن الكريم)، وهو من أوائل المؤلفات التي وردت لفظة الإعجاز في عناوينها.

أما «أبو سليمان الخطابي^(٢) فرفض أن تكون أخبار المستقبل الموجودة في القرآن الكريم من وجوه الإعجاز، وعدّ التأثير النفسي الذي للقرآن في النفوس مظهرًا من مظاهر الإعجاز.

أما «أبو بكر الباقلاني^(٣) فقد وافقه في رأيه في كتاب (إعجاز القرآن) على تفرد بلاغة القرآن وتميُّز أسلوبه.

١. أبو الحسن علي بن الرماني، هو مُفسِّر وفيلسوف معتزلي، ومن كبار النحاة، كان مُتبحِّرًا في علوم الفقه واللغة والكلام والفلك، ألّف ما يقارب مائة كتاب، له الجامع في القرآن، وقيل في أسلوبه كان يمزج النحو بالمنطق. كان من تلاميذه أبو حيان التوحيد (ت: ٣٨٤هـ).

٢. أبو سليمان الخطاطب الخطابي الشافعي، المشهور باسم الخطابي، محدث وفقه وعالم مسلم من كبار أئمة الشافعية، ولد في مدينة بست، وارتحل وطلب العلم والحديث، فذهب إلى بغداد والبصرة ومكة وخراسان وبلاد ما وراء النهر، ولقد صنف التصانيف وألّف كتابًا في شرح الأسماء الحسنى (ت: ٣٨٨هـ).

٣. القاضي أبو بكر الباقلاني، هو: محمد بن القاسم القاضي أبو بكر الباقلاني البصري، الملقب بشيخ السنة، ولسان الأمة، المتكلم على مذهب أهل السنة والجماعة، وأهل الحديث وطريقة أبي الحسن الأشعري، وأشهر المناظرين والمدافعين عن الإسلام، وأحد كبار علماء عصره (ت: ٤٠٣هـ).

أما «القاضي عبد الجبار»^(١) فيؤكد في كتابه (المُعْني في أبواب التوحيد والعدل) أن أسلوب القرآن المتميز هو وجه من وجوه إعجازه، وأن هذه الفصاحة ناتجة من امتياز اللفظ والمعنى.

أما «عبد القاهر الجرجاني»^(٢) فله العديد من الآراء في الإعجاز، وضعها في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة)، منها أن الألفاظ المفردة بحد ذاتها لا ميزة للواحدة منها على الأخرى، وأن المعاني بحد ذاتها لا وجود لها بدون الألفاظ؛ ولذلك لا ينبغي الحكم على درجة بلاغتها مفردة، بل مجتمعة في نظم.

أما في كتب التفسير فلم يأت من المفسرين من استعمل علوم البلاغة النامية في فهم نصّه وإلقاء الضوء على إعجازه وجمال أسلوبه خير من «الزمخشري»^(٣) في كتابه (الكشاف)، وجاء بعد الزمخشري مؤلفون كثيرون، لكنهم لم يزدوا شيئاً يذكر على مفهوم الإعجاز.

وفي القرن العشرين أعاد الإمام محمد عبده^(٤) الدراسات إلى البساطة المعقولة، وبحث الإعجاز بشكل مختصر في كتابه (رسالة التوحيد)، فابتعد عن التحليل المفصل لمسائل النحو والبلاغة في القرآن.

١. القاضي أبو الحسن عبد الجبار المولود في أسد آباد أفغانستان، والراجح أنه عربي النسب من همدان. يلقبه المعتزلة بـ (قاضي القضاة) (ت: ٤١٥هـ).

٢. أبو بكر عبد القاهر الجرجاني نحوي ومتكلم، وُلِدَ في جرجان لأسرة فقيرة الحال، نشأ مهتمّاً بالعلم، مُحِبّاً للثقافة، فأقبل على الكتب يقرأها، وخاصة كتب النحو والأدب، ويُعد مؤسس علم البلاغة (ت: ٤٧١هـ).

٣. جار الله، أبو القاسم بن عمر الخوارزمي الزمخشري، من تركمانستان، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب (ت: ٥٣٨هـ).

٤. الإمام محمد عبده من رواد التجديد الفكري والديني في العالم الإسلامي، وهو الإمام «محمد عبده» الذي تلقى دراسته بالأزهر، وقد نجح بفكره المستنير أن يجمع بين ثوابت الدين والعقلانية التي تفتح باب الاجتهاد بها لا يتعارض مع ثوابت العقيدة، ومن أنصار التدرج في الإصلاح (ت: ١٩٠٥م).

وخصص «مصطفى صادق الرافعي»^(١) كتابًا للإعجاز أسماءه: (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)، وفيه تحدث عن العجز البشري عن محاولة المعجزة، واستمرار هذا العجز على مرّ العصور.

إلى ما هنالك من الكتابات الكثيرة من العلماء والأدباء حول موضوع الإعجاز في القرآن الكريم.

والملاحظ أن هؤلاء العلماء لم يتعرضوا للإعجاز العلمي إلا نادرًا، مع تحفظ؛ لأن الاكتشافات العلمية المعروفة الآن لم تكن معروفة في عهدهم، إنما مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي إلى الآن، وهو زمن ظهور الاكتشافات العلمية المطابقة للآيات القرآنية، حيث أضاف العلماء المعاصرون وجهًا جديدًا لوجوه الإعجاز القرآني، وهو وجه (الإعجاز العلمي)، أو ما يسمى (بمطابقة الآيات القرآنية للاكتشافات العلمية الحديثة)، مثل ما ذكر «الشيخ محمد رشيد رضا»^(٢) في كتابه (الوحي المحمدي)، وهو يتحدث عن مقاصد القرآن العشرة، ومنها الإعجاز العلمي، حيث ذكر: أنه من هذه الآيات الكونية (في القرآن الكريم) ما لا يمكن التعمق في علومها والوقوف على حقائقها إلا بالاستعانة بعلوم العصر، وبالآلات العلمية التي لم تكن معروفة عند المخاطبين الأوّلين بالوحي.

ولذلك نرى أن آيات التحدي في مجال الإعجاز البياني والنظمي والتأليفي، ليست هي وحدها آيات التحدي في القرآن الكريم، وإنما هناك أبحاث عديدة في مجال الإعجاز الغيبي والإخباري والعلمي وغيره...

١. مصطفى صادق بن عبد القادر الرافعي العمري ولد في بيت جده لأمه في قرية بهتيم بمحافظة القليوبية، وهو أديب مشهور ينتمي إلى مدرسة المحافظين، وهي مدرسة شعرية تابعة للشعر الكلاسيكي، لقب بمعجزة الأدب العربي (ت: ١٩٣٧).

٢. محمد رشيد بن علي رضا، ولد في قرية «القلمون» في طرابلس / لبنان، وهو من علماء الأزهر المجتهدين، عالم عقيدة وتفسير، وهو صاحب مجلة المنار، وكان على صلة بالشيخ محمد عبده (ت: ١٩٣٥ م).

إن المفهوم المُراد بالإعجاز العلمي في القرآن هو مطابقة الآيات لتلك الاكتشافات العلمية الحديثة، التي يتوصل إليها الإنسان من حين لآخر في مُختلف المجالات، انطلاقاً من الذرة وانشطارها، إلى المجرة أو المجرات وأبعادها، جيولوجياً وكونياً، وانطلاقاً من الخلية وأنواعها وأجزائها ومكوناتها بيولوجياً وفيزيولوجياً، في تكوين الإنسان، والحيوان، والنبات، تلك الآيات الدالة على سنن الكون الطبيعية، التي تحكم هذا النظام البديع، الذي يسير عليه الخلق الذي اكتشفه العلم، بما فيها من حركات الكواكب والأفلاك حول مداراتها، وتطورُ المخلوقات في نموها، وتلقيح النباتات، ونشأة الكون، ونهايته، وإعادة نشأته من جديد عن طريق البعث، انطلاقاً من النشأة (الرَّقِيَّة) وحدة الكون الأولى، و (الْفَتْيَّة) الحالية، انفصال مكونات الكون، منذ بداية ظهور الحياة على وجه الأرض، بظهور البحار، والمحيطات، والجبال، والكائنات الحية الأخرى في نشأتها... إلخ.

وكلما توصل العلم إلى اكتشاف هذه الحقائق، وجدنا أن القرآن سبق أن أشار إلى أهمها منذ أربعة عشر قرناً، ونحن داخلون في القرن الخامس عشر، وهذا من أجل استحضار عظمة الله، والإيمان بوجوده، والقيام بالمزيد من البحوث والاكتشافات لتنمية الحضارة البشرية؛ لأنَّ تطابق الآيات القرآنية مع تلك الاكتشافات برهانٌ قاطع على أن هذا القرآن ليس من كلام بشر، وإنما هو وحي إلهي سماوي رباني، وأن محمداً ﷺ صادقٌ في نبوته، وأن الله موجود، وأن البعث حق.

ويرى بعضُ المفكرين المعاصرين أنه إذا كان القرن العشرون قرن التقدم العلمي، والاكتشافات العلمية، وكانت معظم هذه الاكتشافات مطابقة لآيات القرآن كإعجاز علمي لنصوصه، فإن هذا سيمهّد للقرن الواحد والعشرين ليجعل منه قرنٌ إثبات ما أشار إليه القرآن الكريم من العلوم.

وهذا ما تنبأ به الكاتب المصري المشهور «توفيق الحكيم»^(١) في بعض توقعاته، حين قال في مقدمة كتابه (مختار تفسير القرطبي) منذ سنة ١٩٧٦ م: «إن هذا القرن يكاد يُنَبِّئُ بقرن قادم، يصل فيه مستوى العلم الحديث إلى درجة من النفوذ، والكشف عن أسرار الكون، تجعل علماء أقرب الناس إلى باب الله والدين، وقد علمت أن هذا أيضًا كان رأي جُلِّ الباحثين والمؤرخين الغربيين، منهم «أرنولد توينبي»^(٢) الذي قال: إن القرن الحادي والعشرين سيكون قرن الدين».

ثم يستشهد الكاتب بالآية الكريمة في سورة فاطر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٣)، فيرى أن المراد بالعلماء هنا ليس فقط من نطلق عليهم علماء الدين، بل إن ما ورد في القرآن من الحث على التأمل والتفكير في الكون وسننه يوحى بأن الآية تُلمح أيضًا إلى المختصين من العلماء في مختلف المجالات العلمية المادية التجريبية البحتة.

وفي مجال مستقبل الإعجاز العلمي في القرآن، نلاحظ أن هناك مؤشرات خير، تؤشر فعلاً إلى أن القرن الواحد والعشرين سيكون - بإذن الله - (قرن الدين) كما قيل، وذلك نظرًا لهذه الصحوّة الإعجازية العلمية القرآنية التي بدأت تغزو العالم بأسره (بما في ذلك العالم العربي)، الذي أخذ علماء الكبار يندهشون كلما علموا أن اكتشافاتهم العلمية التي توصلوا إليها جاءت مطابقة للآيات القرآنية التي نزلت منذ (١٤٠٠) عام! بل إن الكثير منهم اعترفوا بأن القرآن من عند الله، وأن محمدًا رسول الله، وبعضهم أسلم،

١. توفيق الحكيم، ولد في الإسكندرية، وهو كاتب وأديب مصري، من رواد الرواية والكتابة المسرحية العربية ومن الأسماء البارزة في تاريخ الأدب العربي الحديث، تأثر بالأديب طه حسين، وله العديد من المؤلفات والكتب، وتوفي في القاهرة (١٩٨٧ م).

٢. أرنولد جوزف توينبي، مؤرخ بريطاني، ولد في ١٨٨٩ م في لندن، أهم أعماله موسوعة دراسة للتاريخ، وهو من أشهر المؤرخين في القرن العشرين، وتوفي في ١٩٧٥ م.

كما أن بعضهم عَكَفَ - بسبب هذا الإعجاز العلمي في القرآن - على دراسته، وكتابة مؤلفات هامة في مجال إعجازه العلمي.

ومن خلال المجهود الذي تقوم به (هيئات الإعجاز العلمي في القرآن والسنة) في مختلف الدول الإسلامية في لقاءاتها وندواتها ومحاضراتها وتنقلاتها واتصالاتها مع العلماء الكبار في العالم المختصين في علوم الكون ننقل مقتطفات من بعض فعاليات هذه المؤتمرات:

- فهذا البروفسور «تاجمون»^(١) العالم التيلاندي المختص في علم الأجنّة، ينطق بالشهادتين، معلناً إسلامه أمام الملاء، ويؤلف كتابه: (مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة) حين علم بما ورد في القرآن، بخصوص أطوار نشأة الجنين.

- وهذا البروفسور «كيث مور»^(٢) MOORE KEITH L، يضيف إلى كتابه (علم تطور الجنين) زيادات خاصة تتعلق بشرح أطوار الجنين كما ورد في القرآن الكريم.

أما البروفسور «ألفريد كرونير»^(٣) العالم الجيولوجي الألماني الشهير فقد اندهش لمّا علم أن القرآن تحدث منذ (١٤٠٠) عام عن (وحدة الكون الرتقية) و (وحدات الانفصالية الفتقية).

١. البروفسور «تاجمون» العالم التيلاندي المختص في علم الأجنة، مؤلف كتاب «مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة».

٢. الأستاذ كيث مور، أستاذ علم التشريح في جامعة تورنتو بكندا، كان قد مر خلال حياته العلمية عبر جامعات عديدة منها جامعة تورينابك في الغرب الكندي، حيث عمل هناك لمدة ١١ سنة، ورأس العديد من الجمعيات الدولية، مثل جمعية علماء التشريح والأجنة في كندا وأمريكا، ومجلس اتحاد العلوم الحيوية (ت: ٢٠١٩م).

٣. البروفيسور «ألفريد كرونير» أحد أكبر جيولوجيي العالم المشاهير، وهو أستاذ علم طبقات الأرض، ورئيس قسم علم طبقات الأرض في معهد جوسينسيس، جامعة يوهانز جوتنبيرج، مينز، ألمانيا. قال: من أين جاء محمد بهذا... أعتقد أنه من شبه المستحيل بأنه كان يمكن أن يعرف حول هذه الأشياء مثل الأصل المشترك للكون؛ لأن العلماء اكتشفوا ذلك فقط ضمن السنوات القليلة الماضية، بالطرق التقنية المعقّدة والمتقدّمة جدًّا، وقال: «إن النبي محمدًا ﷺ لم يصل إلى هذا العلم إلا بوحيٍ علوي».

- والبروفسور «مارشال جونسون»^(١) رئيس قسم التشريح بأكبر جامعات أمريكا، يستغرب ذكر أطوار الجنين، بخصوص النطفة المُخلَّقة وغير المُخلَّقة في القرآن الكريم.

- وكذلك، عالم البحار الفرنسي «جاك كوستو»^(٢)، حيث قال: لقد رأيت آيات الله الباهرة في هذه البحار التي درستها لسنوات طويلة من حياتي، ثم وجدت القرآن الكريم قد تحدّث عنها وذكرها قبل ١٤ قرناً.

وهناك علماء كثيرون آخرون أقرُّوا برَبَّانِيَّة القرآن الكريم، ولقد آن الأوان لحصول التصالح بين العلم والإيمان، بعد تلك القطيعة المزعومة من علماء الغرب، منذ القرن التاسع عشر، إلى أيامنا هذه ونحن في بدايات القرن الواحد والعشرين؛ فما زال الكثير من العلماء يعادي الدين، ويحارب الإيمان، قياساً على تصرف الكنيسة في ذلك الوقت، ضد بعض العلماء وضد التقدم العلمي، والاكتشافات العلمية، فأراد هؤلاء العلماء وأمثالهم الإبقاء على نفس هذه القطيعة، بين العلم والإسلام، قياساً على ذلك.

إن القرآن بإعجازه العلمي، وبمطابقة آياته للاكتشافات العلمية الحديثة، قد أثبت أن العلم يخدم الإيمان، وأن الدين يقود العلم، وأن التصالح قائم بينهما خدمةً للدين والحياة، لصالح الإنسان. وبهذا تصبح مهمة العلماء الآن

١. البروفيسور «مارشال جونسون» Marshall Johnson، الذي عمل رئيساً لقسم التشريح والبيولوجيا بجامعة توماس جفرسون في ولاية فيلادلفيا، يتحدث عن تفاصيل تكوّن الجنين في مراحل الأولى وخصوصاً مرحلة الغيض في الأرحام، وهي وصف قرآني دقيق لانتقال البويضة بعد تلقيحها إلى الرحم لتتحول إلى مرحلة العلقة.

٢. «جاك إيف كوستو» (بالفرنسية Jacques-Yves Cousteau): ولد في ١٩١٠م، كان ضابطاً بحرياً ومستكشفاً وعالم بيئة وصانع أفلام وثائقية ومصوراً ومؤلفاً وباحثاً فرنسياً. كرّس حياته لدراسة البحار والمحيطات وبما فيها من أشكال الحياة، وقد كان عضواً في أكاديمية اللغة الفرنسية، توفي عام ١٩٩٧م بالعاصمة الفرنسية باريس، وراجت العديد من الشائعات حول اعتناقه الإسلام (ت: ١٩٩٧م).

مهمة عظيمة أكثر من قبل، مادام أنهم قد أدركوا أن العلم لا يتناقض مع هذا الدين، بل هما معاً في خدمة الحياة البشرية والحياة الأخروية على السواء، وأن العلم حقُّ عبادِ الله بمعرفة الله سبحانه، مصداقاً لقوله جل وعلا في سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ﴿٢٨﴾.

آن الأوان لمستقبل الإعجاز العلمي - بكافة أشكاله - في القرآن، ليؤدي دوره كغيره من وجوه الإعجاز الأخرى، لكن شريطة أن يحقق الهدف المتوخى منه، وهو الاقتناع والإقناع والاعتراف بأن هذا القرآن وحيُّ إلهي، وأن الله حقُّ، وأن هذا الدين حقُّ، وأن الرسول حقُّ، وأن الساعة حقُّ، لا مجرد القول بتطابق النصوص للعلم دون إيمان.

تعدد أنواع الإعجاز القرآني وتنوع لتشمل العديد من المواضيع، وقد أجمع العلماء على الإعجاز البياني والبلاغي للقرآن الكريم، ولكن تفاوتوا في الاتفاق الكلي أو الجزئي على أنواع أخرى من الإعجاز، وأشهر أنواع الإعجاز القرآني - كما بينه العلماء - هو يلي:

[١-٨] الإعجاز البلاغي (البياني):

وهو قدرة القرآن الكريم على إيصال المعاني والرسائل المختلفة بوضوح وبلاغة يعجزُ البشر عن الإتيان بمثلها. ويُعدُّ هذه الإعجاز أهمُّ أنواع الإعجاز؛ لأنه يتعلق باستخدام كلمات وعبارات القرآن الكريم وتركيب الجمل، بحيث تكون واضحة ومفهومة ومختصرة، حيث تظهر الفصاحة والبلاغة والبيان بصورة يفهمها القارئ، ويظهر تأثيرها على السامعين.

وقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية؛ لأنها من أغزر اللغات من حيث المادة العلمية، فعلى سبيل المثال يحوي معجم «لسان العرب» لابن منظور من القرن الثالث عشر أكثر من ٨٠ ألف مادة، بينما في اللغة الإنجليزية فإن قاموس صموئيل جونسون - وهو من أوائل من وضع قاموساً إنجليزياً من

القرن الثامن عشر - يحتوي على ٤٢ ألف كلمة فقط، وقيل إن اللغة العربية تحتوي على أكثر من ١٢ مليون كلمة، بينما تتكون مفردات اللغة الإنجليزية من ٦٠٠ ألف كلمة فقط!

ويقول الفرنسي «إرنست رينان»، وهو مؤرخ ومترجم (ت: ١٨٩٢ م.): «وكانت اللغة العربية بدأت فجأة على غاية الكمال، وهذا أغرب ما وقع في تاريخ النشر، فليس لها طفولة ولا شيخوخة».

ويقول المستشرق الألماني «جورج فريتاخ»، وهو أستاذ للغات الشرقية في بون عند تأسيسها (ت: ١٨٦١ م.): «اللغة العربية أغنى لغات العالم».

ويقول «إدوارد ويليام لاين»، وهو مستشرق إنجليزي اشتهر بمعجمه الكبير للغة العربية، ومترجم كتاب ألف ليلة وليلة (ت: ١٨٧٦ م.): «إن للعربية ليناً ومرونة يمكنانها من التكيف وفقاً لمقتضيات العصر».

فمثلاً سورة (الفاتحة) المكونة من ٣١ كلمة استغرقت ترجمتها إلى الإنكليزية ٧٠ كلمة.

كان هذا الإعجاز أيضاً من التحدي الذي وُجّه إلى عرب الجاهلية الذين كانوا يمتازون بالفصاحة، وبرز العديد منهم من الذين أسلموا، كحسان بن ثابت - شاعر رسول الله ﷺ -، الذي عاش ٦٠ سنة في الجاهلية، وفي الإسلام ٦٠ سنة أخرى، وكعب ابن زهير، وأبوه زهير بن أبي سلمى (من فحول الشعراء في الجاهلية).

[٢-٨] الإعجاز التأثري:

وهو يُظهر الأثر الفعّال في كل ما استُعمل القرآن معه - بقراءة آياته واستيعابها والعمل بها أو حتى سماع ترتيلها - إما قبولاً، أو اعتناقاً للإسلام، أو إقراراً بإعجاز القرآن في حالات كثيرة، أما حالة الإعراض والنفور فقد

كانت قليلة، ومعظمها كانت من المعاندين أو ذوي الأهداف المصلحية، ولم يوافق العديد من العلماء على هذا النوع من الإعجاز؛ لأنه مشروط.

[٣-٨] الإعجاز الغيبي:

ويُقصد به إشارة القرآن الكريم لأمر غيبية لها علاقة:

«بالماضي»، وهو إخبار القرآن الكريم ببعض أخبار الأمم السابقة قبل ولادة سيدنا محمد ﷺ، التي لم تكن معروفة في بعض تفاصيلها في ذلك الوقت، وقد صنف بعض العلماء هذا النوع من الإعجاز على أنه من الإعجاز التاريخي، والله أعلم.

«بالحاضر»، أي يتحدث القرآن عن أمور غيبية حدثت أثناء حياة الرسول ﷺ، وأخبر عنها - ولم يكن يعلم عنها عند الإخبار بها -.

«بالمستقبل»، بحيث يستحيل على البشر التنبؤ بها، وقد حدثت بالفعل في أوقاتها لاحقاً بعد وفاة الرسول وعلى فترات، وكما ستحدث أمور أخرى - قياساً - في المستقبل البعيد كما ذكرت في القرآن الكريم.

[٤-٨] الإعجاز العددي (الحسابي):

في الحقيقة هناك تحفُّظٌ شديد من الكثير من علماء المسلمين على هذه النوع الذي يسمَّى بالإعجاز العددي؛ لأن البحث فيه من بعض الباحثين يتم عن طريق إيجاد توافقات عددية أو رقمية في سور القرآن الكريم وآياته قد تكون غير متَّفِقٍ عليها أو مقطوع بصحتها أو غير صحيحة، وبالتالي فعلى الأغلب لا يُعدُّ - على حسب أقوال أكثر العلماء - من أنواع الإعجاز.

[٥-٨] الإعجاز التشريعي:

هو شمول ودقة التشريعات والأحكام والمبادئ الإسلامية التي جاء بها القرآن الكريم وتتعلق بالفرد والأسرة والمجتمع والشعوب في كافة

المجالات، لتنظيم شؤون الحياة، وفي نفس الوقت تحقق العدل التام بين الجميع، بغض النظر عن الانتماءات الدينية أو العرقية، وتتميز عما دونها من التشريعات بطريقة شمولية عامة، يستحيل على البشر وأهل القانون الإتيان بمثلها.

[٦-٨] الإعجاز العلمي:

هو إخبار القرآن الكريم بصورة عامة مباشرة أو غير مباشرة بالحقائق والقوانين والظواهر العلمية المختلفة (Sciences) في الكون، كعلوم الأحياء والفضاء والبحار والأرض وغيرها، والتي لم يكن ممكناً إدراكها في زمن نزول القرآن، ولم يتم إثباتها إلا بالعلوم الحديثة؛ حيث ظهرت الوسائل والأدوات المختلفة على مر العصور.

إن القرآن يشير إلى إشارات ومعلومات علمية كثيرة، ونتيجة لذلك ظهر ما يُعرف بالأدب الإعجازي، وقد تم نشر العديد من الكتب والمواد التي توضح توافق القرآن مع مقتضيات العلم الحديث أو وجود إلماحات أو تصريحات ضمنه تؤكد حقائق علمية عُرفت واكتُشفت لاحقاً، ويُذكر أن هذه النوعية من الكتب والمنهجية تعرضت لانتقادات من مؤسسات ومنتديات علمية مختلفة، وقد رد عليها من العلماء المسلمين وغير المسلمين، حيث إنه قد ظهرت من بعض العلماء المسلمين المتحمسين العديد من الأخطاء في الإشارة وتفسير بعض الآيات القرآنية.

ومن أبرز ما ذُكر في هذا المجال على سبيل المثال، في سورة الأنعام: ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٦٧، تشير إلى أن ما ورد في القرآن من معلومات علمية من أربعة عشر قرناً سوف تتبين للناس وتكتشف مع مرور الزمن. وقد تم، وما زلنا في انتظار اكتشاف أو حدوث ما سيكتشف في المستقبل، والله أعلم، وقد ذكرنا في المجلد الثاني هذا النوع من الإعجاز، (أي الإعجاز أو الإشارات الإعجازية العلمية في القرآن) بموضوعية وحيادية،

بالإضافة إلى بعض التفصيلات عن تطابق الكثير من الآيات القرآنية والسنة النبوية الشريفة مع العلوم التطبيقية (الطبيعية)، وموقف مختلف العلماء (المسلمين وغير المسلمين) منها، والتي تشهد على ربانية القرآن الكريم، وعدم وجود أي أخطاء علمية فيه.



[٩] الإعجاز البلاغي (البياني) في القرآن الكريم:

مقدمة:

يؤمن المسلمون أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، أنزله من اللوح المحفوظ كاملاً مرتباً كترتيبه في المصحف الشريف - كما هو الآن -، وقد أنزله سبحانه دفعة واحدة إلى السماء الدنيا - كيف؟ وأين؟ ومتى؟ فهذا من علم الغيب -، ثم أنزله مُنَجَّمًا (مجزّءًا) من السماء الدنيا على قلب رسول الله ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام حسب المناسبات، وذلك طيلة ثلاث وعشرين سنة، ثلاث عشرة منها في (مكة المكرمة)، والعشر الأخر في (المدينة المنورة).

نزل القرآن باللغة العربية، وهي لا تزال من اللغات الحية التي يتحدث بها أكثر من ٤٥٠ مليون فرد عربي في العالم، إضافة إلى مليار من المسلمين من غير العرب الذين يقرؤون القرآن ويمارسون عبادتهم باللغة العربية.

هذا وإن «الإسلام» هو الدين السائد في العالم العربي، حيث ولد وترعرع وعاش النبي محمد ﷺ، ونزلت عليه الرسالة ونشرها فيه.

نزل القرآن، وردّده النبي ﷺ على كُتّاب القرآن، وبدأ تدوينه أثناء حياته، فهو أصيل، وغير قابل للتغيير وتشويه المعنى كما حدث للكتب السماوية الأخرى.

إن كلَّ كلامٍ بَشَرِيٍّ يبلَى إذا تَكَرَّرَ، وتسقط مكانته، ولكنَّ القرآنَ معروفٌ بِجِدَّتِهِ الدائمة، التي لا يُوثر فيها تردُّدٌ أو تكرار، فكم كرر المسلمون ويكررون سورة الفاتحة وقصار السور كل يوم؟! وكم أعادوا تلاوة القرآن؟! وجميعهم يقرّرون أنه ما زال جديداً على ألسنتهم، وهذه بحدّ ذاتها علامة إعجازية تخضع للتجربة من كل من يعرف اللغة العربية في أي زمان ومكان، ولو أخذنا ببعض الآراء الحيادية في هذا الموضوع مثل رأي «المستشرق ليون بيرشيه»^(١) حيث قال: «حَسْبُ القرآنِ جلالَةً ومَجْدًا أن الأربعة عشر قرناً التي مرت عليه لم تستطع أن تخفّف - ولو بعض الشيء - من أسلوبه الذي لا يزال غَضًّا كأن عهده بالوجود أمس».

إن أيَّ كلامٍ من أيِّ إنسان على وجه هذه الأرض يمكن دمجه بغيره من الكلام، فلا يستطيع أحد أن يميز كلامه الذي أدمج فيه؛ لأنه بالإمكان أن يقلد الناس كلام أي أديب أو شاعر، غير أن الوجه الإعجازي هنا إذا أخذنا سورة من القرآن وحاولنا إدماجها في أي كلام لا بد أن تتميز وحدها وتظهر على ذلك الكلام؛ ولهذا قال عنه «طه حسين»^(٢): «إن القرآن ليس نثراً، كما إنه ليس بشعر، إنما هو قرآن، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم، ليس شعراً وهذا واضح؛ فهو لم يقيّد بقيود الشعر، وليس نثراً لأنه مقيد بقيود خاصة به وحده لا توجد في غيره، وهي التي يتصل بعضها بأواخر الآيات، بنغمة صوتية خاصة». وقد أدرك ذلك المستشرق الفرنسي «د. موريس بوكاي»^(٣)

١. المستشرق المعروف ليون بيرشيه، وهو فرنسي الجنسية، كان مديراً للدراسات في معهد الدراسات العليا في تونس، وترجم الكثير من الكتب العربية إلى الفرنسية (ت: ١٩٥٥م).

٢. طه حسين علي بن سلامة، وشهرته «طه حسين»، أديب وناقد مصري، لُقّب بعميد الأدب العربي، يعتبر من أبرز الشخصيات في الحركة العربية الأدبية الحديثة. لا تزال أفكار ومواقف طه حسين تثير الجدل حتى اليوم. درس في الأزهر، ثم التحق بالجامعة الأهلية، وابتعث إلى باريس، وحصل على الدكتوراة عام ١٩١٨م، وعمل عميداً لكلية الأدب، ثم مديراً للجامعة الإسكندرية، ثم وزيراً للمعارف، وحائز على جائزة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، وله مؤلفات عديدة (ت: ١٩٩٨م).

٣. د. موريس بوكاي، كان طبيباً فرنسياً، ونشأ على المسيحية الكاثوليكية، وكان الطبيب الشخصي للملك فيصل ابن عبد العزيز رحمه الله، ومع عمله في المملكة العربية السعودية وبعد دراسة للكتب المقدسة عند اليهود والمسلمين ومقارنة قصة فرعون، ألّف كتاب التوراة والأنجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث، والذي ترجم لسبع عشرة لغة، منها العربية (ت: ١٩٩٨م).

فقال: «إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الإلهية لبني البشر، وإنه كتاب الله لا ريب فيه». «ويؤكد المفكر الفرنسي الراحل روجيه جارودي^(١) في كتابه «الإسلام دين المستقبل» أن الإسلام رسالة تصلح لكل الأوقات والعصور، وأن القرآن الكريم خالد وأبدي ويستطيع في كل وقت أن يفهمنا ويوضح لنا الطريق أو الصراط المستقيم».

وقد تم البحث والدراسة للقرآن الكريم في ضوء العلوم والدراسات اللغوية الحديثة بطريقة علمية ودقيقة من الكثير من العلماء والمختصين المسلمين والمستشرقين، وقد جاءت هذه الدراسات الحديثة لتؤكد بلا ريب على إعجاز القرآن الكريم في الناحية البيانية واللغوية.

وما زال علماء وأساتذة التفسير والبيان بالاشتراك مع العلماء المدنيين في شتى العلوم المختلفة يقومون بكشف أسرار القرآن وتوضيح معجزاته المختلفة، وهي لا تزال تتكشف أمامنا إلى اليوم، وهي على سبيل المثال لا الحصر:

[١-٩] الإعجاز في نظم القرآن الكريم:

[١-٩-١] تعريف النظم القرآني:

لا يمكن الحديث عن خصائص النص القرآني وجمال أسلوبه دون التطرُّق إلى فكرة النظم الذي يعني الجمع والضم والاتِّساق، فنقول: قال ابن منظور^(٢): «النَّظْمُ: التَّأْلِيفُ، نَظَمَهُ يَنْظُمُهُ نَظْمًا وَنِظَامًا وَنَظَمَهُ فَاَنْتَظَمَ وَتَنَظَّمَ».

١. روجيه جارودي: كان سياسياً فرنسياً، ولد في مرسيليا سنة ١٩١٣م. حصل على درجة الدكتوراة من السوربون، وعُيِّن أستاذاً للفلسفة في مدرسة الليسيه، وعُيِّن عضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي، وعضواً الجمعية الوطنية الفرنسية ومجلس الشيوخ الفرنسي، وقد اعتنق الإسلام سنة ١٩٨٢م في المركز الإسلامي في جنيف، وألف عدة كتب عن الإسلام، ونال جائزة الملك فيصل العالمية سنة ١٩٨٥م عن خدمة الإسلام ولدفاعه عن القضية الفلسطينية، وتوفي سنة ٢٠١٢م في فرنسا.

٢. ابن منظور: هو أديب ومؤرخ وعالم في الفقه الإسلامي واللغة العربية من تونس، ولد سنة (٦٣٠هـ - ١٤٣٢م)، ومن أشهر مؤلفاته: معجم لسان العرب، ولي القضاء في طرابلس ليبيا، وتوفي في القاهرة سنة ٧١١هـ.

وَنَظَّمْتُ اللَّوْلُوَ أَيَّ جَمْعَتُهُ فِي السِّلْكِ، وَالتَّنْظِيمُ مِثْلُهُ، وَمِنْهُ نَظَّمْتُ الشَّعْرَ وَنَظَّمْتَهُ، وَنَظَمَ الْأَمْرَ عَلَى الْمَثَلِ. وَكُلُّ شَيْءٍ قَرْنَتُهُ بِآخَرٍ أَوْ صَمَمَتْ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، فَقَدْ نَظَّمْتَهُ»، والجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) - الذي يُعَدُّ من كبار أئمة الأدب العربي في العصر العباسي - صاحب الكتاب المفقود: «نظم القرآن» الذي ذكره في كتابه: «الحيوان»، والذي فَرَّقَ فيه بين النظم القرآني ونظم الكلام، وتحدث عن اللفظة المفردة، واشترط فيها أن تكون خالية من تنافر الحروف، جارية على السنة العرب، ومهيكلة قواعدياً.

ولقد ارتبط مفهوم النظم بقضية الإعجاز عند المتقدمين، وكان معروفاً عند اللغويين والبلاغيين، مثل سيبويه^(١)، الذي أشار إلى النظم بكلمة: «التأليف»، والنظم عند الفيروز آبادي^(٢): هو التأليف أيضاً، وضم شيء إلى شيء آخر.

والنظم كان مفهوماً عاماً غير متميز عن الجوانب الأخرى للغة، والمتمثلة في «المجاز»، أي: الجانب الخيالي في اللغة، و«البديع» الذي يمثل الجانب الجمالي الشكلي في اللغة، وحيث كان التركيز في كل مرحلة يستهدف:

- البسط: عرض العناصر التي تدخل في بناء الجُمْل.

- الترتيب: النظم علاقة توجب ترتيب العناصر التي تتكون منها.

- الربط: وصل العناصر التي يتكون منها مجال المنظوم وصلاً يولد منها عناصر جديدة للإضافة والإتباع.

١. سيبويه: ولد في شيراز بلاد فارس أيام الدولة العباسية في سنة (١٤٨هـ - ٧٦٥م)، وهو إمام في اللغة العربية، وأول من بسط علم النحو فيها، وتوفي سنة (١٨٠هـ - ٧٥٦م).

٢. الفيروز آبادي: هو محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروز آبادي، ولد في كارزون في بلاد فارس سنة ١٣٢٩م، وهو لغوي وكاتب وشاعر وفقه ومفسر وقاضي، تتلمذ على يد المشايخ تقي الدين السبكي وابن قيم الجوزية وابن حجر العسقلاني وابن عقيل وغيرهم، وأشهر مؤلفاته: القاموس المحيط، والقاموس الوسيط، والكثير من الكتب والمؤلفات الأخرى، توفي سنة ١٤١٥م.

- التوسيع: النظم علاقة توجب تولد المنظومات بعضها من بعض، بحيث يكون بعضها أوسع من الآخر (التفريع) والتزايد والتضخم.

- التشكيل: تكون المنظومات المولدة بعضها أحفظ لبعض.

وهذا ما تملّيه الدراسات الحديثة من أن النظم هو تأليف عرف بربط العناصر وتوسيعها مع مراعاة خصوصيات اللغة ومنطقها النحوي.

[٢-١-٩] أمثلة في النظم الإعجازي للقرآن الكريم:

(مقتبس بتصرف من مقال الدكتور «راغب السرجاني»^(١)).

يختلف القرآن الكريم في نَظْمِهِ عن النثر والشعر، ولكنه في ذات الوقت يجمع من خصائصهما ما يحير السامع له، ولإعجاز النظم في القرآن الكريم عدّة مظاهر تتجلى فيها:

- الخصائص المتعلقة بالأسلوب:

إن الأسلوب القرآني يجري على «نسق بديع خارج عن المعروف» من نظام جميع كلام العرب، فالفنون التعبيرية عندهم لا تعدّو أن تكون شعراً أو نثراً، ولكن القرآن شيء آخر، فلننظر إلى قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿حَمْدُكَ أَنْزَلَ مِنَ الرِّحْمَنِ الرِّجِيمَ ۝ كَذَّبَ فَصَلَّتْ آيَاتُهُ، فَرَأَيْنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءِ آذَانِنَا وَقَدْ رَمَيْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونَ ۝﴾.

فهذه الآيات القرآنية بتأليفها العجيب، ونظمها البديع، حينما سمعها عتبة بن ربيعة -أحد زعماء الكفار في قريش، وكان من أساطين البيان - استولت على أحاسيسه ومشاعره، وطارت بلبّه، ووقف في ذهول وحيرة، ثم عبّر عن حيرته وذهوله بقوله: «والله، لقد سمعتُ من محمد قولاً ما سمعتُ مثله قطُّ! والله، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة... والله ليكوننَّ لقوله الذي سمعته نبأ عظيم».

كما أن الأسلوب القرآني يظلُّ جاريًا على «نسق واحد» من السموّ في جمال اللفظ، وعمق المعنى، ودقّة الصياغة، وروعة التعبير، رغم تنقله بين

١. د. راغب السرجاني، داعية إسلامي مصري، مهتم بالتاريخ الإسلامي، ومشرف موقع قصة الإسلام، أستاذ جراحة المسالك البولية بكلية طب جامعة القاهرة، وعضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، ورئيس مجلس إدارة مركز الحضارات للدراسات التاريخية بالقاهرة، وصدر له حتى الآن ٦١ كتاباً في التاريخ والفكر الإسلامي، وترجمت بعض كتبه إلى عدّة لغات، وحصل على عدّة جوائز في الطب والدعوة الإسلامية.

موضوعات مختلفة من التشريع والقصاص والمواعظ والحجج والوعود والوعيد، وتلك حقيقة شاقّة، بل لقد ظلّت مستحيلة على مدى الزمن لدى فطاحل علماء اللغة العربيّة والبيان.

ومن خصائص الأسلوب القرآني كذلك أن معانيه «مُصاغة بعناية» بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافتهم، وعلى تباعد أزمته وبلدانهم، ومع تطوّر علومهم واكتشافاتهم.

فلو أخذنا آية من كتاب الله (القرآن) ممّا يتعلّق بمعنى تتفاوت في مدى فهمه العقول، ثم اقرأها على مسامع خليط من الناس يتفاوتون في المدارك والثقافة، فستجد أن الآية تعطي كلّاً منهم معناها بقدر ما يفهم، وأنّ كلّاً منهم يستفيد منها معنى وراء الذي انتهى عنده علمه، مثل قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (٦١)، فهذه الآية تصف كلّاً من الشمس والقمر، فالعاميّ من العرب يفهم منها أن كلّاً من الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض، والمتأمّل من علماء اللغة العربيّة يُدرِك من وراء ذلك أن الآية تدلّ على أن الشمس تجمع إلى النور الحرارة؛ فلذلك سمّاها «سراجاً»، والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه؛ لذلك سمّي «منيراً»، أمّا العالمُ الفلكي الحديث فقد يفهم منها أن إضاءة الشمس ذاتية كالسراج، بينما نور القمر مجرد «انعكاس».. وكل هذه المعاني صحيحة، وهذا من الإعجاز.

ومن خصائص الأسلوب القرآني تميّزه بظاهرة «التكرار» الذي ينطوي على معاني بلاغية مختلفة، كالتحويل، والإنذار، والتجسيم والتصوير، ومن أمثله في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾، وقوله تعالى في سورة المدثر: ﴿سَاطِئِهِ سَقَرٌ ٣٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٣٧﴾، وهناك تكرار من نوع آخر، وهو تكرار بعض القصص القرآني، ولكنه تكرار يُؤدّي معاني خاصة، حيث تبدأ القصص المكرّرة بإشارة

مقتضبة، ثم تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً، ثم تعرض في حلقات كبيرة تُكوّن في مجموعها جسّم القصة، وخير شاهد على ذلك قصة سيدنا موسى عليه السلام التي وَرَدَتْ في حَوَالِي ثلاثين موضعاً في القرآن، ولكنها في كل موضع تُخْرَجُ إِخْرَاجاً جديداً يناسب السياق الذي وَرَدَتْ فيه، وتهدف إلى هدف خاص لم يُذَكَّر في مكان آخر، حتى لكاننا أمام قصّة جديدة لم نسمع بها من قبل، ففي سورة الأعلى - السورة الثامنة في النزول - وردت إشارة قصيرة عن سيدنا موسى عليه السلام، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩)﴾، ثم تُعرض القصة في سور مختلفة وبطرق مختلفة في سورة الأعراف والشعراء والنمل، ثم تأتي سورة القصص حيث تبدأ القصة من أول حلقة فيها من مولد سيدنا موسى عليه السلام، إِبَّانَ اضطهاد فرعون لقومه، ووضعه في التابوت، وإلقائه في البحر، والتقاط آل فرعون له، ثم تنتهي عند غرق فرعون بعد خروج سيدنا موسى عليه السلام، وهكذا في باقي المواضع الثلاثين، ممّا يؤكّد أن التكرار في القرآن ليس تكراراً مطلقاً، بل لمقصد وغاية تربوية وعقائدية.

- الخصائص المتعلقة بجمال المفردة القرآنية:

والتي من أهمّ مزاياها وخصائصها: جمال وَقَعِهَا في السَّمْع، واتّساقها الكامل مع المعنى، واتّساع دلالتها لما لا تتسع له -عادةً- دلالات الكلمات الأخرى من المعاني والمدلولات.

قد نجد في تعابير بعض الأدباء والبُلغَاء كلماتٍ تتّصف ببعض هذه المزايا والخصائص، أمّا أن تجتمع كلها معاً وبصورة مطّردة لا تتخلّف أو تشدّ، فذلك ممّا لم يتوافر إلّا في القرآن الكريم، وإليك هذا المثل القرآني الذي يوضح هذه الظاهرة ويُجَلِّيهَا، يقول تعالى في وصف كلّ من الليل والصبح في سورة التكوين: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ (١٨)﴾، ففي هاتين الكلمتين: (عَسَسَ)، و (نَفَسَ) تشعر أنهما تبعثان في خيالك

صورة المعنى محسوسًا مجسمًا دون حاجة للرجوع إلى قواميس اللغة؟! وهل في مقدورك أن تُصوّر إقبال الليل وتمدُّده في الآفاق المترامية بكلمة أدقَّ وأدَلَّ من (عَسَسَ) ومعناها أقبل وأدبر ظلامه؟! وهل تستطيع أن تُصوّر انفلات الضحى من مخبأ الليل وسجنه بكلمة أروع من (تَنَفَّسَ) معناها أضاء أو طلع.

- الخصائص المتعلقة بالجملة القرآنية وصياغتها:

ونجد ذلك واضحًا في التلاؤم والاتساق الكاملين بين كلماتها، وبين حركاتها وسكناتها، فالجملة في القرآن تجدها دائمًا مؤلَّفة من كلمات وحروف وأصوات يستريح لتألفها السمع والصوت والمنطق، ويتكون من تضامٍّ نسق جميل ينطوي على إيقاع رائع، ما كان ليتمَّ لو نقصت من الجملة كلمة أو حرف، أو اختلف ترتيب ما بينها بشكل من الأشكال، فاقراً قوله تعالى في سورة القمر: ﴿فَفَتْحًا أَنْوَبَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ۝۱۱ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝۱۲﴾، تأمل تناسق الكلمات في كل جملة، بل وتناسق الحروف قبل الكلمات، وعن هذا التناسق البديع بين الجمل والكلمات يقول الباقلاني^(١): «تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضًا في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويمتنع».

كما نجد الجملة القرآنية تدلُّ بأقصر عبارة على أوسع معنى تامٍّ متكامل، لا يكاد الإنسان يستطيع التعبير عنه إلا بأسطر وجمل كثيرة، دون أن تجد فيه اختصارًا مُخِلًّا، أو ضعفًا في الأدلة، إقرأ قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ... ۝۱۷۹﴾، فلا يمكن التعبير الدقيق عن أثر قيمة القصاص في حياة المجتمع إلا بكلمة حياة، فالحياة التي في القصاص تنبثق من كفِّ الجناة

١. الباقلاني: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر، قاضي، من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة. ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفي فيها. كان جيد الاستنباط، سريع الجواب. وجهه عضد الدولة سفيراً عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها. من كتبه (إعجاز القرآن)

عن الاعتداء ساعة الابتداء، فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمناً لحياة مَنْ يقتل جدير به أن يتروّى ويفكر ويتردد القيام بفعله، كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل، وفي القصاص حياةً أيضاً على معناها الأشمل الأعم، فالاعتداء على حياة فردٍ إعتداءً على الحياة كلها، وإعتداءً على كل إنسان حي، يشترك مع القتل في سمة الحياة، فإذا كَفَّ معرفة القصاصُ - الذي يوقن الجاني أنه سيناله لو أنه فعل فعلته - عن إزهاق حياة واحدة، فقد كَفَّه عن الاعتداء على الحياة كلها.

وكذلك إخراج الجملة القرآنية للمعنى المجرد في صورة حسية ملموسة، ببث الروح والحركة فيها، كما جاء في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ (١٧)، إنه يصور لك هذا المعنى في مظهر من الحركة المحسوسة الدائرة بين عينيك، حيث شبّه حال المنافق المضطرب بين الحقّ والباطل بالأعمى الذي لا يبصر.

هذه بعض مظاهر الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن، وقد اعترف نصارى العصر الحديث بعظمة القرآن، وسجّلوا في ذلك شهاداتهم التي تنطق بالحق، فهي هو ذا الدكتور ماردروس^(١) - بعد أن كلفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسية بترجمة اثنين وستين سورة من القرآن - يعترف بعظمة القرآن الكريم، وقال في مقدّمة ترجمته الصادرة سنة (١٩٢٦م): «أما أسلوب القرآن فهو أسلوب الخالق جلّ وعلا، فإن الأسلوب الذي ينطوي على كُنْهِ الخالق الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلّا إلهاً، والحقّ الواقع أن أكثر الكُتّاب شكّاً وارتياباً قد خضعوا لسلطانه وتأثيره»، ويقصد القرآن الكريم.

١. د. جوزيف شارل ماردروس، وهو طبيب وشاعر ومترجم فرنسي مستشرق، شغوف بالأدب والمخطوطات الشرقية، وترجم معاني القرآن الكريم إلى الفرنسية، كما ترجم كتاب «ألف ليلة وليلة» (ت: ١٩٤٩م).

[٢-٩] البيان في القرآن الكريم:

[١-٢-٩] تعريف البيان في اللغة:

وَيُقَصَّدُ بِالْبَيَانِ: إِظْهَارُ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيِّ لِلْأَلْفَاظِ وَالْعِبَارَاتِ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ إِظْهَارُ هَذَا الْمَعْنَى فِي عِبَارَاتٍ دَقِيقَةٍ وَاضِحَةٍ وَمَحْدَدَةٍ وَمُبَيَّنَةٍ، دُونَ التَّوَسُّعِ فِي الْكَلَامِ وَالْإِطْنَابِ وَالْمَبَالِغَةِ وَالْإِسْهَابِ فِي الْوَصْفِ؛ لِذَلِكَ يُعَدُّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِعْجَازًا بَيَانِيًّا أَيْضًا لَيْسَ لَهُ مِثِيلٌ.

ويتمثل الإعجاز البياني في القرآن في الدقة الشديدة في اختيار الألفاظ (الكلمات) التي تؤدي إلى المعنى دون غيرها، وفي الترتيب للصور القرآنية بنظم صور بديعة؛ حيث تظهر الفصاحة والبيان للوصول إلى المعنى بصورة يفهمها القارئ ويتدبرها.

فَعَرَبُ عَصْرِ الرِّسَالَةِ وَبُلْغَاؤُهُمْ وَحُذَّاقُهُمْ فِي الْخُطَابَةِ وَالشَّعْرِ، لِمَسَاوِ أَنْ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ - فِي ظِلِّ عَذُوبَةِ أَلْفَاظِهِ، وَسِحْرِ مَعَانِيهِ، وَجَمَالِ تَأْلِيفِهِ وَنَظْمِهِ، وَبِرَاعَةِ سَبْكِهِ - لَا يُشْبِهُ الشَّعْرَ وَلَا النَّثْرَ، وَأَنَّهُ كِتَابٌ جَاءَ فِي قَالِبٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ نَظِيرٌ؛ فَلَهُ جَاذِبِيَّةٌ خَاصَّةٌ، مَعَ أَنَّهُ مُؤَلَّفٌ مِنْ نَفْسِ الْحُرُوفِ الَّتِي هِيَ الْمَادَّةُ الْأُولَى لِكَلِمَاتِهِمْ وَكَلَامِهِمْ.

[٢-٢-٩] أمثلة على الإعجاز البياني في القرآن الكريم:

(مقتبس بتصرف من مقال الدكتور «فاضل السامرائي»^(١)).

وقد كان الدكتور السامرائي في بداية حياته يستمع كثيراً إلى أقوال من حوله ممن يقولون إن القرآن معجزة، ولا يمكن لأي شخص أن يماثله أو

١. د. فاضل السامرائي، هو أستاذ عراقي في النحو في جامعة الشارقة لمادة النحو والتعبير القرآني منذ عام ١٩٩٩، وهو أستاذ للنحو وخبير في المجمع العلمي العراقي، وعميد كلية الدراسات الإسلامية ببغداد، ويعُدُّ مرجعاً مهماً في اللغة العربية في عصرنا هذا، وله مؤلفات كثيرة وندوات تلفزيونية ومحاضرات شهيرة.

يجيء بما يشابهه، وكان يقول: «ما هو إلا مبالغة نابعة من الحماس الديني لهؤلاء الأشخاص، والتعصب الذي يحملونه لدينهم وكتابهم الكريم».

كان يرى أن الكثير من الأسباب التي يُبدونها غير علمية، بل هي متكلفة مثل ارتباط بعض الآيات ببعض، أو كون بداية السورة وخاتمتها مرتبطتين، وغيرها من التعليلات التي وجدها ضعيفة.

ثم قام الدكتور السامرائي بدراسة النص القرآني بنفسه، مُتَّبِعًا بذلك القواعد العلمية والدراسات الحديثة في اللغة، للوصول إلى مقاصد الحروف والكلمات والحركات الخاصة بكل كلمة وكل لفظ، وقد انتهى بحُثّه الطويل إلى أن القرآن الكريم إعجازٌ لغويٌّ و (بيانيٌّ)، لا يستطيع بشرٌ أن يجادل في هذا، فهذا الكتاب من صنع الخالق، ولا يستطيع مخلوق أن يأتي بمثله أبدًا.

لقد أجمع العلماء على كون القرآن الكريم معجزة لغوية وبيانية من الدرجة الأولى، ولا يسعنا أن نذكر كافة الأمثلة التي تعبر عن هذا الإعجاز، ولكن يمكن ذكر بعضها:

الدقة في التعبير القرآني:

يوجد العديد من الأمثلة على الدقة المتناهية للتعبيرات التي جاءت في القرآن، ومنها:

[١-١] ذُكر في سورة العنكبوت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٤١)، ففي الآية لا يصف الله بيت العنكبوت بأنه (أوهن الخيوط)، ولكن تم استعمال تعبير (أوهن البيوت)؛ وذلك لأن الحقيقة العلمية أن خيوط العنكبوت من أقوى الخيوط، فهو يوازي في قوّته الفولاذ.

[١-٢] ذكر في سورة مريم: ﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۚ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۚ﴾ (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۚ﴾ (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۚ﴾ (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۚ﴾ (١٥)، وقد جاءت كلمة (سلام) نكرة، بينما في نفس السورة في الآية: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۚ﴾ (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۚ﴾ (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۚ﴾ (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۚ﴾ (٣٣)، فجاءت الكلمة (السلام) مُعَرَّفة؛ والسبب في ذلك أن قصة سيدنا يحيى عليه السلام جاء فيها (سلام) نكرة، وقد جاءت مع ذكر نِعَمِ الله على سيدنا يحيى عليه السلام، فقد كان «مباركاً» يوم ميلاده ويوم وفاته ويوم يبعث من جديد، بينما في الآية الخاصة بسيدنا عيسى عليه السلام، جاء لفظ (السلام) ليدل على أنه «دعاء» من سيدنا عيسى عليه السلام إلى الله تعالى أن يمنحه السلام في يوم ميلاده ويوم وفاته واليوم الذي يبعث فيه؛ ولهذا جاءت مُعَرَّفة للدلالة على رغبته في الحصول على السلام الشامل والكثير، وكذلك لأن سيدنا عيسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، بينما سيدنا يحيى عليه السلام لم يكن كذلك؛ ولهذا فإن السلام الذي حصل عليه سيدنا عيسى عليه السلام أكثر خصوصية.

[١-٣] كلمة (إملاق) في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ تَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (١٥١)، وقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ تَحْنُ نَرِزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ (٣١)، وكلمة (إملاق) تعني (الفقر)، في الآية الأولى سبق كلمة إملاق حرف (من)، فالإعجاز في ذلك هو أمر الله تعالى ومخاطبته للآباء بعدم قتل الأولاد نتيجة فقرهم، فالله هو الرازق؛ ولذلك اتصل ضمير المخاطب (الكاف) بكلمة الرزق (نرزقكم) الموجهة للآباء، وفي الآية الثانية سبقتها كلمة خشية، فالنهي عن القتل جاء نتيجة خوفهم من الفقر الذي يتوقعونه عند ولادة الأطفال، فالمولود يأتي ورزقه معه من الله تعالى؛ لذلك اتصل ضمير الغائب (الهاء) بكلمة الرزق (نرزقهم).

التكرار ودلالته في التعبير القرآني:

[٢-١] في سورة الفاتحة جاءت الآيات: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ٢﴾، (الصراط) جاء أول مرة معرّفًا بـ (ال)، بينما في الآية الثانية: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ٧﴾، جاء معرّفًا بالإضافة، ومعنى هذا أن اللفظ الأول هو الثاني، بينما إذا جاء الاسم الأول نكرة والثاني نكرة من غير إضافة دل هذا على التعدد، فالاسم الأول غير الاسم الثاني، مثل:

[٢-٢] ما جاء في سورة سبأ: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غَدُوَهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ... ١٢﴾، ويقصد هنا أن الشهر الأول غير الشهر الثاني، فمجموع الأشهر في الآية اثنان، وفي سورة الشرح يتكرر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ٥﴾، كلمة (العسر) جاءت «معرفة»، مما يعنى أن العسر الأول هو الثاني، فالعُسْرُ أمر واحد، بينما كلمة (يسر) جاءت نكرة، وهذا يدل على أن اليسر الأول غير اليسر الثاني؛ لأن كليهما جاء نكرة.

الإعجاز في الألفاظ:

ومن الأمثلة الأخرى على دقة القرآن الكريم: ما جاء في سورة يوسف من لفظ (نبغي)، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ٦٥﴾، أما في سورة الكهف فجاءت (نبغ) في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْتُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْسَلْنَا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ٦٤ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ٦٥﴾، في سورة يوسف جاءت (ما) استفهامية؛ لتوضيح الغاية من طلبهم، فكان استعمال اللفظ دقيقًا، بينما في الآية الثانية في سورة الكهف جاءت (ما) اسمًا موصولًا، فالغاية لم تكن فقدان الحوت، فالفقدان

كان مجرد وسيلة لمقابلة الخضر، وبالتالي فإن نقصان الهدف ناسب نقصان كلمة (نبغي)، فجاءت (نبغ).

وتتعدد الأمثلة للإعجاز البياني للقرآن، ففي كل آية يوجد المزيد من المعاني والأسرار التي تتكشف أمامنا كلما قرأنا القرآن وتدبرناه. فالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا.

[٩-٣] البلاغة في القرآن الكريم:

[٩-٣-١] تعريف البلاغة في اللغة:

بُلُغٌ، يَبْلُغُ، فهو بَلِيغٌ، والبليغ عند العرب مَنْ فَصَحَ لِسَانَهُ، وَحَسَّنَ بَيَانَهُ، وَمِنْ هُنَا كَانَتْ الْبَلَاغَةُ تَعْنِي حَسْنَ الْبَيَانِ، وَقُوَّةَ التَّأْثِيرِ لِلْوَصُولِ إِلَى الشَّيْءِ، وَعِلْمُ الْبَلَاغَةِ هُوَ الْعِلْمُ الْمُخْتَصُّ بِالْمَعْنَى وَالْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ.

ومعناها اصطلاحًا: مطابقة الكلام لمقتضى الحال، مع فصاحته.

وقد عَرَّفَ أَهْلُ التَّحْقِيقِ الْبَلَاغَةَ بِقَوْلِهِمْ: هِيَ الْكَلَامُ الَّذِي بَلَغَ مَقْصُودَهُ دُونَ إِطَالَةٍ، وَقَالَ آخَرُونَ: الْبَلَاغَةُ هِيَ مَا قَرُبَ طَرَفَاهُ وَبُعْدَ مُتْنَاهَا، (كلمات قليلة حملت معاني كثيرة)، ويرى الإمام الجرجاني^(١) أَنَّ الْبَلَاغَةَ مُخْتَصَّةٌ بِاللَّفْظِ وَالْمَعْنَى، وَهِيَ بِهَذَا الْمَفْهُومِ تُشَكِّلُ نَسِيجًا مُتَكَامِلًا وَتَدَاخُلًا مُحَكَّمًا.

وهي - أيضًا - حُسْنُ اسْتِخْدَامِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْفَصِيحَةِ، لِإِيصَالِ الْمَعْنَى إِلَى السَّامِعِ بِأَفْضَلِ الْأَسَالِبِ وَأَدَقِّهَا وَأَحْسَنِهَا، بِمَا يَتَنَاسَبُ مَعَ الْمَوْقِفِ وَالسِّيَاقِ، حَيْثُ يَسْمَى الْكَلَامُ بَلِيغًا إِذَا أَصَابَ فِيهِ الْأَدِيبُ خَيْرَ أُسَالِبِ اللُّغَةِ وَأَلْفَاظِهَا.

١. عبد القادر الجرجاني: يعدُّ مؤسس علم البلاغة في العصر العباسي، وأشهر مؤلفاته كتاب «التعريفات»، توفي سنة ١٠٧٨ م.

[٢-٣-٩] أمثلة على الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم:

(مقتبس بتصريف من مقالة للدكتور «جلال عبد الرحمن أباراح»^(١))

وكان القرآن الكريم يَدْحَضُ تَهُمَ كَفَارِ قَرِيشٍ ويردُّ عليهم واحدة بواحدة، ويثبت أنه كلامُ ربِّ العالمين، وأخذ يتحداهم أن يأتوا بمثله، أو بعَشْرِ سُورٍ مثله، أو حتى بسورةٍ من مثله إن كانوا صادقين، فعجزوا وغلبوا، وظل القرآن الكريم - وسيظل إلى يوم الدين - مُعْجِزًا بِكُلِّهِ وَبِيعْضِهِ.

هذا وقد جاءت آيات التحدي في المصحف الشريف في سُورٍ معيَّنة، وهي كالتالي:

١ - أما آية التحدي بالقرآن كله، فهي قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(٢٨)، ولكن الله العليم الحكيم قال: (لا يأتون بمثله)، نعم.. نعم، صدق الله العظيم؛ فالإنس والجن لم ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا وناصرًا ومُعينًا في ذلك!!

٢ - وآية التحدي بعشر سور، وهي قوله تعالى في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١٣).

٣ - آية التحدي بسورة واحدة من مثله، وهي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢٣).

١. جلال عبد الرحمن أباراح: وهو أستاذ جامعي أردني، حاصل على دكتوراة في الشريعة الإسلامية - تخصص العقيدة - الأردن.

هي كلمات الله، أنزلها بعلمه في: ﴿كَتَبَ أَحْكَمَتْ أَيْنَهُ ثُمَّ فَصَلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ (سورة هود).

ومن أمثلة البلاغة في القرآن الكريم:

[١] لا ترادف في القرآن:

يميل أهل البلاغة القرآنية إلى أن الترادف مُعَدِّمٌ؛ وذلك لأن التراكيب القرآنية التي يظهر أنها مترادفة هي للمُتَأَمِّل في بلاغة النص ودلالاته تحمل فروقاً تُخرجها عن معنى الترادف، ويُقَصَّد بالترادف عند أهل اللغة: توالي كلمتين مختلفتين أو أكثر والاستدلال بها على شيء واحد، ومن الأمثلة على الفروق البلاغية فيما يُظَنُّ أنه ترادف في القرآن:

- «الخشية» و«الخوف»: الخشية والخوف لهما دالتان مختلفتان في التعبير القرآني الفريد، يقول الله تعالى في سورة الرعد: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾، حيث جاءت الخشية من الله، والخوف من سوء الحساب، والخشية تكون من عِظَمِ المَخْشِيِّ، وهو المولى سبحانه، والخوف يُعَبِّرُ به عن ضعف الخائف من المَخُوف، وهو سوء الحساب.

- «العباد» و«العبيد»: العباد في القرآن الكريم لفظٌ له كرامة الصلة بالله تعالى، بينما لفظ العبيد فهو يشمل البرِّ والفاجر، وقد جاء الاستدلال بهما في الآيات الكريمة وَفَقًا لهذا التفريق في المعنى ودلالة كُلِّ منهما، ففي لفظ عباد قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا...﴾ (٦٣)، وعند استخدام لفظ عبيد قال سبحانه في سورة فصلت: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٤٦).

- «الزوجة» و«المرأة»: جاءت في مواضع مختلفة في سور وآيات القرآن الكريم، مثل قوله تعالى في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا... ﴿٢١﴾ ، والآية من سورة يوسف: ﴿أَمْرَأْتُ الْعَزِيزِ
تُرَاوِدُ فَتْدَهَا عَنْ نَفْسِهِ... ﴿٣٠﴾ ، والآية من سورة التحريم: ﴿...أَمْرَأَتَ نُوحَ
وَأَمْرَأَتَ لُوطٍ... ﴿١٠﴾ 》.

تستعمل كلمة «الزوجة» لوجود علاقة المودة والرحمة والتكاثر كما في
كلمة أزواجًا، وكلمة «امرأة» إذا لم يتحقق الانسجام والتوافق بين الزوجين
لمانع من الموانع.

وهناك مثال آخر في سورة مريم: ﴿...وَكَانَتْ أَمْرَأَتِي عَاقِرًا...
﴿٨﴾ ، وفي سورة الأنبياء: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا
لَهُ، زَوْجَهُ... ﴿٩٠﴾ 》， دعا زكريا ربه بأن يرزقه الذرية، ولقد استخدمت في
الآية في سورة مريم كلمة «المرأة» بالرغم من أن زوجته صالحة؛ وذلك
لأن الزوجة ترتبط بالتكاثر، أي: إنجاب الأولاد، فلما كانت امرأته عاقراً
استخدمت كلمة المرأة بدلاً من كلمة الزوجة، وفي الآية الثانية من سورة
الأنبياء عندما أنجبت ذكرت كلمة الزوجة، وهذا فرق واضح ما بين كلمتي
المرأة والزوجة.

[٢] التصوير الفني في القرآن:

تعدّد التصوير الفني في القرآن الكريم بعدّة أنواع، وفيما يأتي بيان ذلك:

[١-٢] التصوير الحسي المتسلسل: يجد القارئ المتدبر للنص القرآني
في أواخر سورة مريم أن التعبير القرآني الفريد يُصوّر مشهداً من مشاهد
الغيب في الآخرة والحساب بشكل حسيّ متسلسل، كقوله تعالى في سورة
مريم: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ
لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ 》， (نحشرهم: نجمعهم في
المحشر بعد البعث، جثياً: راكعين على ركبهم، لنزعن: لنستخرجن، شيعه:
أتباع أو جماعة، عتيّاً: مجاوراً لحدّه).

[٢-٢] التخييل الحسي: ويُقصد به الحركة الحيّة التي يضيفها التصوير القرآني للمشهد، فيث فيه الحياة، ويحوّله في ذهن القارئ المُتدبّر إلى منظرٍ مليءٍ بالحركة والتفاعل، ومن أمثلة ذلك قول الله عزّ وجلّ في سورة الحج: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ بِهَيْجٍ ٥﴾، فجاء التعبير بـ «اهتزت وربت» مُوحياً بالمشهد الذي أعاد للأرض بهاءها وخضرتها.

[٣] الاستعارة:

الاستعارة من فنون اللغة العربية، يحصل بها التعبير عن الشيء بغير الكلمة الأصلية، وفي ما يلي أمثلة من القرآن الكريم عن الاستعارة:

[١-٣] المثال الأول: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ٢٥٧﴾، المعنى الأصلي: إخراجهم من الضلال إلى الإيمان، ولكن استُعيّر لفظُ الظلمات للضلال، ولفظ النور للإيمان، للمبالغة في وصف كليهما.

[٢-٣] المثال الثاني: قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَأَخْفَضَ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ ٢٤﴾، حيث استُعيّر لفظ الجناح - وهو خاص بالطائر - للابن، وكأن الآية تريد من الابن أن يكون في برّه وخضوعه لوالديه كالطائر الحنون الذي يرفرف بجناحيه عليهما.

[٤] التشبيه:

هو عقد مقارنة بين شيئين يشتركان في صفة واحدة يزيد أحدهما على الآخر في هذه الصفة، مثاله: الرجل كالأسد في قوته، فالرجل: مُشَبَّه، والأسد: مُشَبَّه به، والكاف أداة التشبيه، وقوته: وجه الشبه، وفي ما يلي بعض الأمثلة من القرآن في التشبيه البلاغي:

[٤-١] المثل الأول: قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ ۚ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۖ﴾، فالأنعام - كالأغنام والأبقار.. - معروفةٌ بضلالها في مراعيها، فلا تسمع لنداء راعيها وإرشاده لها، وفي الآية يُشَبَّه الله تعالى الكفار في ضلالهم بالأنعام.

[٤-١] المثل الثاني: قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۖ﴾، تُشَبَّه هذه الآية الذين حُمِّلُوا التوراة - بما تحتويه من الإرشادات - دون العمل بها، بالحمار الذي يحمل المتاع ولا يناله منه إلا التعب والنَّصَبُ، ولا يُقَدَّر قيمة ما يحمل، فحالهم كحال، يحملون الرسالة ثم يُعَذِّبون بها؛ لأنهم ما حملوها حقَّ حَمْلِهَا.

[٥] الإيجاز والإطناب:

يكون «الإيجاز» باختصار الكلام إلى ما يتحقق به المعنى، وعكسه «الإطناب»، وهو زيادة في الكلام لزيادة في توضيح المعنى أو جماليته، من أمثلة ذلك:

[٥-١] المثل الأول: الإيجاز والإطناب في قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ﴾، إن المكر لا يكون إلا سيئًا، فقوله تعالى: (السيء) فيه إطناب، وفي الآية إيجاز كذلك، لقوله تعالى (بأهله) دون تعيينهم؛ حيث ذكرهم في آيات سابقة من السورة.

[٥-٢] المثل الثاني: الإيجاز في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۖ﴾، حيث تضمنت الآية ذكْرَ مكارم الأخلاق بوضع كلمات أوفت بالمعنى دون نقصان.

[٥-٣] المثل الثالث: الإطناب في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۖ﴾، حيث ذكرت الآية التأكيد على صلاة العصر، مع أنها داخلة في عموم المحافظة على الصلوات الخمسة.

[٦] الكناية:

هي أن يأتي القائل بلفظ له معنيان، قريب غير مُراد، وبعيد هو المُراد، وقد استعمل القرآن الكناية في كثير من المواضع، في ما يلي ذِكْرُ بعض منها:

[٦-١] المثال الأول: استخدام لفظ (الحرث) كناية عن الجماع والتناسل بين الرجل والمرأة، وذلك في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ (٢٢٣).

[٦-٢] المثال الثاني: استخدام لفظ (اللباس) كناية عن العلاقة الزوجية بين الزوجين، في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (١٨٧).

[٦-٣] المثال الثالث: استخدام لفظ (الملاسة) كناية عن الجماع بين الزوجين، في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿أَوَلَمْ تَسْمِعُوا لِلنِّسَاءِ...﴾ (٤٣).

[٧] المحسنات البديعية:

هي وسائل لفظية جمالية، يُستعان بها لتحسين الكلام، وهي أنواع، منها: الطِّبَاق والجِنَاس والسَّجْع وغيرها، ونذكر بعض الأمثلة عليها في القرآن الكريم:

[٧-١] المثال الأول: «الطِّبَاق»: هو جمع بين المتقابلين -، كالوارد في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (٤٣)، فالضحك والبكاء ضِدَّان، والموت والحياة ضِدَّان كذلك.

[٧-٢] المثال الثاني: «الجِنَاس» وهو أن يتطابق أو يتقارب لفظان في النطق ويختلفا في المعنى المقصود، كالوارد في قوله تعالى في سورة الروم: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيَشَأُ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ (٥٥)، فالساعة الأولى (يوم القيامة)، بينما الساعة الثانية (الساعة الزمنية).

[٣-٧] المثال الثالث: «السجع»: وقد أقرّه بعض العلماء، وأنكره البعض الآخر، وهو اتفاق الحرف الأخير في الجُمْل، مثل ما جاء في سورة الفجر ﴿وَالْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَبْرِ ٥﴾.



[١٠] الإعجاز التأثيري (النفسي) للقرآن الكريم:

مقدمة:

الإعجاز التأثيري للقرآن: هو وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم أشار إليه السابقون، ويتمثل فيما يتركه القرآن الكريم من أثر ظاهر أو باطن على سامعه أو قارئه، ولا يستطيع هذا السامع أو القارئ مقاومته ودفعه، ولا يقتصر ذلك على المؤمنين به.

إن مسألة التأثير غير قاصرة على القرآن، ولا على المؤمنين به، وإنما قد تحدث من كل ما يسمعه الإنسان ويعقله، وقد يكون تأثيراً نسبياً أو مؤقتاً؛ لأن كل مؤثر له نتائجه في حياة الأفراد والمجتمعات.

وقال ابن القيم في مسألة تأثير القرآن الكريم، وكيفيته حدوثها، وبيان أركانها:

١. المؤثر القوي (والمقصود به - هنا - القرآن الكريم).

٢. أداتا التلقي (القلب والسمع).

٣. رغبة السامع في تفهم ما يسمع وتَعَقُّله.

٤. الخروج من شتى الموانع، سواء أكانت انحرافات عقائدية، أم شبهات فكرية، أم نزعات شهوانية، أم مكانة أدبية، أم منزلة اجتماعية، أم غير

ذلك، (أي: يجب أن يكون الإنسان موضوعيًا، وفي حيادية عن موضوع المؤثر).

وعندما نتحدث عن الإعجاز التأثري، فإنه ليس من ضروراته أو شروطه أن يكون التأثير حاصلًا في كل مَنْ يَتَعَرَّضُ لمؤثر معيَّن في أيِّ ظرف من الظروف، أو في أي بيئة كان، أو تحت ضغوطٍ معيَّنة، بل يتحقق شرط الإعجاز عندما يتأثر جميع مَنْ يتعرض للمؤثر وهم في حيادية تامة وتَجَرَّد من مؤثرات معيَّنة، (كالتعصب أو العناد أو المصلحة أو القبليَّة أو التحيز أو التعود).

وما الذي يميِّز التأثير بالقرآن الكريم عن كل تلك الأنواع من التأثير والمؤثرات؟! ولماذا لم يكتُب الكثيرون من العلماء الغربيين والمستشرقين - سلبًا أو إيجابًا - عن الإعجاز التأثري للقرآن الكريم؟ بينما كتب الكثير من العلماء المسلمين عن ذلك، وهل ينفرد القرآن الكريم بنوع خاص من التأثير على الإنسان لا يملكه أيُّ كتاب سماوي آخر أو مؤثر آخر؟ هذا ما سنحاول معرفته في هذا القسم من الكتاب.

[١-١٠] تعريف التأثر والتأثير:

(التأثر) و (التأثير) و (الأثر)، هي مصطلحات لغويَّة، يتم استخدامها للتعبير عن العديد من الأشياء في مجالات متنوعة، ومنها: الأدب، والعلوم، وعلم النفس، وعلم الاجتماع... فالإنسان بطبيعة الحال يتأثر ويؤثر في البيئة المحيطة به، مما ينعكس على حالته النفسية والاجتماعية إيجابيًا أو سلبًا.

والفرق بين التأثير والتأثر: أن التأثير هو القدرة على التحكم بشيء أو شخص ما، أو تغيير المشاعر، كما يعني القدرة على تغيير وتطوير الأشياء المتقلبة، مثل السلوك أو الأفكار أو القرارات.

والإنسان بطبيعته يتأثر بما حوله من محيط بيئي ونفسي واجتماعي، وبالتالي ينعكس التأثير على أفكاره وحالته النفسية.

وقد تكون هذه المؤثرات ألواناً، فقد أشارت الدراسات إلى أن اللون الأخضر عند النظر إليه يبعث على التفاؤل، ويعطي إيعازاً بالراحة والهدوء، ومن جهة أخرى أشار الباحثون إلى أن قضاء عدة دقائق في التمارين الرياضية في فضاء أخضر كالحداثق العامة يمكن أن يعزز الصحة العقلية.

إنَّ نظريةَ التأثير والتأثير - على النَّحو الذي اقترحه بعض العلماء الاجتماعيين والنفسيين - تعتمد أيضاً على أن مواقف الفرد ومعتقداته والإجراءات أو السلوكيات اللاحقة تتأثر بمراجع أخرى من خلال ثلاث عمليات: الامتثال، والهوية، والاستيعاب الداخلي.

فالتأثير في النفس، تمَّ تعريفه على أنه مجموعة كبيرة ومتنوعة من التغيرات في الحالات الفسيولوجية والمشاعر الذاتية، والدوافع والعواطف، والإدراك، والمعتقدات، والسلوك، التي تحدث في الأفراد أو حتى الحيوانات نتيجة التأثير بالأفراد الآخرين أو بالمؤثرات الأخرى، مما يدفعنا إلى التفكير أو التصرف بطريقة معينة.

- الفرق بين الأثر والعلاقة:

الأثر هو تغيير نتيجة سبب ما، فأثر الشيء يكون بعده، مثل فقدان الوزن، فهو يُعدُّ نتيجة ممارسة روتينية للرياضة. ولتحديد سبب شيء ما، اسأل: لماذا حدث ذلك؟ واسأل: ما الذي حدث بعدها؟ فمعرفة الأسباب التي يجب أن تكون موجودة حتى يحدث التأثير، هي العلاقة بين السبب والتأثر.

[١٠-٢] أنواع التأثير:

التأثير الفعليُّ على الآخرين ينقسم إلى ثلاث فئات - سواءً أكان الأمر في المنزل، أو في العمل، أو في المناسبات، أو في أي مكان -:

- التأثير المَوْضِعي: يتبعك الناس لأن عليهم القيام بذلك، والشخص (أو المادة المؤثرة) الذي يتمتع بالسلطة يمتلك هذا النوع من التأثير، ويُعدُّ هذا هو أكثر أنواع التأثير شيوعاً، استناداً إلى المهنة أو الموقع أو المنصب والسلطة، ومن هذا القبيل تأثير الوالد والوالدة والأخ والقائد، المعلم، الطبيب، السياسي وعالم الدين...

إنه تأثير ذو نفوذ يتم توريثه، أو هو موجود بحكم موضع ومكانة الإنسان من الآخرين، وليس مكتسباً شخصياً، فعندما يُجبر الناس على متابعتك في موقف معيّن، فإن أقصى ما ستحصل عليه منهم هو الالتزام، فإذا صرت خارج هذا النفوذ فليس لديك تأثير على هؤلاء الناس.

- التأثير المؤقت: يتبعك الناس بسبب ما قمتَ به من أشياء جيدة (أو محتويات المادة المؤثرة)، فتجذب الانتباه، وتتسبب في إثارة رغبة الآخرين للمشاركة - كالتأثر بالجمال مثلاً -، مهما كان ذلك هامشياً، ولكن لنكون مؤثرين حقاً نحتاج إلى مواصلة الأداء بمستوى عالٍ، وإلا فلن نستمر في التأثير بفاعلية.

- التأثير الدائم: يتبعك الناس ويتأثرون بما تفعله (أو بالمادة المؤثرة)، فتكون (الشخصية القدوة)، وتعتمد الشخصية القدوة على مدى صدقها ونزاهتها. إن التأثير الدائم هو ما يسعى إليه كل قائد أو معلم أو متحدث أو صديق، ومع هذا النوع من التأثير، لا يُجبر أي شخص على متابعتك.

وبنفس النمط يمكن أن يكون التأثير ناتجاً عن سماع سيرة أشخاص بعينهم، أو قراءة نصوص معينة (المادة المؤثرة)، أو مشاهدة مواقف خاصة قوية وصادقة.

ويمكن أن يتحول التأثير الموضعي والتأثير المؤقت إلى تأثير دائم، إذا كان الشخص المؤثر صادقاً وإيجابياً، ولديه مادة علمية أو أخلاقية، ونزاهة، ولديه القدرة على تحقيق العدل مع الآخرين.

[٣-١٠] التأثير والتأثر في الإسلام:

- تأثير الحضارات:

من خلال تتبع المسار التاريخي لحضارتنا الإسلامية و «التأثر والتأثير» غيرها من الحضارات، يتضح لنا أن سؤال: هل (التأثر والتأثير) كان حاضراً خلالها؟ فالحضارات - خاصة في جانب المدنية منها - تتفاعل وتتلاقح ويفيد بعضها من بعض، وهي في خلال مسارها بحاجة لما سبقتها وتتأثر بها، قبل أن تكون لها شخصيتها وذاتيتها، فلا حرج من النقل والاقتباس. غاية الأمر أننا يجب أن نفرّق بين المساحات التي يجوز فيها النقل (التأثر) والتي لا يجوز، وبين المساحات التي يكثر فيها الاقتباس والتي يقل فيها، بل وبين العلوم الطبيعية المحايدة وبين فلسفتها، التي تنبى على الرؤية الذاتية الثقافية وتتغير تبعاً لذلك.

اهتمّت الدولة الإسلامية - التي أنشأها رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ، واستمرت تحت مُسمّى الخلافة في الفترات الأموية والعباسية - بالعلوم والمدنية، كما اهتمت بالنواحي الدينية؛ فكانت الحضارة الإسلامية حضارةً تمزج بين العقل والروح، فامتازت عن كثير من الحضارات السابقة، فالإسلام يحض على طلب العلم، ويعده فريضةً على كل مسلم ومسلمة، فأى علم مقبول، باستثناء العلم الذي يخالف قواعد وأحكام الإسلام، والإسلام يكرم العلماء ويجعلهم ورثة الأنبياء.

وتتميز الحضارة الإسلامية «بالتوحيد» والتنوع العرقي في الفنون والعلوم والعمارة - طالما أنها لا تخرج عن نطاق القواعد الإسلامية العامة-؛ لأن الحرية الفكرية كانت مقبولةً تحت ظلال الإسلام، وكانت الفلسفة يُخضعها الفلاسفة المسلمون للقواعد الأصولية؛ مما أظهر علم الكلام، الذي يعدّ علماً في الإلهيات. فترجمت أعمالها في أوروبا وكان

له (تأثيره) في ظهور الفلسفة الحديثة وتحرير العلم من الكهنوت الكنسي فيما بعد؛ مما حقق لأوروبا ظهورَ عصرِ النهضة فيها.

لهذا لَمَّا دخل الإسلامُ هذه الشعوبَ (في العصور السابقة) لم يضعها في بيّاتٍ حضاري، ولكنه أخذ بها ووضعها على بداية المضمار الحضاري لتركّض فيه بلا جامع بها أو كابح لها، وكانت مشاغل هذه الحضارة الفتيّة تُبدّد ظلمات الجهل وتثير للبشرية طريقها من خلال التمدّن الإسلامي، فبينما كانت الحضارة الإسلامية تموج بديار الإسلام من الأندلس غرباً إلى تُخُوم الصين شرقاً في عهد الدولة الأموية، كانت أوروبا وبقية أنحاء المعمورة تعيش في جهل وظلام حضاري.

خلال هذه الفترة أصبح العالم الإسلامي المركز الثقافي والفكري المنفرد في العالم للعلم والفلسفة والطب والتعليم، حيث أرسخ الأمويون أسباب المعرفة، ونشروا الإسلام في مناطق شتّى من الشرق والغرب، وتم تأسيس الكثير من دُور العلم والمعرفة، وجذبوا العلماء، وأسس الأمويون المستشفيات والمكتبات ودُور العلم والعبادة والقصور، وفي العصر العباسي شُيّد بيت الحكمة في بغداد، وهو مكان سعى إليه كل من العلماء المسلمين وغير المسلمين لترجمة وجمع وخلق المعرفة من كل العالم إلى اللغة العربية.

وُترجمت العديد من الكتب إلى اللغة العربية، ومن اللغة العربية تمّت ترجمتها إلى اللغة التركية والفارسية والعبرية واللاتينية. خلال تلك الفترة كان للعالم الإسلامي قدرٌ من الثقافات التي تأثرت بالحضارات الصينية والفرسية والمصرية والشمال أفريقية والإغريقية والبيزنطية، ثم حُسّنت وطُوّرت وُجمعت وأُلّفت، وكانت للعائلات الحاكمة الإسلامية الأخرى في تلك الفترة مثل الفاطميين في مصر والأمويين في بلاد الشام والأندلس والعباسيين في العراق بعد ذلك مراكزٌ ثقافية وفكرية مزدهرة في دمشق وقرطبة والقاهرة وبغداد، حيث ساعدت الحرية الدينية في خلق حضارة ثقافية متقاطعة؛ لأن

الحضارة الإسلامية بإنجازاتها جذبت المسيحيين واليهود، وتأثروا بها ومع المسلمين، الأمر الذي ساعد في خلق أعظم فترة فلسفية إبداعية في العصور الوسطى، وذلك خلال الفترة ما بين القرن الثاني عشر والرابع عشر الميلادي.

ولأن الإسلام دعوة عالمية تتخطى حدود اللغة والجنس والزمان، فقد انتشر بسرعة، وأثر في الناس كثيرًا؛ لأنه كان يوجّه خطابه للناس كافة في شتى أنحاء العالم، ويبحث عن الحكمة أينما وجدت، في موقف وسطي يرفض الجمود كما يرفض الذوبان.

[٤-١٠] انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية (الدعوة والتأثير)

الواقع الذي يشهد به المُنصفون من مؤرخي الغرب ومُفكره وعقلائه أن الإسلام لم يعتمد إطلاقًا على السيف في نشر دعوته، أو في دخول البلاد التي فتحها وأشاع فيها قيم التسامح والرحمة والإخاء؛ فالإسلام - من خلال كل البراهين الدينية التي تنطق بها نصوصه - دين يعترف بالحرية الدينية، ويكفل حرية العقيدة، ويرفض الإكراه في الدين، والنصوص في ذلك كثيرة ومتنوعة.

وحقائق التاريخ تؤكد أن المسلمين لم يُكرهوا أحدًا على الدخول في الإسلام، وأنهم احترمو عقائد أهل البلاد التي فتحوها، وحافظوا على أماكن عبادتهم، ووفروا لها الحماية والصيانة، وفتحوا أبوابها أمام أصحابها ليمارسوا شعائهم وعبادتهم في حرية تامة، وكانوا يقرؤون عليهم آيات القرآن، ويذكرون لهم بعض أحكام الإسلام، فمن شاء قبل، ومن شاء لم يقبل.

أ- انتشار الإسلام بالسيف أكذوبةٌ تدحضها حقائق التاريخ

من الافتراءات والأكاذيب التي توارثها خصوم الإسلام في الغرب الزعمُ بأن الإسلام انتشر بِحَدِّ السيف، وأن الفتوحات الإسلامية كانت حملات عسكرية استعمارية على الشعوب والأمم التي دخلتها عقيدة الإسلام بالإكراه.

هذه التهمة - للأسف - تجد آذاناً مصغية في الغرب، ويروج لها الإعلام الصهيوني للصاق رذيلة العنف بالإسلام، وهو الهدف الأساسي الذي يسعى الإعلام الغربي إلى تحقيقه الآن لتبرير الحملات العسكرية التي تستهدف العالم الإسلامي، والمواقف الغربية المتشددة تجاه القوى المناهضة للاحتلال في عالمنا العربي والإسلامي.

إن الفتوحات الإسلامية لم تكن أبداً استعماراً ولا احتلالاً ولا نشرًا لعقيدة الإسلام بالإكراه بين الأمم والشعوب - كما يزعم بعض الغربيين الذين عميت أعينهم عن حقائق التاريخ -، فالمحققون المتدبرون للتاريخ الذي يقرؤونه قراءةً صحيحة غير سطحية ولا متعسفة، قد أكدوا في أبحاثهم وشهاداتهم التاريخية أن الجيوش الإسلامية انطلقت في اتجاهات متعددة لتحقيق أهداف إنسانية، في مقدمتها: أنها أرادت كسر شوكة السلطات الطاغية والمتجبرة التي كانت تحكم تلك البلاد، وتحوّل بين شعوبها وبين الاستماع إلى كلمة الإسلام، ودعوة القرآن التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأن هذه السلطات تريد أن يبقى الناس على دينها ومذهبها، ولا يفكر أحد في اعتناق دين آخر، ما لم يأذن له «كسرى» أو «قيصر»، أو «الملك» أو «الأمير»، فالناس في تلك الأزمان كانوا على دين ملوكهم، ولا يجروّ أحد على تغيير دينه، فأراد المسلمون أن يردوا الأمور إلى نصابها، وأن يعيدوا للشعوب اعتبارها واختيارها، لاسيما في هذه القضية الأساسية المصيرية التي هي أعظم قضايا الوجود على الإطلاق، قضية دين الإنسان الذي يحدد هويته ويحدد غايته ومصيره.

ومن هنا كانت الحرب - الموجهة إلى هؤلاء الملوك والأباطرة وليس الشعوب - لهدف واضح هو (إزالة الحواجز) أمام الدعوة الجديدة حتى تصل إلى الشعوب مباشرة وتتعامل معها بحرية واختيار، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، وليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، دون

خوف من جبار يقتلهم أو يصلبهم في جذوع النخل، كما كان يحدث مع الذين يحاولون تغيير عقائدهم في هذه البلاد قبل دخول الإسلام إليها .

ب- منهج الدعوة (في التأثير):

ومما يكشف أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف - كما يقول د . منيع عبدالحليم محمود الأستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر - : أن الإسلام يرفض كل صور الإكراه في الدعوة إليه، فقد حدد الإسلام منهجاً واضحاً يتحتم على المسلمين اتباعه في الدعوة إلى الإسلام في كل زمان وفي كل عصر، وقد حددت هذا المنهج الآية القرآنية الكريمة في سورة النحل: ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ (١٢٥) . ووردت في القرآن الكريم آيات تزيد على مئة وعشرين آية تفيد كلها أن نشر الإسلام أساسه الإقناع الهادئ، والتعليم المجرد، وترك الناس أحراراً بعد عرض الدعوة عليهم لقبولها أو يردوها. وهذا ما حدث بالفعل، وما أكدته لنا حقائق التاريخ؛ فلم يثبت أن المسلمين أجبروا يهودياً أو مسيحياً على اعتناق الإسلام، ومن هنا كان إعطاء الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه لأهل بيت المقدس من المسيحيين الأمان على حياتهم وكنائسهم وصلبانهم، لا يضار أحد منهم ولا يرغم بسبب دينه .

لقد رفض الكثيرون من علماء ومفكري الغرب الموضوعيين أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف، ومن هؤلاء: المستشرقة الألمانية ريغريد هونكه، حيث تقول في كتابها «الله مختلف تماماً»: «لقد أدى التسامح العربي دوراً حاسماً في انتشار الإسلام، وذلك على العكس تماماً من الزعم القائل بأنه قد انتشر بالنار والسيف، وقد أصبح هذا الزعم من الأغاليط الجامدة ضد الإسلام». وتقول في موضع آخر من الكتاب: «لقد كان أتباع الديانات الأخرى، أي: المسيحيين واليهود والصائبة والوثنيين، هم الذين ألحوا من تلقاء أنفسهم على اعتناق الإسلام».

ج- العمل الدعوي الإسلامي، نبذة تاريخية:

* بعد وفاة النبي محمد ﷺ عام ٦٣٢ م انتشر الإسلام بشكل كبير في غضون فترة قصيرة جدًا، والكثير من هذا حدث من خلال التوسع اللاحق للإمبراطورية الإسلامية، عن طريق الفتوحات الإسلامية، مثل تلك التي وقعت في شمال أفريقيا، وفي وقت لاحق إسبانيا (الأندلس)، والفتح الإسلامي لبلاد فارس، والذي وضع حدًا للإمبراطورية الساسانية، ونشّر الإسلام إلى أقصى شرق خراسان، والتي ستصبح فيما بعد مهد الحضارة الإسلامية خلال العصر الذهبي الإسلامي، ونقطة انطلاق نحو إدخال الإسلام إلى القبائل التركية التي تعيش في المنطقة المتاخمة لها من خلال عرض كلام الله تعالى عليهم.

* اعتنق البدو المسيحيون العرب الإسلام في أعقاب معركة القادسية التي هُزم فيها الساسانيون، وخلال حكم عمر بن عبد العزيز والمأمون دخل الإسلام العديد من أصحاب الديانات الأخرى.

* وفي القرن التاسع أرسل المسلمون دعائهم جميع أنحاء آسيا في جميع البلاد تحت مظاهر مختلفة (غالبًا كتجار).

وتحولت فولغا بلغاريا إلى الإسلام خلال العمل الدعوي لأحمد بن فضلان^(١)، وهو ما كان له تأثير كبير على التاريخ اللاحق للإمبراطورية المنغولية وروسيا؛ حيث إن قبائل القوجاق الذين احتلوا المنطقة لاحقًا اعتنقوا الإسلام، وفي نهاية المطاف أصبح شعب التتار مسلمًا.

* كان حفيد «جنكيز خان» «بركة خان» من أوائل الحكام المغول الذين اعتنقوا الإسلام. تم اعتناقه الإسلام من قبل سيف الدين درويش، وهو داعية

١. أحمد بن فضلان: عالم مسلم، ورحالة، (ت ٩٦٠ م)، كان من مبعوثي الخليفة العباسي المقتدر بالله، وكان له رسائل في تاريخ التواصل الحضاري بين المسلمين وغيرهم.

مسلم من خوارزم (منطقة بين أوزبكستان وكازاخستان وتركمانستان حاليًا). في وقت لاحق كان سلطان الممالك بيرس هو الذي لعب دورًا مهمًا في دخول العديد من المغول من القبيلة الذهبية الحاكمة إلى الإسلام، وبحلول عام ١٣٣٠ ميلادي أصبح ثلاثة من الخانات (الرؤساء) الأربعة الرئيسة للإمبراطورية المغولية مسلمين.

* مع غزو الأناضول على يد الأتراك السلاجقة وجد الدعاة المسلمون أن الطريق أصبح سهلًا إلى الأراضي التي كانت في السابق تابعة للإمبراطورية البيزنطية.

* خلال الوجود العثماني في البلقان تم اتخاذ الحركات الدعوية أيضًا من قبل أفراد من الأسر الأرستقراطية المنحدرة من المنطقة، والذين تلقوا تعليمهم في القسطنطينية (إسطنبول)، أو أي مدينة رئيسة أخرى داخل الإمبراطورية في المدارس الدينية الشهيرة. في معظم الأحيان أعيد هؤلاء الأفراد إلى مكانهم الأصلي، حيث تم تعيينهم في مناصب مهمة في مجلس الإدارة المحلي. غالبًا ما نتج عن هذا النهج بناء المساجد والمدارس الدينية للأجيال القادمة للاستفادة منها، وكذلك نشر تعاليم الإسلام. يقول «توماس ووكر أرنولد»^(١): «إن الإسلام لم ينتشر بالقوة في المناطق الخاضعة لسيطرة السلطان العثماني».

* على ساحل البحيرات الكبرى الإفريقية شقَّ الإسلامُ طريقه إلى الداخل، وانتشر على حساب الديانات الأفريقية التقليدية. هذا التوسع في الإسلام في إفريقيا لم يؤد فقط إلى تشكيل مجتمعات جديدة في إفريقيا، ولكنه أيضًا أعاد تكوين المجتمعات والإمبراطوريات الإفريقية الحالية؛ لتكون قائمة على النماذج الإسلامية.

١. توماس ووكر أرنولد: مؤرخ إنجليزي، وعالم عقيدة، وأستاذ جامعي، (ت ١٨٤٢م).

في منتصف القرن الحادي عشر تحولت إمبراطورية (كانم) التي امتد نفوذها إلى السودان إلى الإسلام، في الوقت نفسه لكن نحو غرب إفريقيا اعتنق حاكمُ إمبراطورية (بورنو) الإسلامَ.

بما أن هذه الممالك تبنت الإسلام فقد تبعها جمهورها بعد ذلك، وقد صرح المستكشف في القرن الرابع عشر ابن بطوطة: أن المساجد كانت مكتظة يوم الجمعة، لدرجة أنه ما لم يذهب أحد مبكرًا كان من المستحيل إيجاد مكان للجلوس.

* في القرن السادس عشر اعتنقت إمبراطورية (وداي) ومملكة (كانو) الإسلامَ، وفي وقت لاحق من القرن الثامن عشر، بذلت خلافةً (صكتو) في نيجيريا بقيادة (عثمان دان فوديو) جهودًا كبيرة في نشر الإسلام. مع الاستعمار الأوروبي لإفريقيا كان الدعاة المسلمين في منافسة مع المبشرين المسيحيين الأوروبيين العاملين في المستعمرات. الإسلام هو حاليًا ثاني أكبر ديانة في إفريقيا، ويتركز بشكل رئيس في شمال وشمال شرق إفريقيا، وكذلك منطقة الساحل.

* بعد استقلال باكستان في عام ١٩٤٧ كان هناك إحياء الدعوة في البلاد. حولت دعوة «دين محمد شيخ» [داعية مسلم، كان هندوسيًا فأسلم] أكثر من ١١٠,٠٠٠ هندوس إلى الإسلام في باكستان.

* يعتقد أن الإندونيسيين الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام قاموا بذلك منذ أوائل القرن الحادي عشر، على الرغم من أن المسلمين قد زاروا إندونيسيا في وقت مبكر من العصر الإسلامي. كان انتشار الإسلام مدفوعًا بزيادة الروابط التجارية خارج الأرخبيل بشكل عام، كان التجار وملوك الممالك الكبرى أول من تبني الديانة الجديدة (الإسلام). الممالك المهيمنة شملت ماتارام في جاوة الوسطى، وسلطنة تيرنيت وتيدور في جزر مالوكو في إندونيسيا.

* دخل الإسلام أيضًا إلى ماليزيا من قِبَل التجار المسلمين الهنود في القرن الثاني عشر الميلادي. من الشائع أن الإسلام وصل لأول مرة إلى شبه جزيرة الملايو منذ عهد السلطان مظفر شاه الأول (القرن الثاني عشر).

* مسلمو «الهوي» هم الأغلبية المسلمة في الصين، يتواجدون بشكل كبير في إقليم شينجيانغ؛ حيث يوجد عدد كبير من الأويغور. يوجد عدد أقل من السكان المهمين في مناطق نينغشيا وقانسو وتشينغهاي، حيث تشير بعض المصادر إلى أن ١-٣٪ من إجمالي السكان في الصين هم من المسلمين.

معظم الظن أن السكان المسلمين في الصين لم يكن إسلامهم نتيجة للنشاط الدعوي، ولكن بسبب الروابط التجارية التي أقيمت بين الخلافة الإسلامية ومختلف السلالات الصينية على مر القرون. وفقًا للروايات الأسطورية التقليدية للمسلمين الصينيين، تم تقديم الإسلام لأول مرة إلى الصين في الفترة من ٦١٦ - ١٨٠٠ من الميلاد من قِبَل صحابة النبي محمد ﷺ: سعد بن أبي وقاص، ووهب بن أبي كبشة، وصحابة آخرين.

وينقسم النشاط الدعوي الإسلامي داخل حدود أوروبا إلى أربع مراحل مختلفة:

العصور الوسطى في إسبانيا

تغطي المرحلة الأولى فترة الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية من ٧١١ إلى ١٠٣١ م. في أعقاب هذا الفتح روج الأمويون في قرطبة للإسلام في أقاليمهم التي تم فتحها حديثًا فيما يعرف اليوم بالدول الأوروبية الحديثة في إسبانيا والبرتغال، حيث تحولت أعداد كبيرة من السكان المحليين إلى الإسلام نتيجة لذلك.

خلال الحروب الصليبية

تغطي المرحلة الثانية فترة الحروب الصليبية من عام ١٠٩٥ إلى عام

١٢٩١م على طول الحدود الشرقية لأوروبا، حيث حدث نشاطٌ دعوى إسلامي ضئيل في أوروبا بسبب النزاع المستمر بين أوروبا المسيحية والخلافة الإسلامية المجاورة.

في أوروبا الشرقية

تغطي المرحلة الثالثة الفترة من عام ١٣٦٢ إلى عام ١٩٢٦م في أوروبا الشرقية بعد إنشاء الخلافة العثمانية. سمح غزو العثمانيين للمناطق المهمة في أوروبا الشرقية للدعاة المسلمين بالعمل في مناطق مسيحية صارمة داخل أوروبا. أصبحت بعض المناطق مسلمة بالكامل مثل الدول الأوروبية الحديثة في ألبانيا والبوسنة.

في أوروبا الغربية

مع وجود الخلافة العثمانية في صراع عسكري مستمر على ما يبدو مع أوروبا الغربية على حدودها المشتركة، كان النشاط الدعوي في أوروبا الغربية غير موجود فعلياً حتى التغيير الدراماتيكي للخريطة السياسية الأوروبية في القرن العشرين. هذا إلى جانب تراجع الإمبراطورية العثمانية في الإطار الزمني نفسه الذي مهد الطريق لهجرة جماعية لاحقة للشعوب المسلمة من العالم الإسلامي إلى أوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الأولى. مع وصول هؤلاء المهاجرين الجدد سرعان ما تبع ذلك النشاط الدعوي الإسلامي في أوروبا الغربية.

أمريكا الشمالية

زاد عدد السكان المسلمين في الولايات المتحدة بشكل كبير منذ عام ١٩٥٠م؛ حيث كان النمو بسبب اعتناق الإسلام إلى جانب الهجرة. يمكن أن يُعزى اعتناق معظم المتحولين في أمريكا الشمالية إلى الإسلام إلى العديد من الأنشطة الدعوية المتميزة والعمل الخيري والتكافلي.

تزامن وصول هؤلاء المهاجرين الجُدد مع فصول متزايد حول الإسلام بين الجمهور الأمريكي في أواخر سبعينيات القرن الماضي، في أعقاب الأحداث السياسية في العالم الإسلامي، والتي كانت حتى هذه النقطة غير مرئية إلى حدٍّ ما من وعي الرأي العام الأمريكي. ومع ذلك، فإن أزمة النفط في الشرق الأوسط عام ١٩٧٣ م والثورة الإيرانية في عام ١٩٧٩ م، والتي أعقبتها بداية الحرب السوفيتية - الأفغانية في عام ١٩٨٠ م، زادت بشكل كبير صورة الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام في أمريكا الشمالية. كانت الموجة الجديدة من المهاجرين المسلمين في وضع جيد لبدء مجموعة متنوعة من الجهود الدعوية الصغيرة في مجتمعاتهم لإبلاغ إخوانهم الأميركيين عن دينهم.

يمثّل مسجدُ الملك فهد في مدينة كولفر سيتي بكاليفورنيا، والمركز الثقافي الإسلامي في روما، اثنين من أكبر استثمارات المملكة العربية السعودية في المساجد الأجنبية.

مع تزايد عدد السكان المسلمين في أمريكا الشمالية، ظهر عدد من الدعاة المتخصصين مع التركيز بشكل أساسي على العمل الدعوي في أمريكا الشمالية.

أكثر الدعاة المسلمين شهرةً هم :

- أحمد ديدات: الداعية الجنوب أفريقي.

- جمال بدوي: أستاذ كندي مصري، وهو ناشط في الحوار الإسلامي المسيحي منذ أكثر من ٣٠ عامًا.

- شبير علي: متحدث دولي وداعية نشطٌ للغاية.

- ذاكر نايك: من الهند، وهو مؤسس منظمة دعوية شاسعة، مؤسسة البحث الإسلامي (IRF) .

- بلال فيليبس: الذي اعتنق الإسلام، من كندا، وهو أحد أقدم وأشهر الشخصيات العامة.

- يوسف إستس: قس بروتستانتي سابق، وقد أصبح الآن داعياً أمريكياً مسلماً نشطاً جداً.

وبفضل القوة التي تؤكدتها ثقافة المشاهير في أمريكا الشمالية هناك بعض الدعاة من الرياضيين العالميين منهم:

- محمد علي: كان محمد علي أحد أكبر المشاهير المسلمين في الوعي العام الأمريكي، وليس فقط كشخصية رياضية بارزة، انتقل إلى الإسلام السُّني، وأصبح داعياً مسلماً نشطاً.

- مالكولم إكس، الوجه العام لأمة الإسلام خلال جزء كبير من أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن الماضي، تم تحديده كواحد من أهم القادة الأميركيين من أصول إفريقية في القرن الماضي، سيرته الذاتية هي أحد أكثر عشرة كتب غير روائية تأثيراً في القرن العشرين.

- كريم عبد الجبار: الذي كان اسمه في الأصل فرديناند لويس أركندور، كان لاعب كرة سلة محترفاً، اعتنق الإسلام، ثم غير اسمه إلى كريم عبد الجبار، بقي في دائرة الضوء لأكثر من عقد من الزمان.

- يوسف إسلام: المعروف أصلاً باسم «كات ستيفنز»، وهو موسيقي إنجليزي، له العديد من الأغاني المشهورة، اعتنق الإسلام في عام ١٩٧٧م بعد سنوات من الصحوة الروحية.

د- الدعوة الإسلامية والتنصير:

هناك دعوات قديمة ومتجددة نحو التنصير في كافة أنحاء العالم، ولا يقف التنصير والمنصرون عند حدود العمل على تحويل اللا دينين أو الملحدين إلى الدين المسيحي، بل يركز أيضًا بشكل كبير على تحويل العديد من المسلمين عن عقيدتهم الإسلامية إلى النصرانية، بالرغم من تعقد عقائدها وغموضها، كعقيدة التثليث، وغياب مفهوم الأمة الواحدة، وغلبة المفاهيم العنصرية التي تسيطر على العالم الغربي والأوربي الغربي والشرقي الذي يفصل بين الدين والدولة، بل يتجاوز الأمر إلى كثير من الأبعاد والميادين؛ لأن:

١. التنصير في حقيقته إنما يعتمد على الإكراه أكثر مما يعتمد على حرية الاعتقاد.

٢. يستغل المنصرون الكوارث المادية والمعنوية لتقديم المساعدات «باسم يسوع».

٣. يستغل التنصير الغربي الاعتماد المتبادل مع الكنائس المحلية لزرع بذور التوتر الديني والفتن الطائفية لتجهد النهوض الحضاري للمجتمعات الإسلامية.

٤. يشجعون على نشر الفلسفات المادية والإلحادية باعتبارها عقبات في سبيل سيادة الإسلام في المجتمعات.

٥. يركزون على الفقراء والمعدمين في القارة الأفريقية وغيرها، وعلى المسلمين منهم خاصة.

لقد تركت هذه الجهات التنصيرية «بيت النصرانية» التنصير في أوروبا - وأمريكا على وجه الخصوص -؛ حيث إن هناك أغلبية من مواطني هذ الدول هم ماديون ولا دينيون، وإن من يذهبون إلى الكنائس لا يتجاوزون

١٥٪ من الأوروبيين والأمريكيين، وهذا ما تبينه عروض البيع للكنائس الأوروبية والإنكليزية خصوصًا؛ لعدم وجود مصليين!

وترصد المؤسسات التنصيرية العملاقة ذات الإمكانيات البشرية والمادية والتقنية الهائلة، مليارات من الدولارات لعمليات التنصير، وبالتالي فإن التنصير خرج عن أن يكون مجرد دعوة إلى النصرانية، ليصبح أداة من أدوات الغزو الفكري والتغريب والمسح الحضاري، وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد.

وبالرغم من نجاحهم في تنصير الكثير من الفقراء والمعوزين، فإنهم يفقدون الكثير أيضًا من الأغنياء والمثقفين، بينما تكسب الدعوة الإسلامية الكثير من المتعلمين والمثقفين الباحثين عن حقيقة الوجود، والسلام الداخلي، ولو أضفنا قلة عدد المواليد في أوروبا الغربية وأمريكا، والزيادة في عدد المهاجرين المسلمين لبلدانهم، وزيادة نسبة مواليدهم، وكذلك زيادة مواليد المسلمين بصورة عامة؛ فلذلك يعدّ الدين الإسلامي الأسرع انتشارًا في العالم.

أما بالنسبة للمؤسسات الدعوية الإسلامية - خارج الدول الإسلامية وداخلها -، وبالرغم من قلة مواردها المادية (المالية والبشرية والتنظيمية والسياسية)، فإنها نجحت نجاحًا نسبيًا في الدعوة إلى الدين الإسلامي، وذلك بتوفيق من الله تعالى أولاً، ومحتوى الدين الإسلامي القائم على الإسلام لله تعالى في جميع الأمور، وهو دين الفطرة، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وأنه دين شريعة تهتم بأمر الدينا والدين، وجاء لإسعاد البشر في الدنيا والآخرة، ويحقق مطالب الروح والجسد معًا، ويؤمن حقوق الفرد والجماعة، ولا واسطة بين العبد وربّه.

ولكن بالرغم من ذلك فإذا لم تنتبه الحكومات الإسلامية وتواجه هذا النشاط التبشيري بوعي وحزم في بلادهم فإن مجتمعاتهم الإسلامية ستكون في خطر دائم يجب الانتباه إليه بسرعة.

[٥-١٠] العمل التطوعي في الإسلام، وأثره على الأفراد والمجتمعات:

التطوع تَكَلَّفُ الطاعة. يقال: قام بالعبادة طائعًا مختارًا دون أن تكون فرضًا، وفي التنزيل الحكيم في سورة البقرة: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ (١٨٤).

اصطلاحًا: العمل التطوعي هو عمل يقوم به فرد أو مجموعات، سواء أكان ذلك العمل بدنيًا أو فكريًا أو اجتماعيًا أو ماديًا أو دينيًا، والباعث له هو احتساب الأجر والثواب من الكريم الوهاب، وهو عمل يؤثر في المجتمع، وخاصة إذا كان أساسه ضوابط الدين الإسلامي الحنيف.

- حثَّ القرآن الكريم والسنة النبوية على العمل التطوعي، وفي ذلك يقول الله عزَّ وجلَّ مرغبًا في ذلك في سورة البقرة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدْهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٠).

- ويعدد لنا الله تعالى صور العمل التطوعي، ويقرنها بالإيمان والتقوى، فيقول سبحانه في سورة البقرة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١٧٧).

- ويقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥). ومن صور العمل التطوعي: «الإيثار»، قال الله تعالى

في سورة الحشر: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۝١﴾. أي: يقدمون خدمة الآخرين ومصلحتهم العامة على المصلحة الشخصية الخاصة.

الواقع التطبيقي للعمل التطوعي في القرآن الكريم:

المثال الأول: موسى عليه السلام، وتطوعه لسقي الأنعام لابنتي شعيب عليه السلام من ماء مدين.

المثال الثاني: قصة الخضر وموسى عليهما السلام وبناء الجدار - كما في سورة الكهف -.

المثال الثالث: قصة ذي القرنين وبناء السد - كما في سورة الكهف -.

- أما في السنة: فقد وردت أحاديث كثيرة تدل على مشروعية العمل التطوعي منها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مُسلم يَغْرِسُ غَرْسًا، أو يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان له به صدقة». [أخرجه البخاري ومسلم والترمذي].

- قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له، قال: فجعل يَصْرِفُ بصره يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله ﷺ: من كان معه فضلٌ ظَهَرَ فليُعِدْ به على مَنْ لا ظَهَرَ له، ومن كان له فضلٌ من زاد فليُعِدْ به على مَنْ لا زاد له، وذكر من أصناف المال ما ذكره، حتى رأينا أنه لا حَقَّ لأحد منا في فضل» [أخرجه مسلم].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة، في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين» [رواه مسلم].

- عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «يَعْمَلُ بِيَدِهِ، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ، وَيَتَصَدَّقُ». قَالُوا: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، أَوْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ». قَالُوا: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، أَوْ بِالْخَيْرِ». قَالُوا: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ».

لقد ذخرت السنة النبوية بالمواقف التطوعية التي تشهد للأمة بمحبة الخير والمنافسة فيه، منها:

المثال الأول: مشاركة النبي ﷺ في بناء الكعبة.

المثال الثاني: شمولية العمل التطوعي في حياة الحبيب النبي ﷺ؛ حيث لم يترك النبي باباً من أبواب الخير إلا دخله وساهم فيه، يدل على ذلك حديث نزول الوحي وَرَدَّ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ، مَا يَخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِى الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ... الحديث [متفق عليه].

كان للمرأة المسلمة دور بارز في العمل التطوعي في حياة النبي ﷺ، فها هي امرأة تطوعت لتنظيف المسجد وصيانته، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن امرأة سوداء كانت تَقْمُ (تنظف) المسجد، ففقدتها رسول الله ﷺ، فسأل عنها بعد أيام، فقيل له: إنها ماتت، فقال: «فَهَلَّا آذَنْتُمُونِي؟ فَأَتَى قَبْرَهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا» [رواه ابن ماجه].

العمل التطوعي في عهد الخلافة الراشدة

المثال الأول: الخليفة الراشد أبو بكر الصديق، فقد كان يحلب لأهل حيه أنعامهم.

المثال الثاني: عمل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وزوجته أم كلثوم بنت علي رضي الله عنهم أجمعين في مساعدة امرأة في المخاض، وكان يتعاهد بعض الأرامل فيسقي لهم الماء في الليل.

المثال الثالث: أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه في توسعة المسجد النبوي الشريف.

المثال الرابع: أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يكنس بيت مال المسلمين.

ومن أشهر الذين عملوا في العمل التطوعي من المعاصرين في العالم العربي: «الدكتور عبدالرحمن السميّط» رحمه الله تعالى، هو وزوجته، وهو من دولة الكويت ومؤسس جمعية العون المباشر لمسلمي أفريقيا سابقاً، وهو طبيب باطني، وحائز على جائزة الملك فيصل العالمية في خدمة الإسلام، وقد أسلم على يديه حوالي ١١ مليون شخصاً من أفريقيا على مدى ٣٠ عاماً، وقد توفي رحمه الله تعالى سنة ٢٠١٣ م.

كما يوجد في مصر «جمعية رسالة»، وتأسست عام ١٩٩٩ م كحركة طلابية في كلية هندسة القاهرة، ولها العديد من الفروع على مستوى الجمهورية في أكثر من ٦٧ موطناً، وقد أسسها الدكتور شريف عبد العظيم، ويبلغ عدد المتطوعين - وبعضهم من طلبة الجامعات - حوالي ١٥٠,٠٠٠ متطوع، ولها الكثير من النشاطات الخيرية والاجتماعية والتنمية.

وهناك الكثير الكثير من المسلمين من كافة أنحاء العالم، الذين قاموا - وما زالوا يقومون - بالكثير من الأعمال التطوعية في بلدانهم وسائر البلاد الإسلامية.

وهناك منصات للأعمال التطوعية في كافة أنحاء العالم، وأشهرها منصات التطوع في المملكة العربية السعودية، ودولة الإمارات العربية،

والكويت، وقطر، لبنان، وباكستان، والهند، وكذلك من فرق الإغاثة لكل الدول العربية والإسلامية.

ثمرات العمل التطوعي:

مما سبق يتبين أن العمل التطوعي في الإسلام نوع من الصدقات والجهاد، وبالتالي فإن للعمل التطوعي من الثمرات ومن الفوائد التي تعود على الفرد وعلى المجتمع ثمرات لا تحصى ولا تعد في الدنيا والآخرة، نذكر منها:

- الفلاح في الدنيا والآخرة

قال تعالى في سورة الحج: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

- ينال الجنة بما فيها من نعيم مقيم:

قال الله تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّمَا نُنْطِئُكُمْ لُجَّةَ اللَّهِ لَا نُزِيدُكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾﴾.

- ينال المعونة من الله تعالى:

عن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسْلَمُهُ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربةً فرج الله عنه كربةً من كُرْبٍ يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» [رواه أحمد].

- وكلاء الله تعالى في خلقه:

روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عند أقوام نعمًا أقرها عندهم ما كانوا في حوائج المسلمين ما لم يملوهم، فإذا ملوهم نقلها إلى غيرهم» [رواه الطبراني].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد أنعم الله عليه نعمةً فأسبغها عليه ثم جعل من حوائج الناس إليه فتبرّم فقد عرّض تلك النعمة للزوال» [رواه الطبراني].

- أن ينال ثواب الصدقة:

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «على كل مسلم صدقة، قيل: أ رأيت إن لم يجد؟ قال: يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق، قال: أ رأيت إن لم يستطع؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف، قيل: أ رأيت إن لم يستطع؟ قال: يأمر بالمعروف أو الخير، قيل: أ رأيت إن لم يفعل؟ قال: يمسك عن الشر؛ فإنها صدقة» [رواه البخاري ومسلم].

روي عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: «أفضل الأعمال: إدخال السرور على المؤمن، كسوت عورته، أو أشبعت جوعته، أو قضيت له حاجة» [رواه الطبراني].

- ينال أجر المجاهد في سبيل الله:

قال ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار» [متفق عليه].

قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [رواه أحمد ومسلم].

ضوابط العمل التطوعي في الإسلام

للعمل التطوعي ضوابط في الإسلام، حتى لا يخرج عن الهدف المخصص له، ومنها:

- الإيمان بالله تعالى، والإخلاص في العمل التطوعي له.

- الأمانة، وتكون هنا في أسمى صورها؛ لعدم انتظار المتطوع الأجر أو المقابل.

- الإتقان في العمل.

- استشعار المسؤولية تجاه العمل التطوعي.

- الرغبة بالعمل، والتخطيط لتنفيذه.

عوائق العمل التطوعي على مستوى الفرد والمجتمع (في العصر الحديث)

- تقف أمام العمل التطوعي الكثير من العوائق، سواء من الفرد أو المجتمع، وفيما يلي بيان أبرزها:

- عدم انتشار الوعي بأهمية العمل التطوعي وفضله في الإسلام.

- عدم التقدير والاحترام تجاه الطاقات المبذولة في العمل التطوعي.

- عدم وجود لوائح وأنظمة وتعليمات تنظم العمل التطوعي.

[٢-٣-١٠] تأثير القرآن على الأفراد:

ويمتاز الدين الإسلامي - وأساسه القرآن الكريم - في التأثير على نفوس مُستمِعيه سواء كانوا من المؤمنين به أو من غير المؤمنين به، شَرَطَ أن يكون هذا المستمع على الفِطْرة، مُستَعِدًّا لقبول الحق (المادة المؤثرة)، فإن كان كذلك فإنَّ الله تعالى يشرح صدره ويضعه على طريق الهداية والاطمئنان، وقد ذكر الله تعالى ذلك في القرآن الكريم في سور عديدة، منها سورة الزمر، بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٖٓ قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَتْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ﴾، وبالتالي فإنَّ مَنْ قَسَا قَلْبُهُ عن ذكر الحق والحقيقة - أنَّ هناك خَالِقًا واحدًا للكون هو الله

تعالى، وبالتالي يجب طاعته فيما أَمَرَ - فلا ينشرح صدره لما يسمع من الحق، ويصبح أسيراً للأوهام أو الظلمات، وعندئذ سيكون في ضلال واضح عن الطريق المستقيم، لقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٥). قال ابن عباس: «أي: وَسَّعَ صدره للإسلام حتى يثبت فيه»، وقال السُّدِّيُّ^(١): «وَسَّعَ صدره بالإسلام للفرح به والطمأنينة إليه»، وبالتالي فهو على نور، أي: على هُدى من ربه، إِذْ هناك مُؤَثَّرٌ ومُتَأَثِّرٌ، فالمؤثَّر هو الله تعالى من خلال كلامه (القرآن الكريم بروحانيته)، والمتأثر هو الإنسان (جسداً ونفساً وقلباً)، أي: إن الأثر الذي يتركه القرآن الكريم في سامعه، ويدخل إلى قلبه دون استئذان فيُحِيلُهُ إلى إنسان آخر، ويحدث انقلاباً في نفسه ووجدانه، فيطمئن، ويعمل قَدْرَ استطاعته، وَيَسْعَدُ ولا يكثر لمنغصات الحياة، ويُقْبَلُ عليها بهدى من ربه، وإيماناً بأنه هو خالق الكون ومدبره، فسماع القرآن ابتداءً يؤثر تأثيراً مؤقتاً يطمئن له السامع، فإن تابع السامع المتأثر موجبات هذا التأثير بالبحث والتفكير، تحوّل إلى تأثير دائم.

إن روحانية القرآن التي كانت تلك آثارها على الإنسان مازالت موجودةً، ولا يمكن أن تتأخّر، فالقرآن الكريم هو القرآن، لم يتغير ولم يتبدل؛ فالمشكلة ليست في القرآن، وإنما في الإنسان المتلقّي للقرآن بالقلب الذي هو محل التلقي والفهم، والذي يجب أن يتجرد للحق المَحْضِ، ويستمر بإمداده بأدوات الإيمان والابتعاد عن أدوات الشك والشك والشهوة التي في غير محلها، وبالتالي فإنه بذلك يكون على طريق الحق والاطمئنان والحياة الهادئة المنتجة والعامرة بالمحبة والعبادة لله تعالى، وإعمار الكون على مراده سبحانه.

١. السدي: هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكوفي، وهو تابعي محدث ومفسر معروف، أشهر كتبه «تفسير السدي»، توفي عام ١٢٧ هـ.

[٦-١٠] تطور الإعجاز التأثري للقرآن الكريم:

(مقتبس - بتصرف - من مقال الدكتور «محمد عطا الله أحمد يوسف»^(١))

نستطيع أن نميّز بين مراحل نشأة الإعجاز التأثري للقرآن وتطوره:

- المرحلة الأولى: مرحلة النشأة: إن نشأة هذا الوجه الإعجازي (التأثري أو النفسي) للقرآن بدأت حين نزول القرآن الكريم نفسه في القرن السابع الميلادي كاتصال مباشر مع الخالق عن طريق النبي الموحى إليه سيدنا محمد ﷺ، وذلك لما يلي:

- أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه بالحرص على إسماع المشركين القرآن الكريم؛ ليكون ذلك عوناً على دعوتهم للإسلام، قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَّهُ﴾^(٦)، فلولا أن سماعه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة، والمعجزة لا بد لها من أثر فيمن تُعجزه، إما تصديقاً أو تكذيباً، قال ابن حجر العسقلاني (ت: ١٤٤٩هـ) - وهو محدث وعالم فقه شافعي المذهب -: «ولا خلاف بين العقلاء أن كتاب الله تعالى مُعْجِزٌ، لم يقدر أحد على معارضته بعد تحدّثهم بذلك».

- ما ورد في كتب السيرة والتفسير وأغلب الكتب التي تتناول قضية الإعجاز عن لجوء رسول الله ﷺ لإعجاز محتوى القرآن التأثري كوسيلة أساسية من أسس الدعوة للإسلام، وظهور أثر هذه الوسيلة الفعالة في كل من استعملت معه، إما قبولاً واعتناقاً للإسلام، أو نفوراً وإعراضاً عنه، أو إقراراً بإعجاز القرآن في حاله.

- إن الإعجاز التأثري في هذه المرحلة -مرحلة النشأة الأولى- يتمثل في الممارسة والسلوك العملي للإعجاز نفسه، دون التأليف فيه، أو وضع

١. محمد عطا الله أحمد يوسف، وهو مصري الجنسية، وأستاذ متفرغ في اللغة العربية وآدابها -كلية الآداب - جامعة طنطا - جمهورية مصر العربية.

قواعد أو أصول له، وإنما تدل الشواهد الكثيرة على ممارسته في حياة المسلمين (حيث أصبحوا قدوة لغيرهم).

- ولقد أشار الجاحظ (توفي سنة ٢٥٥هـ.) وهو أديب موسوعي في العصر العباسي وأشهر كتبه «الحيوان» و «البخلاء»، وبعد قرنين من الزمان -من نزول القرآن والدعوة إلى الإسلام- (أي: في القرن التاسع الميلادي، وفي أوائل القرن الثالث الهجري) في كتابه «البيان والتبيين» من خلال حديثه عن الإعجاز البلاغي للقرآن إشاراتٍ خاطفةً للإعجاز التأثري (النفسي)، وكذلك فعل غيره من الكثير من العلماء منذ ذلك الوقت وحتى عصرنا هذا.

- المرحلة الثانية: مرحلة التأصيل العلمي للإعجاز التأثري: من العلماء الذين تحدثوا عن الإعجاز التأثري من القدماء: أبو سليمان الخطابي^(١)، وابن قيم الجوزية^(٢)، ومن العلماء المحدثين: د. عبد الكريم الخطيب^(٣)، والشيخ محمد الغزالي^(٤)، -رحمهم الله أجمعين-.

١. أبو سليمان محمد بن محمد الخطابي الشافعي، محدث وفقه وعالم مسلم من كبار أئمة الشافعية، ولد في مدينة بست، وارتحل وطلب العلم والحديث، فذهب إلى بغداد والبصرة ومكة وخراسان وبلاد ما وراء النهر، وتفقه على المذهب الشافعي، ولقد صنف التصانيف، وألف كتاباً في شرح الأسماء الحسنى سماه «شأن الدعاء»، وشرح سنن أبي داود في «معالم السنن»، وله شرح لكتاب صحيح البخاري اسمه «أعلام السنن»، وله كتاب ينهى فيه عن علم الكلام اسمه «الغنية عن الكلام وأهله»، وكتاب غريب الحديث، وكتاب اصطلاح غلط المحدثين، وغيرها من الكتب والتصانيف، وكان لغوياً له قصائد شعر، توفي سنة ٣٨٨هـ..

٢. أبو عبد الله شمس الدين الدمشقي الحنبلي، ولد (٦٩١هـ - ١٢٩٢م)، المعروف باسم «ابن قيم الجوزية» أو «ابن القيم». هو فقيه ومحدث ومفسر وعالم مسلم مجتهد، وواحد من أبرز أئمة المذهب الحنبلي؛ فقد كان والده «أبو بكر بن أيوب الزرعي» قياً على «المدرسة الجوزية الحنبلية»، وعندما شبّ واتصل بشيخه ابن تيمية حصل تحول بحياته العلمية، فأصبح لا يلتزم في آرائه وفتاويه بما جاء في المذهب الحنبلي إلا عن اقتناع وموافقة الدليل من الكتاب والسنة ثم على آراء الصحابة وأثار السلف؛ ولهذا يعتبره بعض العلماء من المجتهدين (ت: ٧٥١هـ / ١٣٥٠م).

٣. د. عبد الكريم الخطيب، وهو مفكر إسلامي مصري معاصر، وهو باحث وكاتب معروف ومفسر ضليع، وعمل بكلية الشريعة في الرياض.

٤. الشيخ محمد الغزالي عالم ومفكر إسلامي مصري، يُعد أحد دعاة الفكر الإسلامي في العصر الحديث، عُرف عنه تجديده في الفكر الإسلامي وكونه من «المناهضين للتشدد والغلو في الدين» كما يقول أبو العلا ماضي، كما عُرف بأسلوبه الأدبي في الكتابة واشتهر بلقب أديب الدعوة (ت: ١٩٩٦م).

قام «الخطابي» في رسالته (بيان إعجاز القرآن) بالاعتراف بصعوبة معرفة وجه الإعجاز في القرآن، في الوقوف على كيفيته، ثم بدأ في ذكر وجوه الإعجاز فحدّدها. وفي نهاية رسالته عاد الخطابي إلى تأكيد رأيه في الإعجاز القرآني، وذلك باختياره «الإعجاز التأثيري» كأهمّ وجه من وجوه الإعجاز. فقال: «في إعجاز القرآن وجهٌ آخرٌ، ذهب عنه الناسُ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذُّ من آحادهم، وذلك صنيعة بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن (منظومًا ولا منشورًا) إذا قرَعَ السَّمْعُ خُلصَ له القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في حالة أخرى، ما يخلص منه إلا إليه، تستبشر به النفوسُ، وتنشرح له الصدورُ، حتى إذا أخذتْ حظّها منه، عادت إليه مُرتاعةً قد عراها القلق، وتغشاها الخوف والفرقُ، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس ومُضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكَمَ مَنْ كان عدوًّا للرسول ﷺ من رجال العرب وفُتّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آياتٍ من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحوّلوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مُسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتُهم موالاةً، وكفرُهم إيمانًا.

- فقد خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمّا خرج يريد رسول الله ﷺ ويعمّد إلى قتله، فسار إلى دار أخته (فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد - أحد العشرة المبشرين بالجنة -) وهي تقرأ سورة طه، فلما وقع في سمعه لم يلبث أن آمن.

- كما بعث الملائم من قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ ليوقفوه على أمور أرسلوه بها، فقرأ عليه رسول الله ﷺ آياتٍ من سورة حم السجدة، فلما أقبل عتبة وأبصره الملائم من قريش قالوا: أقبل عتبة بغير الوجه الذي ذهب به.

- ولما قرأ رسول الله ﷺ القرآن على النفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا، وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدين بها، فلم يبق بيتٌ من بيوت الأنصار

إلا وفيه قرآن. وقد روي عن بعضهم أنه قال: فُتحت الأمصار بالسيوف، وفُتحت المدينة بالقرآن.

- ولما سمعته الجنُّ لم تتمالك أن قالت - كما ورد في سورة الجن -: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ﴾، ومصدق ما وصفناه في أمر القرآن في قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهَا عَلَى الْقُرْآنِ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۖ﴾، وقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مِّثْقَالِي نَفْسِ عُرْمَنِ جُلُودِ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ۖ﴾، وغير ذلك من الآيات، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيدٌ، وهو من عظيم آياته، ودلائل معجزاته التأثيرية!«.

يقول ابن قيم الجوزية في كتابه (الفوائد): «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه؛ فإنه خطابٌ منه لك على لسان رسوله ﷺ، قال تعالى في سورة ق: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۚ﴾، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على «مؤثر مقتضى» و«محل قابل» لحصول الأثر، و«انتفاء المانع» الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظٍ وأبينه، وأدله على المراد، فقلوه: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا) إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ها هنا، وهذا هو المؤثر، وقوله: (لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ) فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى في سورة يس: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ۖ ۝٦١ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ۖ ۝٧٠﴾، (أي: حي القلب)، ثم قوله تعالى في سورة ق: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۚ﴾، أي: وجّه سمعه وأصغى حاسة سمعه، إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثير بالكلام، وقوله: (وهو شهيد) أي: شاهد القلب حاضراً غير غائب.

فإذا حصل «المؤثر» وهو القرآن، و «المحلّ القابل» وهو القلب الحيّ، ووُجِدَ «الشرط» وهو الإصغاء، وانتفى «المانع» وهو اشتغال القلب وذُهِوْلُهُ عن معنى الخطّاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر = حصل «الأثر»، وهو الانتفاع بالذِّكْرِ، ثم يقول: «فإن قيل: إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه الأشياء، فما وجه دخول أداة (أو) في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾، والموضع موضع (واو الجمع)، لا موضع (أو) التي هي لأحد الشيئين؟ قيل: هذا سؤال جيد، والجواب عنه أن يقال: خَرَجَ الكلامُ بـ (أو) باعتبار حال المخاطب المدعو، فإنَّ منَ الناسِ مَنْ يكون حيّ القلب، واعِيَهُ، تامَّ الفِطْرة، فإذا فكَّر بقلبه وجال بفكره دلَّه قلبه وعقله على صحة القرآن، وأنه من الحقّ، وشهد قلبه بما أخبر القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نوراً على نور الفِطْرة، وهذا وصفُ الذين قال فيهم القرآن في سورة سبأ: ﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ۖ﴾، وقال العلماء: أي: إن الذكْرَى تكون لصنْفَيْنِ من الناس: الأول: مَنْ له قلبٌ يعقلُ به، ووعيٌ يتدبّر ويتأمل في نفسه ويعرِفُ، والثاني: من استمع إلى غيره، ولكن بشرط أن يكون شهيداً، أي: حاضر القلب.

يقول الدكتور الخطيب: «إن كلمات القرآن التي كانت على فم الناس، كان لها رحلة إلى الملاء الأعلى من الأرض إلى السماء، من أفواه الناس إلى عالم الروح والحق والنور، وهناك في هذا العالم - عالم الروح والحق والنور - عاشت تلك الكلمات دهرًا طويلاً بين ملائكة، وولَدَان، وحُورٍ عِين، فنفضت عليها هذه الحياة الجديدة روحاً من روحها، وجلالاً من جلالها، ونوراً من نورها، حتى إذا أذن لها الحكيم الخبير أن تعود أدراجها إلى الأرض وتلقَى بأفواه الناس مرة أخرى، وتطرق أسماعهم، وتتصل بعقولهم وقلوبهم، لم ينكروا شيئاً من وجودها، وإن سرى إليهم من هذا الوجود (الدنيا) ما يخطف الأبصار ويخلب الألباب، فالمؤمنون في شوق متجدد معه (القرآن)، وفي خير متصل منه، وفي عطاء موصول من ثمره، كلما مدّوا أيديهم إليه

قطفوا من أدبه أدبًا عاليًا، ومن علمه علمًا نافعًا، ومن شريعته دينًا قيمًا، وغير المؤمنين في عجب من أمره ودَهْشٍ، يتناولونه بالسنة حِداد، ويرمونه بسهام مسنونة، وبكِئِدٍ عظيم؛ فما يصل إليه من كيدهم شيء».

كان حديث الدكتور عن الإعجاز يرتكز بصورة أساسية على ما يُحدِّثه القرآن من أثر في النفوس، كما رأينا ذلك واضحًا في مقارنته بين أثر كلام البشر وكلمات القرآن على النفوس البشرية المؤمنة بالقرآن، والمنكرة له على سواء.

إن آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ومواقف الصحابة، بل وما في واقع الحياة البشرية في عصرنا الحالي وكل ما ذكره الدكتور تثبت وترصد مظاهر هذا الوجه (الإعجاز التأثيري) من وجوه الإعجاز في حياة البشر، وتؤكد اختياره له.

ويمتاز هذا الإعجاز التأثيري عن سائر وجوه الإعجاز بأنه:

- المعجزة القائمة في كل حين.
- أنها تَسْعُ الناسَ جميعًا، عالمهم وجاهلهم.
- أنها تَسْعُهُم بكل لغاتهم، عربيهم وعجميهم.
- أنها لا تقتصر على الإنسِ وَحْدَهُم، بل وتَسْعُ الجنَّ أيضًا - وغيرهم -.

والشيخ محمد الغزالي المتوفي (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م) في كتابه (نظرات في القرآن) خصَّص فصلًا كاملاً عن الإعجاز في القرآن الكريم، ويرى فيه أن إعجاز القرآن يَبْرُزُ في وجوه ثلاثة: الإعجاز النفسي، والإعجاز العلمي، والإعجاز البياني.

ويمكن أن نفهم حديث الشيخ الغزالي عن الإعجاز النفسي (التأثيري في رأينا) متمثلاً في نقاط أربع:

أولاً: مكانة الإعجاز التأثري.

ثانياً: تأثير القرآن في المؤمن والكافر.

ثالثاً: من وسائل تأثير القرآن: تقديم الدليل المُفحِّم على كلِّ شبهة، تلوين الحديث، تصريف الأمثال، تعرية النفوس، التغلب على مشاعر المَلَل، وغيرها.

رابعاً: الترغيب والترهيب.

فبعد أن يتحدث الشيخ محمد الغزالي عمّا يعرّض له القرآن من عقائد دينية وأحكام تشريعية، وحقائق علمية نتلمّس النقطة الأولى عن مكانة الإعجاز النفسي (التأثري)، إذ يقول:

«قد تجد في القرآن حقيقةً مُفردةً، ولكنَّ هذه الحقيقة تظهر في ألفِ ثوبٍ، وتتوزع تحت عناوين شتّى، كما تذوق السكر في عشرات الطُعم والفواكه، وهذا التكرار مقصودٌ، وإن لم تزد به الحقيقة العلمية في مفهومها؛ ذلك أنَّ الغرض ليس تقرير الحقيقة فقط، بل بناء الأفكار والمشاعر، والتقاط مؤلفه آخر ما تخلقه اللّجاجة من شبهات وتعليلات، ثم الكرّ عليها بالحُجج الدامغة، حتى تبقى النفس وليس أمامها مفرٌّ من الخضوع لمفهومها للحق، والاستكانة لله».

ولكن هل يتأثر كلُّ إنسانٍ بالقرآن؟ أم يقتصر هذا التأثير على المؤمنين به؟ ويردُّ الشيخ على هذا التساؤل بما يؤكد مكانة الإعجاز التأثري بين وجوه الإعجاز، وعدم اقتصاره على نفس إنسانية دون أخرى، فيقول في تأثير القرآن في المؤمن والكافر:

«فما أظنُّ امرءاً سليمَ الفكر والضمير يتلو القرآن أو يستمع إليه ثم يزعم أنه لم يتأثر به، قد تقول: ولم يتأثر به؟ والجواب: أنه ما من هاجسٍ يعرّض

للنفس الإنسانية من ناحية الحقائق الدينية، إلا ويعرض له القرآن بالهداية وسداد التوجيه، ما أَكْثَرَ ما يَفْرُ المرءُ من نفسه، وما أَكْثَرَ الذين يَمْضُونَ في سبل الحياة هَائِمِينَ على وجوههم، ما تَمَسُّكُهم بالدنيا إلا ضروراتُ المادة فحسبُ.

إن القرآن الكريم -بأسلوبه الفريد- يردُّ الصوابَ إلى أولئك جميعًا، وكأنه عرف ضائقةَ كُلِّ ذي ضيقٍ، وزَلَّةَ كُلِّ ذي زَلَلٍ، ثم تكفل بإزاحتها كُلِّها، كما يعرف الراعي أين تاهت خرافُه، فهو يجمعها من هنا وهناك، لا يغيب عن بصره ولا عن عطفه واحدٌ منها.

وذلك سرُّ التعميم في قوله عز وجل في سورة الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ۖ﴾، حتى الذين يُكذِّبونَ بالقرآنِ ويرفضون الاعترافَ بأنه من عند الله، إنهم يَقْنُونَ (متأكِّدون) منه، مثلما يَقِفُ المَاجِنُ (قليل الحياء) أمامَ أبِ ثاكيل (من فقد ولده)، قد لا ينخلعُ مِنْ مُجُونِهِ الغالبِ عليه، ولكنه يأخذُ فترةً ما بِصِدْقِ العاطفةِ الباكية، أو مثلما يَقِفُ المستمعُ أمامَ خطيبٍ يَهْدِرُ بالصِّدْقِ، ويحدثُ العميانَ عن اليقين الذي يَرَى ولا يَرَوْنَ، إنه قد يرجعُ مُستهزئًا، ولكنه يرجع بغير النفس التي جاء بها.

والمنكرونَ مِنْ هذا النوع لا يطعنون في التأثير النفساني للقرآن الكريم، كما أن العميان لا يطعنون في قيمة النور؛ ولذا يقول الله عز وجل في سورة الزمر: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ۖ﴾.

وفي النقطة الثالثة حول وسائل تأثير القرآن، يُبرز الشيخ الغزالي بعض أسرار التأثير القرآني في الإنسان فيقول: «إن القرآن يملك على الإنسان نفسه بالوسيلة الوحيدة التي تَقْهَرُ تَقَوُّه في الجدَل، أي: بتقديم الدليل المُفْجِمِ لكلِّ شُبْهَةٍ، وتسليط البرهان القاهر على كُلِّ حُجَّةٍ»، فالنُكُوصُ عن الإيمان بعد قراءة القرآن يكون كفرًا عن تجاهل، لا عن جهل، ومن تقصير لا من قُصور، والجدَلُ آفةٌ نفسيةٌ وعقليةٌ معًا، والنشاط الذهنيُّ للمُجادِلِ يُمِدُّه حراكُ

نَفْسِي خَفِيٌّ، فَلَمَّا يَهْدَأُ بِسَهْوَةٍ، وَجَمَاهِيرُ الْبَشَرِ لَدِيهَا مِنْ أَسْبَابِ الْجَدَلِ
مَا يَفُوقُ الْحَضَرَ؛ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَرْتَبِطُونَ بِمَا أَلْفَوْا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَدْيَانٍ وَأَرَائٍ
وَمَذَاهِبٍ ارْتِبَاطًا شَدِيدًا، وَيَصْعُبُ عَلَيْهِمُ الْإِحْسَاسُ بِأَنَّهُمْ وَأَبَاءُهُمْ كَانُوا
فِي ضَلَالٍ، فَإِذَا جَاءَتْ رِسَالَةٌ عَامَةٌ تُمَزِّقُ الْغِشَاوَاتِ عَنِ الْعْيُونِ، وَتُكْشِفُ
لِلنَّاسِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ، فَلَا تَسْتَغْرِبَنَّ مَا تَلْقَى مِنَ الْإِنْكَارِ وَالتَّوَقُّفِ،
أَوْ التَّكْذِيبِ وَالْمَعَارِضَةِ.

وَأَسْلُوبُ الْقُرْآنِ فِي اسْتِلَالِ (إِخْرَاجِ) الْجَفْوَةِ مِنَ النَّفْسِ، وَإِلْقَاءِ الصَّوَابِ
فِي الْفِكْرِ، أَوْفَى عَلَى الْغَايَةِ فِي هَذَا الْمَضْمَارِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ حَدِيثُهُ لِلْسَّامِعِينَ
تَلَوِينًا يَمِزُجُ بَيْنَ إِيقَازِ الْعَقْلِ وَالضَّمِيرِ مَعًا، ثُمَّ تَابِعَ سَوْقَهُ مُتَابِعَةً إِنَّ أَفْلَتَ الْمَرْءُ
مِنْهَا أَوَّلًا لَمْ يُفْلِتْ آخِرًا، وَذَلِكَ هُوَ تَصْرِيفُ الْأَمْثَالِ لِلنَّاسِ.

إِنَّهُ أَحَاطَهُ بِسِلْسِلَةٍ مِنَ الْمُغْرِيَّاتِ الْمُتَوَعَّةِ، لَا مَعْدَى (لَا مَهْرَبَ) لَهُ مِنْ
الرُّكُونِ إِلَى إِحْدَاهَا، أَوْ مَعَالِجَةِ الْقُلُوبِ الْمَغْلَقَةِ بِمِفْتَاحِ شَتَّى، لَا بَدَأَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ
عِنْدَهُ عَنْهُ وَاحِدٌ مِنْهَا. وَتَرَكَابُ الْقُرْآنِ - الَّتِي تَنْتَهِي حَتْمًا بِهَذِهِ النَتِيجَةِ -
تَسْتَحِقُّ التَّأَمُّلَ الطَّوِيلَ، وَلَسْنَا هُنَا بِصَدَدِ الْكَلَامِ عَنْ بِلَاغَتِهَا، بَلْ بِصَدَدِ الْبَحْثِ
عَنِ الْمَعَانِي الَّتِي تَأَلَّفَتْ مِنْهَا، فَكَانَ مِنْ اجْتِمَاعِهَا هَذَا الْأَثَرُ السَّاحِرُ.

وَيَسْتَكْمِلُ الشَّيْخُ الْغَزَالِيُّ بَيَانَهُ عَنْ وَسَائِلِ الْقُرْآنِ الَّتِي تُسَبِّبُ التَّأْثِيرَ فِي
النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَةِ فَيَقُولُ: «إِنَّ طَبِيعَةَ هَذَا الْقُرْآنِ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَقْهَرَ بِرُودَةِ الْإِلْفِ،
وَطُولِ الْمَعْرِفَةِ، فَتَتَعَرَّى أَمَامَهُ النَّفُوسُ، وَتَنْسَلِخُ مِنْ تَكَلُّفِهَا وَتَصْنَعِهَا، وَتَنْزَعُجُ
مِنْ دُهُولِهَا وَرُكُودِهَا، وَتَجِدُ نَفْسَهَا أَمَامَ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ، يَحِيطُهَا وَيُنَاقِشُهَا،
وَيَعْلَمُهَا وَيُؤَدِّبُهَا، فَمَا تَسْتَطِيعُ أَمَامَ صَوْتِ الْحَقِّ الْمُسْتَعْلَنِ الْعَمِيقِ إِلَّا أَنْ
تَخْشَعَ وَتَصِيحَ». ثُمَّ يَقُولُ: «وَكَمَا قَهَرَ الْقُرْآنُ نَوَازِعَ الْجَدَلِ فِي الْإِنْسَانِ وَسَكَّنَ
لِحَاجَتِهِ، تَغَلَّبَ عَلَى مَشَاعِرِ الْمَلِكِ فِيهِ، وَأَمَدَّهُ بِنَشَاطٍ لَا يَنْفَدُ. وَالْجَدَلُ غَيْرُ
الْمَلِكِ، هَذَا [الجدل] تَحَرُّكٌ ذَهْنِيٌّ، قَدْ يَجَسَّدُ الْأَوْهَامَ، وَيُحَوِّلُهَا إِلَى حَقَائِقَ،
وَهَذَا [الملل] مَوَاتٌ عَاطْفِيٌّ، قَدْ يَجَمِّدُ الْمَشَاعِرَ، فَمَا تَكَادُ تَتَأَثَّرُ بِأَخْطَرِ

الحقائق، وكثيرٌ من الناس يَصِلُونَ في حياتهم العادية إلى هذه المنزلة من الركود العاطفي، فنجد لديهم بُرودًا غريبًا بإزاء المثيرات العاصفة، لا عن ثباتٍ وجلادةٍ (صبر)، بل عن موتِ قلوبهم، وشللِ حواسهم».

والقرآن الكريم - في تحدُّثه للنفس الإنسانية - حارب هذا الملل وأقصاه عنها، وعمل على تجديد حياتها بين الحين والحين، حتى إنه لَيَمَكِّنُهَا أن تستقبل في كل يوم ميلادًا جديدًا، قال تعالى في سورة طه: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْقَوْنَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (١١٣).

أما النقطة الرابعة، وهي الترغيب والترهيب، فيقول الشيخ الغزالي: «والشعور بالرغبة والرَّهْبَةَ والرَّقَّةَ تَعْمُرُك وأنت تستمع إلى قصص الأولين والآخرين تُرَوِّى بلسان الحق، ثم يتبعها فيضٌ من المواعظ والحكم، والمغازي (المقاصد) والعبر، تقشعرُّ منه الجلود».

[٧-١٠] موانع تأثر النفس البشرية بالقرآن والانفعال به:

يقول الشيخ الغزالي - فيما يؤكد هذه النقطة -: «إِنْ إِلْفَكَ (اعتيادك) للشيء قد يُخْفِي ما فيه من أسرار، وَيَصْرِفُكَ عن اكتشافها، وكثيرًا ما تتلو آيات القرآن مثلما تتصفح آلاف الوجوه في الطريق، ملامح نراها، قد تكون دَمِيمَةً (قبيحة)، وقد تكون وسيمة، تمرُّ أشكالها بالعين، فما تثبت على أحدها إلا قليلًا وفي دُھُول؛ لأن المرء مشغول بشأنه الخاص عن دراسة القدرة العليا في نَسَجِ هذه العيون، وغَرَسِ هذه الرؤوس، وصَوِّغِ تلك الشِّفاه، وإحكام ما تنفرج عنه من سِنَانٍ، وما تؤدي إليه من أجهزة دَوَّارَةٍ، لا تَقِفُ لحظةً، إننا نقرأ القرآن فيحجُبنا - ابتداءً - عن رؤية إعجازه: أنه كلامٌ من جنسٍ ما نعرفُ، وحُرُوفٌ من جنسٍ ما نَنطِقُ، فنمضي في القراءة دون حسٍّ كاملٍ بالحقيقة».

فالشيخ الغزالي قد جعل وجه الإعجاز النفسي (التأثيري عندنا) مُقَدَّمًا على وجوه الإعجاز جميعًا، بما فيها الإعجازُ البياني الذي كان يتصدر وجوه

الإعجاز عند العلماء السابقين غالباً، وقد ربط الشيخ الغزالي بين الوجهين رباطاً وثيقاً، بل ويجعل الإعجازَ البياني هو المقدمة للإعجاز التأثري، لكن اهتمام الغزالي بالإعجاز التأثري جعله يضعه في هذه المكانة، يقدمه بها على سواه.

* ملاحظات مهمّة:

١. يتأثر الإنسان بمؤثرات كثيرة في حياته، فقد تكون كلاماً، قراءة كتاب، شعراً، موقفاً، منظرًا طبيعيًا، خطبةً عصماء، تقديم عرضٍ مُشوّقاً، قصةً، موسيقى... وفي العصر الحديث عن طريق أدوات التواصل الاجتماعي عبر الإنترنت، كما يتأثر الإنسان بالكتب السماوية والأنبياء وسيرهم وتعاليمهم، وقد يتساءل البعض: لماذا نخضع القرآن الكريم وحده بأن له تأثيراً إعجازياً؟

٢. لقد عدّ بعض العلماء المسلمين الإعجازَ التأثري ناتجاً عن السحر البياني والبلاغي للقرآن الكريم، وبعضهم لمّح أو كتب عن التأثير باللحن أثناء التجويد أو الترتيل للقرآن الكريم، وكل ذلك قد يؤثر تأثيراً جزئياً أو مؤقتاً، إلا أنه لا يصل إلى مرحلة الإعجاز! وهناك من يسأل: لماذا لم يتأثر كل المسلمين بما جاء في القرآن الكريم ويعملوا به؟! ولماذا هم الآن في المقصورة الأخيرة من قطار المدينة، حتى إن الكثير منهم يعاني التخلف الحضاري والمادي، والتكنولوجي وحتى الأخلاقي!

٣. يتساءل البعض أن هناك العديد من المسلمين المرتدّين عن دين الإسلام إلى الإلحاد! فهل «الإيمان» بالمعنى العام هو المصدر الوحيد أو الأساس للتأثير في النفس الإنسانية؟ وبالتالي، فقد يتأثر المؤمن بالكتب السماوية الأخرى أيضاً بتأثيرات مماثلة!

الجواب:

قال العلماء: إن «الإيمان» هو أحد أسباب التأثير، ولكنه ليس السبب الوحيد؛ إن التأثير الأهم في حالة المسلمين هو «القرآن الكريم»، ومن ثم يكون المؤمن مخلصاً في إيمانه، ومُستعداً بفطرته لقبول الحق، فبمقتضى هذا الاطمئنان القلبي والوجداني، والاستعداد لقبول التوحيد، يشرح الله صدره، ويبعث في قلبه الراحة والهدوء والسكينة، وتعمُر نفسه طمأنينة نادرة، وهذه الأمور مجتمعة لا تتوفر في جميع أنواع المؤثرات المذكورة في الفقرة (١) السابقة الذكر؛ لأنها تأثيرات مؤقتة، وكذلك الفقرة (٢)؛ لأن إيمان الكثير من المسلمين اليوم هو إيمان ناقص، على الرغم من قراءتهم وتلاوتهم وسماعهم للقرآن؛ لأنهم لم يتدبروه كما أمر الله تعالى، وبالتالي لم يأخذوا بأسباب الهدى وبعث الاطمئنان والسكينة في قلوبهم، وأما المرتدون عن الإسلام - كما في الفقرة (٣) - فإن هؤلاء قد فضّلوا اتباع الهوى والمنفعة على اتباع الحق والموضوعية، وبالتالي فإنهم فقدوا الرغبة في التفهّم؛ ففقدوا العنصر الأهم من عناصر التأثير، فلذلك ارتدوا عن دين الإسلام.

[٨-١٠] نماذج من الذين تأثروا بالقرآن الكريم:

الأمثلة والنماذج على تأثير القرآن الكريم في النفوس عديدة على اختلاف الزمان والمكان، سواء أكانت النفوس كافرة أم مؤمنة، وسواء أكانت نفوس عرب تعرف العربية لغة القرآن الكريم وتتذوّقها، أم كانت نفوس أعاجم لا تكاد تعرف من العربية شيئاً.

ونقدّم في ما يلي نماذج لثلاثة أصناف أثر فيهم القرآن الكريم: الكافرون، والمؤمنون، وغير العرب:

أ. تأثير القرآن في نفوس الكفار:

قال الله تعالى في سورة فصلت: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٦)، ويروي التاريخ أن الإحساس بتأثير القرآن الكريم كان يجذب رؤساء هؤلاء المعاندين ليلًا لاستماع تلاوة النبي ﷺ في بيته، على ما كان من نهيهم عن سماعه وتواصيهم بذلك، لكنّ عنادهم وخوفهم على مصالحهم وزعامتهم وشهواتهم، جعلهم يهربون من سماع القرآن خوفًا من تأثيره عليهم.

وتروي كتب التاريخ قصة الوليد بن المغيرة المعروف بعِدائه الشديد للنبي محمد ﷺ، والذي كان من أفصح العرب قولًا وشعرًا، فقد شهد على بلاغة القرآن بعد أن سمع النبي محمدًا ﷺ مرةً وهو يقرأ القرآن، فعاد إلى قومه قائلاً مقولته الشهيرة: «والله، لقد سمعتُ من محمد أنفًا كلامًا، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو ولا يُعلى عليه». آنفًا: سابقًا في وقت قريب، حلاوة: الحُسن والعدوبة في الفصاحة، طلاوة: بهجة ونضارة، أعلاه لمثمر: الفاكهة ذات الفائدة، أسفله لمغدق: فيه خيرات كثيرة.

وكذلك عتبة بن ربيعة، الذي تأثر بالقرآن، وغيره من زعماء العرب، كأبي جهل والأخنس بن شريق وأبي سفيان، الذين خرجوا ليلةً ليستمعوا إلى رسول الله ﷺ، ثم قال بعضهم لبعض: لا تعودوا حتى لا تتأثروا بهذا الكلام، وما منعهم إلا العناد.

ب. تأثير القرآن على المنافقين:

لقد تساءل المنافقون (الذين يُظهرون الإسلام ويُبطنون غيره) هذا السؤال العجيب الذي يتبيّن منه خوفهم الدائم على ما تخفيه قلوبهم أن يُظهره القرآن

ويكشفه، يقول الله تعالى في سورة التوبة مُصَوِّرًا حَالَهُمْ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾. فأثر القرآن واضح في الفريقين: في المؤمن زيادة في الإيمان، واستبشاراً في الوجود، وفي المنافقين خوفاً من كلام الله تعالى، وفي الوقت نفسه للمنفعة؛ فأثر القرآن مختلف في الفريقين حسب نوع المتلقي وما لديه من استعدادات لاستقبال المؤثرات القرآنية أو موانع في أمراض القلوب المتنوعة.

لذلك فللقرآن سلطان خاص على الفطرة، متى خلّي بينها وبينه لحظة، وحتى الذين على قلوبهم الحُجُبُ، وفوقها الرُّكَامُ، تتفّض قلوبهم أحياناً وتتملّح تحت وطأة هذا السلطان وهم يستمعون إلى هذا القرآن.

ج- تأثير القرآن الكريم على أهل الكتاب من العرب:

دين الله واحد، جاءت به الرسل جميعاً، وتعاقبت عليه الرسل جميعاً، وعهدُ الله واحد أخذهُ على كلِّ رسول، والإيمانُ بالدين الجديد، واتباعُ رسوله، ونُصرة منهجه على كل منهج، هو الوفاء بهذا العهد.

قال أحدُ المسيحيين العرب الذين اعتنقوا الإسلام: «الكتب المقدسة المسيحية واليهودية فيها الكثير من الثغرات التي تُثير الأسئلة بلا إجابات مُقنعة! بينما القرآن يُجيب على كلِّ التساؤلات بشكل مُقنع جداً؛ خاصةً حول الحياة، وخلق الكون، والعلاقات بين العبد وربّه...، ولم يتركْ ثغراتٍ للتساؤل، بل يُجيب على كلِّ الأسئلة ويترك لك حُرّة الاقتناع».

والعقيدة الإسلامية يمكن أن تتعلّمها من خلال القرآن الكريم، فالخالق سبحانه وتعالى معروفٌ جداً في القرآن الكريم، وأنّه واحدٌ أحدٌ ليس له ولدٌ ولا والد... وكذلك الأخلاقيات، والقيمُ العالية في العقيدة، والعلاقة

مع الله؛ فكلُّ ديانة أُخرى وفلسفةٍ دينيةٍ فيها الكثيرُ من الغُموض والتعقيد حول الخالق، وهي علاقة تقبُّل الفهم بأكثرَ من معنى، لكنَّها في الإسلام واضحةٌ جدًّا لا لبسَ فيها؛ فعندما تقرأ القرآن الكريم لمرةٍ واحدةٍ تفهم ما هو المطلوب منك.

نماذج:

١. القس إسحق هلال مسيحه، المهنة: راعي كنيسة المثلث المسيحي، ورئيس فخري لجمعيات خلاص النفوس المصرية بأفريقيا وغرب آسيا. مواليد ٣/ ٥/ ١٩٥٣ م. - المنيا - جمهورية مصر العربية قال:

«ولدتُ في قرية البياضية، من والدين نصرانيين أرثوذكس، زرعاً في نفوسنا - ونحن صغار - الحقَّ ضدَّ الإسلام والمسلمين، حيث بدأتُ أدرس حياة الأنبياء، بدأ الصراعُ الفكري في داخلي، وكانت أسئلتي تثير المشاكل في أوساط الطلبة، مما جعل كبير القساوسة يُصدر قراراً بتعيني قسيساً قبل موعد التنصيب بعامين كاملين؛ لإغرائي وإسكاتي، فقد كانوا يشعرون بمناصرتي للإسلام، مع أنه كان مُقررًا ألا يتم التنصيب إلا بعد مرور ٩ سنوات من بداية الدراسة اللاهوتية.

ثم عُيِّنَ رئيسًا لكنيسة المثلث المسيحي بسوهاج، ورئيسًا فخريًا لجمعيات خلاص النفوس المصرية، (وهي جمعية تنصيرية قوية جدًّا، ولها جذور في كثير من البلدان العربية، وبالأخص دول الخليج).. وكان كبير القساوسة يُعِدُّ عليَّ الأموال حتى لا أعود لمناقشة مثل تلك الأفكار، لكنِّي مع هذا كنت حريصًا على معرفة حقيقة الإسلام، ولم يخبُ النور الإسلامي الذي أثار قلبي فرحًا بمنصبي الجديد، بل زاد، وبدأتُ علاقتي مع بعض المسلمين سرًّا، وبدأتُ أدرس وأقرأ عن الإسلام، وطُلب مني إعداد رسالة الماجستير حول مقارنة الأديان وأشرف على الرسالة أسقف البحث العلمي في مصر سنة ١٩٧٥ م، واستغرقت في إعدادها أربع سنوات، وكان المشرف

يعترض على ما جاء في الرسالة حول صدق نبوة الرسول محمد ﷺ، وأُمِّيَّته،
وتبشير المسيح بِمَجِيئِهِ.

وأخيرًا تَمَّت مناقشة الرسالة في الكنيسة الإنكليكية بالقاهرة، واستغرقت
المناقشة تسع ساعات، وتركزت حول قضية النبوة والنبى محمد ﷺ، علمًا
بأن الآيات صريحة في الإشارة إلى نبوته وختم النبوة به، وفي النهاية صدر
قرار بسحب الرسالة مني، وعدم الاعتراف بها، أخذت أفكر في أمر الإسلام
تفكيرًا عميقًا حتى تكون هدايتي عن يقين تام، ولكن لم أكن أستطيع الحصول
على الكتب الإسلامية، فقد شدد الحراسة عليّ وعلى مكتبتي الخاصة، بعد
هذا الأمر وبعد رحلة طويلة من المعاناة والحوادث، أدركت أنه لا بدّ من أن
أشهر إسلامي، وهذا ما حصل والحمد لله.

٢. رُبا قعوار: ولدت في الدنمارك عام ١٩٨١م. وهي من عائلة تدين
بالديانة المسيحية، وبعدها انتقلت مع عائلتها إلى الاردن عام
١٩٨٥م.، أصبح والدها قسيسًا بعد جدها القسيس، وعمها قسيس
وابنة عمتها متزوجة من قسيس أيضًا.

قضت طفولتها ومعظم مراهقتها في الأردن، ثم انتقلت في عام ٢٠٠٢
م إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ثم توفي والدها عام ٢٠٠٣م، وفي ذلك
الوقت بدأت بالابتعاد عن الديانة المسيحية، بعدما كانت خادمة في الكنيسة؛
حيث حصل معها صدمة حضارية، وكان هناك أربعة أسباب رئيسة دفعتها
للتفكير في الإسلام حتى اعتنقته ونطقت الشهادتين، وهذه الأسباب هي:

أولاً: أسلوب دراستها للإنجيل.

ثانيًا: قراءتها للقرآن الكريم.

ثالثًا: البحث عن هوية وكيان.

رابعًا: الأحداث السياسية في ذلك الوقت التي أثرت بها كثيرًا، وأبرزها
حادثة ١١ سبتمبر.

قبل أن تنطق الشهادتين كانت خائفة كثيرًا من ردة فعل الأهل لو عرفوا بأمرها، ومن ردة فعل المجتمع، وعندما وصلت إلى أصدقائها كانت تبكي، وسألوها عن السبب، فقالت لهم، وفي تلك اللحظة شَعَرَت بسعادة غامرة، لدرجة كادت أن تخرج وتقول للجميع إنها مسلمة، ولم يَعُدْ يهمها الأمر إطلاقًا. لم يصدقها أحد من أصدقائها الذين كانوا معها، لكنها شرحت لهم أن لديها الرغبة في أن تتعلم عن الدين الإسلامي، أن تعرف كيف تتوضأ، كيف تصلي، وكل شيء عن الإسلام. فقال لها أحدهم: «سبحان الله! إن الله يحبك»، والآخر قال: «إن اليوم هو أول ليلة رمضان»، وكانت فرحتها أكبر عندما علمت أنها ستصوم مع المسلمين أيضًا. كان ذلك - دون أدنى شك - هو شعور الرضا لاندماجها مع ذلك المجتمع الصغير المحب لديها، وتعمقت دراستها عن الإسلام وحبها له، وأصبحت داعية مشهورة للإسلام.

وهناك أمثلة كثيرة لمتقنين وقسّسين وأشخاص عاديين من المسيحيين واليهود، قد اعتنقوا الإسلام بعد أن هداهم الله تعالى إلى دين الفطرة، وثبّتهم عليه من مختلف البلدان.

د- تأثير القرآن في غير العرب:

كما أثار القرآن الكريم تأثيرًا بليغًا في نفوس العرب كفّارًا ومسلمين، كذلك أثار في نفوس غير العرب من الذين لا يعرفون من اللغة العربية شيئًا، وسأقف على بعض الشواهد والنماذج لتأثير القرآن الكريم في بعض من غير العرب الذين لا يعرفون شيئًا منه:

١. يوسف إستس (Yusuf Estes):

(مواليد ١٩٤٤ م.) كان مُبَشِّرًا ومنصّرًا وواعظًا أمريكيًا في الكنيسة قبل أن يتحول إلى الإسلام، كان اسمه قبل إسلامه هو جوزيف إدوارد إستس، ولد

في الولايات المتحدة، ونشأ في أسرة بروتستانتية مسيحية، وأصبح واعظًا، حصل على شهادة ماجستير في الفنون سنة ١٩٧٤م، وشهادة الدكتوراة في علم اللاهوت، واعتنق الإسلام سنة ١٩٩١م هو وزوجته ووالدته، ثم تعلم بعدها اللغة العربية والدراسات الإسلامية من سنة ١٩٩١م إلى سنة ١٩٩٨م في مصر والمغرب وتركيا، ويعمل في مجال الدعوة في الولايات المتحدة، وله محاضرات بالإنجليزية.

نشأ الشيخ في بيت مسيحي ملتزم، وتعلم في ولاية تكساس لعائلة نصرانية شديدة الالتزام بالنصرانية تعيش في الغرب الأوسط لأمريكا، حتى إن آباءه وأجداده لم يبنوا الكنائس والمدارس فحسب، بل وهبوا أنفسهم لخدمة النصرانية، وكان يكره الإسلام والمسلمين؛ حيث إن الصورة التي وصلته وارتسمت في ذهنه عن المسلمين أنهم وثنيون، لا يؤمنون بالله، ويعبدون صندوقًا أسود في الصحراء (الكعبة المشرفة)، وأنهم همجيون وإرهابيون يقتلون من يخالف معتقدتهم.

وبعد تعامله مدة شهرين مع شخص مسلم مصري اسمه محمد عبدالرحمن، خلال إقامته مع أسرته، اكتشفوا من طريقة حياته ومعيشتهم ونظامه ومن خلال مناقشتهم معه أمورًا جديدة عليهم لم يكونوا يعلمونها عن المسلمين، وليست عندهم كنصاري.

وكان يوسف يجلس مع بعض القساوسة في البيت يحمل كل منهم نسخة مختلفة من الكتاب المقدس، ويتناقشون عن الاختلافات في العقيدة النصرانية، وفي الأناجيل المختلفة، على مائدة مستديرة، والمسلم يجلس معهم ويتعجب من اختلاف كتبهم.

فسألوا المسلم المصري: كم نسخة مختلفة من القرآن عندكم؟ فقال: ليس لدينا إلا نسخة واحدة، والقرآن موجود كما أنزل بلغته العربية منذ أكثر من ١٤٠٠ عامًا؛ فكان هذا الجواب كالصاعقة لهم.

أما إستس فكانت هناك أمور في الكتاب المقدس لم يصدقها؛ لأنه كان يرى التناقضات الكثيرة فيه، فمن تلك الأمور أنه كان يسأل نفسه وغيره: كيف يكون الإله واحداً وثلاثة في نفس الوقت، وقد سأل القسيسين المشهورين عالمياً عن ذلك، وأجابوه بأجوبة سخيفة جداً لا يمكن للعاقل أن يصدقها، وقال لهم: كيف يمكنني أن أكون داعية للنصرانية وأعلم الناس أن الإله واحد وثلاثة في نفس الوقت، وأنا غير مقتنع بذلك، فكيف أقنع غيري به؟!

ومن ثم زار إستس المراكز الإسلامية، فرأى وضوء المسلمين وصلاتهم، وبقي ينظر إليهم، ثم عاد إلى المنزل، وخرَّ على الأرض ساجداً تجاه القبلة، وقال: يا إلهي، اهدني، وشعر مباشرة بانسراح صدره للإسلام، وأعلن إسلامه. ويقول الشيخ إستس: أرى أن إسلامي كان بفضل الله، ثم بالقدوة الحسنة في ذلك المسلم الذي كان حسن الدعوة، وكان قبل ذلك حسن التعامل، وكما يقال عندنا: لا تُقُلْ لي، ولكن أرني.

ويلقي الشيخ إستس حفظه الله حتى الآن محاضراته في الجامعات والهيئات والمؤتمرات العامة لجميع الملل، وقد أعجب كثير من الناس بطريقة عرضه الصورة النقية المضيئة لأسرع الديانات انتشاراً في العالم (الإسلام)، وقد أسلم على يد الشيخ أناس كثيرون، مستخدماً لذلك طريقة تجمع بين الجدية والمرح حين إجابته على كثير من الهجمات الحادة على الإسلام والمسلمين.

٢. الفتاة الأمريكية شارون جون:

تحدّثت الفتاة الأمريكية شارون جون عن بداية حياتها مع أهلها، ومع الكنيسة والأنجيل والقساوسة، وأنها كانت فتاةً مشاكسة متمردة على الجميع، وحتى تحصل على الهدوء والطمأنينة طلبت من الله أن يرزقها رجلاً مسيحياً متديناً تزوجه، فساق الله لها رجلاً فلسطينياً مسلماً، قادها في النهاية

إلى الإسلام، بعد أن حاربت الإسلام وقرآنه، لكنّها تأثّرت بالقرآن بعد ذلك ودخلت في الإسلام.

٣. الدكتور لويس أميليو بلسوني - طبيب أسنان برازيلي -

ترجع قصّة تعرّفه على الإسلام إلى فترة دراسته في الجامعة في أوائل الثمانينات، وعلى الرغم من أنّه نشأ في عائلة مسيحية كاثوليكية حرصت منذ البدء على تربيته على مبادئ الديانة المسيحية من خلال النشاطات في الحي ومن خلال التحاقه بمدرسة ابتدائية كنسيّة، فإن ذلك لم يكن عائقاً أمام النور الربّانيّ الذي تسلّل إلى قلبه.

لقد هالَهُ (أفزعهُ) - عندما درَسَ في الجامعة مادةَ الفنون الجميلة - مقدارُ انتقالٍ كثيرٍ من الفنون الإسلامية في المعمار والهندسة إلى الثقافة الغربيّة، ثم عرف أن الثقافة الغربيّة قد نهَلَتْ كثيراً من المسلمين في مجالاتٍ أُخرى متعدّدة، تعرّف عليها بعد أن أخذَ بالقراءة في هذا الباب بشدّة يوماً بعد يوم، لقد أدرك منذ البداية أن الدّين الإسلامي هو سببُ ذلك التغيّر العميق في الحضارة الإنسانية على امتداد العصور.

فبعد دراسةٍ متعمّقةٍ ومتواصلةٍ امتدّت لعشر سنوات بعد تخرّجه من الجامعة، أراد أن يسلك طريقاً أكثرُ قرباً من الإسلام، فبحث عن مركز إسلامي في ضاحيته، وقرّر أن يدرس اللغة العربيّة ويعرف المزيد عن القرآن الكريم بلغة القرآن مباشرة، ولم تطلُ الفترة، ففي خلال ثلاثة أشهر فقط أعلن الدكتور لويس إسلامه، واختار أن يكونَ اسمُه مركّباً من اسم النبي ﷺ، فكان اسمُه (محمد أمين)، إنه لا يستطيع أن ينسى ذلك الشعور الذي هزّه عندما سمع الشيخ يقرأ القرآن قبل دخوله في الإسلام، على الرغم من أنه لم يكن يفهم اللغة العربيّة حينئذ، إلا أنّ القرآن الكريم كان يمسُّ جزءاً ما في روحه لقد أعلنها بسهولة: (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله)، وأصبح يحسُّ ويرى ويسمع ويشعر بكلّ ذرّة في كيانه بمعنى وحقيقة قوله تعالى في سورة الأحقاف:

﴿إِنِّي نَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٥)، ومنذ ذلك التاريخ بدأ يُعنى بتعليم نفسه وأسرته الإسلام، ويحاول أن يحفظ القرآن الكريم ويتعلم اللغة العربية.

وهناك الكثير أمثالهم من العلماء ورجال الدين والمشاهير الذين أسلموا بعد سماعهم وتفكرهم في محتوى القرآن الكريم.

هـ- تأثير القرآن في المسلمين:

إن الإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ، هو الدافع الأول الأقوى لسماع القرآن، ومن الآيات التي تظهر أثر استماع القرآن في المؤمنين، قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢)، وقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٥) ﴿نَتَجَافَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦)، والمعنى: من المسلمين - الذين يؤمنون إيمانًا حقيقيًا - مَنْ يوجَدُ منه شواهدُ الإيمان، وهم: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ بآياتِ ربهم فَتَلِيَتْ عليهم آياتُ القرآن، وأَتَتْهُمْ النصائحُ على أيدي رُسُلِ الله، ودُعُوا إلى التذَكُّر، سمعوها فقبلوها، وانقادوا، و (خَرُّوا سُجَّدًا)، أي: خاضعين لها، فَرِحِينَ بمعرفة الله، ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ مُتَوَاضِعِينَ لها، قد تَلَقَّوْهَا بالقبول، والتسليم، وقابلوها بالانشراح والتسليم، وتوصلوا بها إلى مَرَضَاةِ الرَّبِّ الرَّحِيمِ، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم.

وقال ابنُ كثير في تفسير: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: يُصَدِّقُ بها، الذين استمعوا لها وأطاعوها قولًا وفعلًا، وسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وهم لا يستكبرون عن اتِّباعها والانقياد لها، ﴿نَتَجَافَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾: يعني بذلك قيام الليل، وتَرْكُ النوم والاضطجاع على الفراش المريح، يدعون رَبَّهُمْ خَوْفًا مِنْ وَبَالِ عِقَابِهِ، وَطَمَعًا فِي جَزِيلِ ثَوَابِهِ، وتثبيتًا لإيمانهم.

مَن الذي يتأثر بالقرآن أكثر من غيره؟

يتأثر الإنسان عموماً (وليس بالضرورة المسلم) إذا أشرق قلبه، وشفّت روحه، وصفت نفسه، مثل هذا إذا استمع للقرآن (وفهم كلامه وتدبره) يستشعر أن كل آية وكل سورة تنبض بالسكينة والاطمئنان المعجز في هذا الكلام، وإن الكيان الإنساني ليَهْتَزُّ ويرتجف ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن، وكلما تفتح القلب وصفا الحس وارتفع الإدراك، ارتفعت حساسية التلقي والاستجابة. وإن هذه الظاهرة لترداد ووضوح كلما اتسعت ثقافة الإنسان، ومعرفته بهذا الكون، وما فيه، ومن فيه، ولماذا خلق! فليست هذه الظاهرة هي مجرد وهلة تأثيرية وجدانية غامضة، بل تظل في النفس كلما قرأ العبد أو سمع ووعى القرآن الكريم.

[٩-١٠] آيات من القرآن الكريم للراحة النفسية (التأثير الإيجابي):

جميعنا يتعرض للعديد من الضغوط النفسية التي تُسبب لنا الضيق والكدر في بعض الأوقات؛ لذا نحتاج قراءة وسماع وتدبر آيات من القرآن الكريم طلباً للراحة النفسية؛ لأن التقرب من الله هو أول الطرق التي تساعد على صلاح الحال، وتساعد على أن يكون الإنسان بحالة نفسية جيدة، فلا يمكننا أن نحقق ما نريد في هذه الحياة من سعادة أو نجاح ونحن بحالة نفسية سيئة، فلا بد أن نتخطى حالة القلق والتوتر والاكتئاب والخوف وأي شعور سيئ آخر يؤثر في حياتنا سلباً.

واللجوء للآيات القرآنية خير وسيلة للوصول للراحة النفسية المطلوبة؛ لذا هناك العديد من الآيات التي بينها العلماء، والتي تُعين على ذلك:

السورة الأولى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣ مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧﴾ (سورة الفاتحة).

إن سورة الفاتحة تساعد الإنسان على التخلص مما يُعكّر صفو حياته من مشاعر سلبية مختلفة، كالأحاساس بالتوتر والقلق والاكتئاب، وفيها يدعو الناس ربهم بصلاح الحال، وفيها يقول المؤمنون لله عز وجل: إنهم يستعينون به في كل أمور حياتهم، فلجؤ المؤمن لربه والتوكل عليه يُعين على اجتياز كل الصّعب، كما أنها عبادة لله عز وجل.

الآية الثانية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (سورة الرعد) وفيها يؤكد الله سبحانه وتعالى للمؤمنين أن ذكره تعالى واللجوء إليه سيريح القلب، ويضفي على النفس الصفاء والطمأنينة.

الآية الثالثة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۖ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (سورة الفتح)، فيها دليل واضح أن اللجوء إلى الله عز وجل عند الشعور بالضيق يُدخل على القلب السكينة والهدوء، فالله قادر على أن يُدخل على قلوبنا الراحة والسعادة.

الآيات الرابعة: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (سورة البقرة) لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به وأعف عنا وأغفر لنا وأرحمنا أنت مولانا فانضربنا على القوم الكافرين (سورة البقرة)، في هذه الآيات يدعو الناس ربهم أن يزيل عنهم الهم وما لا يقدرّون على تحمّله، ويرجون من الله أن يعفو عنهم ويغفر لهم جميع خطاياهم التي تُثقل القلوب بالذنوب، وتُسبب حالة من الكدر والضيق.

الآيات الخامسة: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (سورة البقرة)، في هذه الآيات يؤكد الله عز وجل على الناس أن من ابتلي بأيّ بلاءٍ

أو مصيبة أو مشاعر حزينة أو حالة نفسية سيئة عليه أن يترك الأمر لله، والله سيخلف عليه بصلاح الحال، ويُنزّل عليه رحماته، ويهديه.

الآية السادسة: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (سورة آل عمران)، فقول: «حسبي الله ونعم الوكيل» يعني الاستعانة بالله، فهو خير وكيل للإنسان، وهذه الآية تساعد في إزالة المشاكل أو الخوف أو القلق أو الظلم.

الآية السابعة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الأعراف)، في ذلك دعوة للمؤمنين أن يلجؤوا إلى طريق الله، ويقرأوا آياته ويتدبروها، حتى يتخلصوا من أي هم يضيق بصدورهم، فالتقرب إلى الله يخلص المؤمنين من الشعور بالحزن والضيق.

السورة الثامنة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۖ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (سورة الشرح)، هذه الآيات تعني أن الله تعالى قادر على أن يفرج الحزن والهم عن القلب، ويزيل كل المشاعر السلبية التي قد تؤذي الإنسان، ويوصي الله الإنسان بأن يصبر؛ فإن العسر يليه اليسر لا محالة.

الآية التاسعة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (سورة الإسراء)، تعني هذه الآية أن القرآن أقوى شفاء للقلوب، فمثلُه كمثل الدواء الذي نتناوله للتخلص مما يؤذينا، والقرآن خير علاج نفسي يلجأ إليه الإنسان ليتخلص من كل المشاكل التي تسبب له حالة نفسية سيئة.

الآية العاشرة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ (سورة النحل)، تدعو الآية إلى القيام بالأعمال الصالحة التي يغفر

الله بها الذنوب التي هي السبب الأكبر في الشعور بالتوتر والقلق والخوف، وعلى المؤمن أن يؤقن بأنَّ وَعَدَ الله حقَّ، وأن من يعمل الصالحات سيعيش حياة سعيدة.

الآية الحادية عشر: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (سورة فاطر)، تعني هذه الآية أن الله قادر على أن يزيل الضيق من القلوب، فبمجرد ذكر الله واللجوء إليه تتحسن صحة الإنسان النفسية، فالتقرب إلى الله بالدعاء والحمد والشكر يجعل الإنسان هادئاً مطمئناً.

الآية الثانية عشر: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الزمر)، تدعو هذه الآية مَنْ ضاقت به الدنيا وكثرت أحزانه وهمومه إلى أن لا يحزن، فمهما أذنب فإن الله غفور رحيم، وعليه التفاؤل وعدم التشاؤم، ودعاء الله له بالفرج والتوبة؛ لأن الله تعالى قال في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (سورة البقرة).

الوقت المستحب لقراءة الآيات التي تُحسِّن من الحالة النفسية:

نعلم جميعاً أن آيات القرآن يمكن قراءتها في أي وقت في اليوم، وحين الحاجة إليها، ولكن الوقت المستحب هو بعد صلاة الفجر مباشرة؛ لأن هذا الوقت يبعث في النفس التفاؤل والسعادة والراحة النفسية، وكذلك قبل النوم، والله أعلم.



[١١] الإعجاز الغيبي في القرآن (والسنة):

مقدمة:

من المواضيع التي يتناولها القرآن والسنة كمواضيع علمية تاريخية تتعلق بالحقائق الكونية التي لم تكن مُدْرَكَةً للبشر في زمن نزول القرآن، ثم أثبتها العلم الحديث تعد من: «الإعجاز الغيبي»، وقد صَنَّفَهَا بعض العلماء باسم «الإعجاز التاريخي»، (وبعض العلماء جعل كلا منهما إعجازاً خاصاً)، والأمور الغيبية هي من الأمور التي اختَصَّ بها الله تعالى لنفسه، حيث قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ...﴾ (٥٩)، وحتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يعلمون من الغيب إلا ما أخبرهم به الله؛ ليكون ذلك دليلاً على صدق نبوتهم ورسالتهم، قال تعالى في سورة الجن: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٦١) ﴿إِلَّا مَن أَرَادَ مِن رَّسُولِي...﴾ (٢٧)، لذلك جاءت الأخبار الغيبية في القرآن تُخبر النبي ﷺ وتُطْلِعُهُ على الغيب، من ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ؛ لتؤيِّد رسالته وتُصدِّق دعوته، وهي كثيرة، فقد أخبر القرآن الكريم (وأخبرت السنة الشريفة) عن:

أولاً: الحضارات الماضية، وذكر أحداثاً وأممًا وشخصياتٍ وأماكنٍ تاريخية غابت عن النبي ﷺ وقومه مما لم يشهده من حوادث وقعت في العصور السابقة، فلم يكونوا على علم بتفاصيلها.

ثانياً: ما سيحدث في عصر الرسول ﷺ خلال حياته، ولم يكن يعلمها قبل حدوثها وحدثت فعلاً في حياة النبي ﷺ لاحقاً.

ثالثاً: ما سيحدث في المستقبل (بعد وفاة الرسول ﷺ)، وقد حدث بعضها وتحقق، وثمة أمور أخرى لم يحن وقتها بعد.

[١-١١] لماذا سرّد تاريخ الأمم السابقة:

اهتمَّ القرآن الكريم بسرد تاريخ الأمم السابقة؛ إمعاناً في تحديده للمعارضين له، فيخبر عن حياة أناس عاشوا من آلاف السنين، بصورة موثقة وبدقة متناهية، لا يصل إليها المؤرّخون مهما أوتوا من أدلة مادية.

وقد نوّع القرآن الكريم في عرض تاريخ الأمم السابقة، وأوضح أن الحكمة من هذه القصص أكبر أثراً، وأشمل حكمة من مجرد التسلية وملء الفراغ، فقد قال تعالى في سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٣).

فالإعجاز التاريخي إذا جاز التعبير - وهو من الغيب كما ذكره السيوطي^(١) رحمه الله - هو ما انطوى عليه من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة، فيؤرّده رسول الله ﷺ على كما وقع، وهو أمّي لا يقرأ ولا يكتب، وكان لا يعلم القصة الواحدة إلا الفذ (الفريد والقليل) من أحبار أهل الكتاب، الذي قطع عمره في تعلم ذلك، ومعظمهم كانوا من أعداء رسول الله ﷺ؛ فلا يُعقل أنهم قد أخبروه بها قبلاً.

١. جلال الدين الخضير السيوطي المشهور باسم جلال الدين السيوطي، إمام حافظ، ومفسر، ومؤرخ، وأديب، وفقه شافعي، له نحو ٦٠٠ مصنف، نشأ في القاهرة يتيماً؛ إذ مات والده وعمره خمس سنوات، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وخلا بنفسه في روضة المقياس، على النيل، منزوياً عن أصحابه جميعاً، فألف أكثر كتبه، وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها، وطلبه السلطان مراراً فلم يحضر إليه، وأرسل إليه هدايا فردها، وبقي على ذلك إلى أن توفي، وكان يلقب بـ«ابن الكتب»؛ لأن أباه طلب من أمه أن تأتيه بكتاب، ففاجأها المخاض، فولدته وهي بين الكتب (ت: ١٥٠٥م).

فالإنسان هو الإنسان، لن تتغيّر طبيعته، ولن يتبدّل جَوْهْرُهُ؛ لذلك فقد حفظ القرآن قصصَ الأوّلين مع أنبيائهم، وجدّد على الناس ذِكْرَها بَعْدَما طَوّت الليالي أصحابها، ليداوي بها عللاً مُتَشَعِّبة، ولتُحْصِي جملةً كبيرة من الأمراض الاجتماعيّة، وتستأصل جرثومتها بصنوف العبرِ وشَتَى النُّذُرِ.

هذا وقد وَجَّه القرآن الكريم (وسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام)، الإنسانَ للبحث وَفَقَّ منهج متكامل في علم التاريخ من خلال:

- الحثُّ على السير في الأرض، والبحثِ عن الآثار المادية للحضارات الإنسانية السابقة، فلولا تلك الآثار ما كان يستطيع العلماء الوصولُ إلى الشواهد التاريخية وإدراكِ السُّنَنِ الكونية التي تتحكم في تقرير مصير التجمّعات البشرية؛ فأورد قصص الأنبياء للتذكّرة والعبرة، ولمعرفة الماضي بصورة عامة، وأورد أماكن وجودهم في إشارات سريعة ولكنها مُضِيَّةٌ، وأورد مصيرَ حضاراتهم بحسب طبيعة معاملتهم لتوجيهات السماء، ففي الأردن - مثلاً - أثبتت الحفريات أنها كانت منطقة زلازل راح ضحيتها أقوامٌ من السابقين هم قوم سيدنا لوط عليه السلام، كما أثبت القرآن الكريم، وكذلك فرعونُ سيدنا موسى عليه السلام، بقيت جُثَّتُه لتكون آية لِمَنْ بَعْدَه، وما يزال يراها الناس في المتاحف في مصر وغيرها.

- الحثُّ على السير في الأرض، والبحثِ عن الأماكن الدالة على آثار بداية الخلق، فقد حدّد القرآن الكريم منهج السير في الأرض، وجعله شرطاً أساسياً للبحث في هذا الموضوع، قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ...﴾ (٢٠)، وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضْداً﴾ (٥١).

لقد شكّل السيرُ في الأرض المنهجَ العلميَّ المتَّبِعَ في العصر الحديث عند أكبر المؤثّرين في الفكر الحديث، واعتمدَ كل واحدٍ منهم - دون استثناء - السيرَ في الأرض، والبحثِ عن الأماكن الدالة على آثار المخلوقات

المتنوعة؛ ليجمع المعلومات من مناطق متفرقة، لتشكيل رؤية علمية عن بداية الخلق ومنها:

- المغارات المتشكلة بعمليات التجمُّد والذوبان.
- الكهوف المتشكلة بعد تفكُّك كربونات الكالسيوم.
- مواقع المتحجِّرات التي تحتوي على حفريات لها قيمة ملحوظة لطبقات الأرض.
- آثار الإنسان القديم والحيوانات المتحجرة.
- مواطن التَّمَعُّدُ التي تحتوي على العديد من أصناف المعادن التي تحظى باهتمام استثنائي بالنسبة لتكوينها وأهميتها متعلقة بعلم البلورات البترولوجية أو الجمالية أو التاريخية.
- مواطن سلسلة الصخور والرواسب، التي تمكِّن من إعادة تشكيل التاريخ الجيولوجي ودراساتها؛ لما لها من اهتمام استثنائي بالنسبة لتكوينها الطبقي، البنائي، الهيكلي، والتاريخي.
- الأمكنة التي تختص باحتوائها على مجموعة من الصخور والرسوبيات ذات خصائص معينة، وتكون مأوى العديد من الأنواع النباتية والحيوانية المهددة بالانقراض.
- الأماكن الناشئة عن آثار سقوط النيازك على الأرض.

وبهذا سبق القرآن الكريم العلم الحديث في تنظيم البحث العلمي في هذا الميدان وطرد الخرافة عنه، قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وجعل منهج السير في الأرض شرطاً أساساً للبحث في هذا الموضوع.

[٢-١١] انسجام الرؤية القرآنية (التاريخية) لظهور الحياة، مع التفسير العلمي:

تنسجم الرؤية القرآنية في تفسيرها لظهور الحياة انسجامًا تامًا مع التفسير العلمي الحديث لتكوين وخلق الأرض والسموات، وظهور الحياة.

لقد أثبتت الدراسات الحديثة أن للخلق بداية، حيث ظهرت أول بكتيريا منذ حوالي (٥, ٣) مليار سنة، وارتبطت بظهور الماء، إذن، فالخلق ليس أزليًا (دائم الوجود لا بدء له) كما كانت تدعي نظريات التطور، حيث تتفق جميع الدراسات الحديثة في أن ظهور الحياة فوق الأرض ارتبط بظهور الماء بعد مرحلة تشكّل الأرض، وبعد مرحلة التبريد التي خضعت لها، فاستقرار الماء على الأرض لم يكن محض الصدفة، لكن كان وفقًا لحسابات ووفقًا لشروطٍ تتالت وتوفرت بصفة مذهلة ومعجزة من الخالق سبحانه، الذي جعل الأرض مهيأة لاستقبال الماء واستقراره فيها، دون غيرها من الكواكب السيّارة الأخرى، فمَجِيء الماء مباشرة بعد تشكّل الأرض مَكَّنَهَا من التبرّد، ومكّن الحياة من الظهور حسب الترتيب المنطقي والتاريخي والعلمي الذي ذكرته الآية الكريمة في سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَنَقْنَهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

فالإعجاز التاريخي في القرآن:

- مرتبط بالآثار المادية للحضارات من جهة.
- ومرتبط أيضًا بضرورة وجود وازع إيمانيّ عند قراءة تلك الآثار.
- واعتبار تلك الآثار ملكًا للبشرية، وأن البشر مطالبون بالمحافظة عليها ماديًا وثقافيًا؛ لأن تلك الآثار دليل على صدق القرآن الإعجازي.

كما أن الإعجاز التاريخي (الغيبي) في القرآن (والحديث النبوي) يرتبط بالمستقبل البشري، فقد وضع القرآنُ محدّداتٍ لمستقبل البشرية والكونِ بأسره، وأكّد وراثته الأرض للعباد الصالحين، وحدد معالمَ يوم القيامة والآخرة، وتنبأ القرآنُ أيضًا بمستقبل الأمم الحالية، وأكّد أن الأرض ستشهد حروبًا دامية، يعقبها سلام دائم، والله أعلم.

[٣-١١] المنهج القرآني (الرياضي) في رؤيته التاريخية:

إن المنهج القرآني يختلف عن المنهج التاريخي البشري التفصيلي في رؤيته التاريخية وفلسفته الإيمانية، وإن كان يتفق معه في عمليّته؛ ففي المنهج القرآني الدقيق تغدو عملية (التأريخ) علمًا كالرياضيات والكيمياء والفيزياء.

فطريقة القرآن الكريم في التأريخ أنه عندما يروي واقعة تاريخية فإنه لا يحفل كثيرًا بذكر التفاصيل التي قد تشوش رؤية السّنن التي تحكّم التأريخ، بل يكتفي بذكر ما يخدم في استنباط تلك السّنن، وهو في الغالب لا يذكر تاريخ الواقعة (سنة أو وقت وقوعها)، ويركّز على ذكر الخطوط العريضة للواقعة حتى يصوغها في النهاية على شكل معادلة رياضية تصلح للتطبيق على الوقائع، وبهذا المنهج القرآني الدقيق تغدو عملية (التأريخ) علمًا كالرياضيات والكيمياء والفيزياء، فهي تقدم لنا التأريخ بصورة قوانين قابلة للتسخير؛ مما يعيننا على توجيه الأحداث، والتحضير الإيجابي للمستقبل الذي نريد.

ومن الأمثلة على هذا المنهج الفريد في التأريخ حديثُ القرآن الكريم في سورة الكهف عن أصحاب الكهف، فمن هم أولئك الفتية؟ ومتى وقعت قصتهم؟ وأين يقع الكهف الذي آواهم؟ وكم كان عددهم؟ ومن هو الملك الظالم الذي فروا بدينهم منه؟ كل هذه الأسئلة وغيرها لا يتوقف القرآن الكريم عندها، بل يمضي لبيان العبرة من القصة، دون أن يحفل بالتفاصيل التي لا تقدّم ولا تؤخّر.

ومن الأمثلة على هذا المنهج أيضًا ما جاء في القرآن الكريم في سورة البقرة: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ... ﴿٢٥٩﴾﴾، فمن هو الذي مرَّ؟ وما اسم القرية التي مرَّ عليها؟ ومتى كان مُروره؟ كل هذه التفاصيل لا يحفل القرآن الكريم بها، بل يتوجه لذكر الخطوط الرئيسة للواقعة؛ لإظهار السُنن الإلهية التي تحكمها وكذلك العبرة منها.

ومن خلال هذه الأمثلة وغيرها، يظهر لنا الفارق الأهم بين المنهج القرآني في التاريخ، ومنهج المؤرخين، الذين يكتفون - عادةً - بسرِّد الوقائع، ويُسهِّبون في ذكر التفاصيل - ويرجحون سنة حدوثها-، ولا يحفلون - من قريب ولا من بعيد - ببيان السُنن الإلهية التي تحكِّم مسيرة الأحداث والعبر، مما يُضيِّع علينا الغاية الأهم التي يفترض أن نجنيها من مُطالعة كتب التاريخ. كما أن كتابة التاريخ من البشر عادة ما تكون من وجهة نظر كاتبه الذي يكون غالبًا متأثرًا بمؤثرات غير موضوعية وغالبًا تكون وجهة نظر المتنصر وبالتالي فإنها قد تكون بعيدة عن الحقيقة.

ومن الملاحظات الجديرة بالتوقُّف عندها أيضًا - ونحن نستعرض الطريقة الفريدة التي ينتهجها القرآن الكريم في التاريخ - أنه لا يكتفي بذكر الوقائع مجردة عن الظلال المؤجِّية التي تصاحبها، بل يسهِّل السردَ بافتتاحية يمهِّد فيها للحديث عن الواقعة، ثم يرسم الحركة التي وقعت بكل تفاصيلها، ويرسم معها المشاعر الظاهرة والباطنة، ويسلِّط عليها الأضواء التي تكشف زواياها وخباياها، ثم يقول للمؤمنين حُكمه على ما وَقَعَ، ونَقْدَه لما فيه من خطأ وانحراف، وثنائه على ما فيه من صواب واستقامة، وتوجيهه لتدارك الخطأ والانحراف، وتنمية الصواب والاستقامة، وربطَ هذا كله بقَدَرِ الله وإرادته وعلمه ونهجه المستقيم، ويفطره النفس ونواميس (قوانين وسنن) الوجود؛ وذلك لأنَّ التاريخ بمنظور القرآن الكريم ليس مجرد أقاصيص

تُحَكِّي، ولا هو مجردُ تسجيل باردٍ للوقائع والأحداث، وإنما هو وجبةٌ روحيةٌ حيَّةٌ نتلقاها للدراسة والعبرة والتربية، قال تعالى في سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ...﴾ (١١١)، وفي سورة الأعراف: ﴿...فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦)، وقد تنبَّهت الأممُ الحيَّةُ إلى هذه السِّمةِ في التاريخ، فأصبحت تُعدُّ دراسةَ التاريخ من دروس التربية للأمة، فنجدها تصوغه بصورة يؤدِّي مهمةً تربويَّةً في حياتها.

ومما تجدرُّ ملاحظتهُ أيضًا أنَّ النصوصَ التي وردت في القرآن الكريم عن مستقبلِ هذا الوجودِ قد وردت بصيغٍ مجمَّلةٍ، ولكنها تُعطي دلالاتٍ هامةً في تحديد السلوك البشري المستقبلي، كما أنَّ القرآن جاء به إشاراتٌ شُبِّهَ صريحةٌ حول مستقبل بعض الأمم، مثل الأمة اليهودية، والمرتبطة بمستقبل باقي الأمم، فإنه يمكنُ تحديدُ مسارِ مستقبل الأمم حسب الوجهة القرآنية، وليس في القرآن إشاراتٌ عنصرية تجاه اليهود، ولكنه يحدد مستقبلهم طبقاً لقانونٍ قرآنيٍّ مُعْجِزٍ وفريدٍ نكتب عنه، وأيضاً ثمةَ ملاحظةٌ مهمةٌ جداً نوذُّ التوقفَ عندها، وهي أنَّ ما يقع في زمنٍ مُعيَّن من أحداثٍ ينبغي أن لا نُصدِرَ عليه حُكماً نهائياً مُبرماً بأنه خطأ أو صواب، خيرٌ أو شرٌّ، إلا بعد مُضيِّ فترةٍ كافيةٍ من الزمن، وظهورِ مؤشِّراتٍ أكيدةٍ على اختتام الحدث، وعدم بقاء أية متعلقات به؛ وذلك لأنَّ الحدث أشبه بالصوت الذي قد لا يصلُّنا صدهُ إلا بعد فترة من الزمن قد تطول وقد تقصُر، وكذلك هي معظمُ أحداثِ التاريخ، فقد لا تظهر نتائجُها النهائيةُ إلا بعد أمدٍ طويل قد يستغرق أجيالاً طويلةً، وجعبةُ التاريخ مليئةٌ بمثل هذه الأحداث، فبِوادرِ انهيارِ الخلافةِ العُثمانية - مثلاً - بدأتْ قبل قرنين من سُقوطِها الفعليِّ، والاتحادُ السوفيتي لاحتْ بوادرُ سُقوطِهِ قبل عشرين عاماً - على الأقل - من إعلان سُقوطِهِ الرِّسميِّ، وجَسَدُ نبيِّ الله سليمانَ عليه السلامُ بقي فترةً طويلةً من الزمن قبل أن يكتشفَ الجنُّ أنه قد فارق الحياة، وهكذا هي جولات التاريخ؛ فإن نهايةَ الحدثِ أو نتيجتهُ قد تتأخَّرُ كثيراً عن بدايته.

وَيُعَلِّمُنَا التَّارِيخُ أَيْضًا أَنْ لَا نَتَعَجَّلَ بِالْحُكْمِ عَلَى رَجَاحَةِ بَعْضِ الْقَرَارَاتِ أَوْ فَشْلِهَا قَبْلَ أَنْ نُعْطِيَهَا مَا تَسْتَحِقُّهُ مِنَ الزَّمَنِ، فَكَمْ مِنْ قَرَارَاتٍ اتُّخِذَتْ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ فَأَيَّدَهَا النَّاسُ أَشَدَّ التَّأْيِيدِ، وَتَحَمَّسُوا لَهَا غَايَةَ الْحِمَاسَةِ، وَلَكِنَّهَا بَعْدَ حِينٍ مِنَ الزَّمَنِ عَادَتْ بِأَفْذَحِ الْخَسَائِرِ وَالنَّكَبَاتِ، وَكَمْ - بِالْمُقَابِلِ - مِنْ قَرَارَاتٍ عَارَضَهَا النَّاسُ فِي حِينِهَا مَعَارِضَةً شَدِيدَةً، أَوْ حَكَمُوا عَلَيْهَا بِالْفَشْلِ الذَّرِيعِ، وَلَكِنَّهَا بَعْدَ حِينٍ مِنَ الزَّمَنِ أَثْمَرَتْ أَفْضَلَ النَّتَائِجِ، وَلَيْسَ صُلْحُ الْحَدِيثِيَّةِ - الَّذِي أَبْرَمَهُ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ مَعَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ - إِلَّا مِثَالًا وَاحِدًا عَلَى مَا نَقُولُ، فَقَدْ عَارَضَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمُ هَذَا الصُّلْحَ بِشِدَّةٍ لِمَا رَأَوْا فِيهِ مِنْ غَمَظٍ لِحَقْوَقِهِمْ، لَكِنَّ الْأَيَّامَ أَثَبَّتَتْ أَنَّ الصُّلْحَ كَانَ فَتْحًا كَبِيرًا لِلإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ أَظْهَرَ الصُّلْحُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَيْسُوا دُعَاةَ حَرْبٍ وَقَتْلٍ وَدِمَارٍ، بَلْ دُعَاةُ سَلَامٍ وَخَيْرٍ وَمَحَبَّةٍ، كَمَا هِيَ الصُّلْحُ جَوًّا مِنَ الْهُدُوءِ وَالْأَمَانِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَعْدَائِهِمْ، مَا جَعَلَ الْكَثِيرِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ يُعِيدُونَ حِسَابَاتِهِمْ وَيُرَاجِعُونَ مَوَاقِفَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، فَمَا لَتْ قُلُوبُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ لِلدِّينِ الْجَدِيدِ، وَدَخَلُوا فِيهِ، وَبِهَذَا قَوِيَتْ شَوْكَةُ الْمُسْلِمِينَ، وَتَوَسَّعَتْ دَائِرَةُ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَمُضِ عَامَانِ عَلَى الصُّلْحِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَكَّةَ سَلْمًا بَغَيْرِ حَرْبٍ وَلَا دِمَاءٍ، وَرَاحَ النَّاسُ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا... وَهَكَذَا، فَإِنَّ مَا يَتَرَاى لَنَا فِي اللَّحْظَةِ الرَّاهِنَةِ أَنَّهُ انْتِصَارٌ كَبِيرٌ، قَدْ يَكُونُ عَلَى الْمَدَى الْبَعِيدِ هَزِيمَةً مُنْكَرَةً، وَمَا يَلُوحُ لَنَا هَزِيمَةً مُخْزِيَةً قَدْ يَظْهَرُ بَعْدَ حِينٍ مِنَ الزَّمَنِ أَنَّهُ هُوَ الْإِنتِصَارُ الْحَقِيقِيُّ، وَهَذِهِ السَّيِّئَةُ مِنَ سِمَاتِ التَّارِيخِ تَدُلُّ دَلَالَةً دَامِغَةً عَلَى أَنَّ التَّارِيخَ لَا يَسِيرُ بِصُورَةٍ عَشَوَانِيَّةٍ، بَلْ تَرَعَاهُ الْعَنَاءَةُ الْإِلَهِيَّةُ، الَّتِي لَهَا - وَحَدَّهَا - الْقُدْرَةُ عَلَى التَّحَكُّمِ بِالنَّتَائِجِ وَالنَّهَايَاتِ، وَالَّتِي يَبْدُو جَلِيلًا أَنَّهَا وَضَعَتْ لِلتَّارِيخِ مَسَارًا مُحَدَّدًا لَا يَخْرُجُ عَنْهُ قَيْدَ أَنْمَلَةٍ، وَلَعَلَّ أَجْمَلَ مَا أَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى مَا كَتَبَهُ الْأَدِيبُ الرَّوسِيُّ الْكَبِيرُ «لِيُو تُولَسْتَوِي»^(١)

١. الكونت ليف نيكولا تولستوي: من عمالقة الروائيين الروس، ومصلح اجتماعي، وداعية سلام، ومفكر أخلاقي، وعضو مؤثر في أسرة تولستوي. يعد من أعمدة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر، والبعض يعده من أعظم الروائيين على الإطلاق (ت: ١٩١٠م).

في روايته الشهيرة (الحرب والسلام)، إذ كتب يقول: «إنَّ الأفراد ليسوا سِوَى أدواتٍ طَيِّعَةٍ في يَدِ التاريخ، يُنفَّذُونَ الأهدافَ المَخْفِيَّةَ عنهم، والعنايةُ الإلهيةُ تدفعُ هؤلاءَ الناسَ، كُلاًّ منهم على حِدَةٍ، لكي يصلُّوا إلى غاياتهم الشخصية، لكنَّ هذه الغاياتِ المتفرِّقة تجتمع بعضُها مع بعضٍ لكي تُحقِّقَ غايةً عظيمةً جدًّا تختلف عن كلِّ توقُّعاتهم».

وهناك أمثلةٌ كثيرةٌ على ذلك في قصة نبيِّ الله يوسف عليه السلام مع إخوته، فقد تحايل إخوته على أبيهم حتى يرسل معهم يوسف في رحلتهم إلى مصر بحجة الحصول على المزيد من التجارة والربح، وكانوا قد أضَمروا في أنفسهم التخلُّص منه؛ لما يَرون من مكانته من أبيه، وبالفعل، ألقوه في غيابة الجُبِّ، واعتقدوا أنهم تخلَّصوا منه إلى غير رجعة، ولم يَدُر في خلدِهم أنَّ فعلتهم تلك سوف تنقلبُ ضدَّهم، وأنهم بتلك الفِعلَةِ وضعوا يوسف عليه السلام على أوَّل الطريقِ إلى المجد، وإلى ما هنالك من الحوادث في بداياتها ونهاياتها خلال حياة سيدنا يوسف عليه السلام.

[٤- ١١] من الإعجاز التاريخي الماضوي في القرآن (والسُّنة)، (الأخبار الغيبية الماضية):

من دلائل الإعجاز القرآني عندما يتحدَّث عن الأمم السابقة - المؤمنة منها والكافرة - أنه يُورِدُ القصةَ الواحدةَ في عدد من السُّورِ القرآنية، وفي كلِّ مرَّةٍ نجدهُ يأخذُ جانباً وزاويةً مختلفةً، ولكن في إطارٍ واحدٍ يتناسب مع السورة، فمثلاً:

[أ] طَلَبَ اللهُ تعالى من الإنسان السَّيرَ في الأرض لمعرفة عاقبة المُكذِّبين بالأنبياء والرسُل، وهذه المعرفة من خلال الآثار الباقية الدالة عليهم، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١١)، وقال تعالى في سورة الروم: ﴿قُلْ سِيرُوا

فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ

﴿٤٢﴾، في هذه الآيات تحقيقٌ للوعيد الذي توعدَّ الله به المشركين من العرب المكذِّبين برسالة محمد ﷺ، وذلك من خلال الاستدلالِ بمَصَارِعِ الأَقْوَامِ السابقين، وبما حلَّ بهم من الدمار والهلاك، كمَصَارِعِ ثمودَ في شمال جزيرة العرب، ومصارِعِ عادٍ في جنوب جزيرة العرب، وكِلَا الموقعين كانا على طريق قريش في تجارتها إلى الشام واليمن؛ لما في هذه الرؤية من الاعتبار والاستبصار والخوف من أن يحلَّ بنا ما حلَّ بهم إن نحن سِرْنَا على منوالهم ونَهَجْنَا نَهَجَهُمْ، وهذه الآية كقوله تعالى في مطلع سورة الأنعام: ﴿الْمُرِءُوا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، وكذلك قوله تعالى في سورة يس: ﴿الْمُرِءُوا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾. ﴿٢١﴾.

وقد جاء في القرآن الكريم أكثر من مائة موضع أثريٍّ، سواء أكانت هذه الآثار متعلِّقةً بالمؤمنين أم كانت متعلِّقةً بالكافرين المكذِّبين الذين أهلكهم الله بذنوبهم، والنظرُ في الآثار يؤدِّي وظيفةً إيمانية، وهي «الاعتبار» بما كان في الأمم السابقة، وفيه دلالة على إعجاز القرآن، وأنَّه كلامُ الله؛ لأنَّه يُخَبِّرُ عن غيب لم يحصلُ في زمن نزول القرآن، وإنما قَبْلَهُ بآلاف السنين، وتلك الأحداثُ والوقائعُ التاريخية عن الماضي من الأمم تُثَبِّتُ أنَّ للكونِ إلهاً واحداً، أرسلَ رُسُلَهُ بالهُدَى ودين الحقِّ، وهو الذي يحدِّد مصيرَ الشعوب وأقدارَ الحضارات. ولهذه الأحداثُ التاريخية أهميَّتها؛ إذ بيَّن الله في بعض ما جاء في القرآن الكريم عن آثار السابقين، وأنَّ الكَمَّ الكبير من تلك الآثار القديمة مازالت باقية حتى اليوم، وهو ما أثبتَّه العلم الحديث الخاصُّ بالآثار والاكتشافات الأثرية والحفريات والأبحاث الأكاديمية.

[ب] إنَّ ما ورد في القرآن - وما جاء في السنة المطهرة الشارحة ببعض التفصيل للقصة القرآنية - لم يَكُنْ يَعْرِفُه النبي ﷺ، علماً أنَّ الكثير مما ورد في القرآن جاء في التوراة، ولكنَّ مع تصحيح بعض القصص المحرَّفة، بالإضافة إلى أنه في الرؤية الأخيرة والهدف البعيد للقصة نجدُ القرآن يذكر بعضَ التفاصيل في دقَّة وإيجازٍ رائع، ومن الأمثلة على هذا النوع من الإعجاز عن إخبار القرآن الكريم ببعض التفصيل:

[١] قصة «نوح» عليه السلام، وقد جاءت مُفصَّلة، بدايةً من دعوته لقومه ألفَ سنةٍ إلَّا خمسينَ عاماً مع قِلَّةِ المؤمنين به، ومُروراً برحلة التكذيب الكبيرة التي قادها كُبراءُ قومه، إلى صناعة السفينة وركوب المؤمنين معه، وقصة الطوفان العظيم، وغرق ابنه وزوجته، واستقرار الأمر بعد ذلك بسيدنا نوح عليه السلام ومَنْ آمَنَ معه... كيف علِمَ رسولُ الله ﷺ كلَّ هذه التفاصيل التي جاءت أطرافٌ منها في كُتُب أهل الكتاب، ولم تأتِ أطرافٌ أخرى منها؟! ولكنَّ رسولَ الله محمدًا ﷺ أخبر بها على وجه اليقين؛ لذلك يختم ربُّنا قصة سيدنا نوح عليه السلام بقوله في سورة هود: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَنِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ (٤٩)، فهذا التاريخ المُحكَّم في قصَّة من جملة قصص القرآن الكريم، يُدَلِّل على أنَّ القرآن الكريم مُعْجَزٌ في توثيقه التاريخي، ويُنَبِّئُ عليه فائدةٌ تقوم على تأديب النفوس، وسياسة الجماعات.

[٢] قصة النبي «موسى» عليه السلام مع فرعون، وحتى هروبه مع الذين آمنوا معه، حيث ذُكرت هذه القصة في أكثر من سورة، قد خُتمت القصة في سورة يونس بقول الله تعالى لفرعون: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (١٢).

[٣] اسم «هامان»: لقد ذُكر اسمُ «هامان» في القرآن الكريم متّصلاً باسم فرعون موسى، على أنّه من المقرّبين إليه، قال تعالى على لسان فرعون في سورة القصص: ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣٨)، وتخالّف صورة هامان في القرآن الكريم الصورة التي ظهر بها في أحد كتب العهد القديم (التوراة)، حيث ظهر كمساعد لملك بابل (في العراق)، وأوقع الضرر الكبير ببني إسرائيل، وقد حدث هذا بعد سيدنا موسى بحوالى ألف ومائة سنة، وقد أثبتت الاكتشافات الفرعونية صحة ما جاء به القرآن الكريم، فمن خلال الكتابات والنقوش الهيروغليفية تمّ التعرف على معلومةٍ مهمّةٍ جدًّا، وهي أن اسم هامان ورد فعلاً في الكتابات المصرية القديمة، حيث يوجد اسمه على حجر موجود حالياً في متحف هوف بفيينا، كما ورد اسمه كذلك في معجم أسماء الأشخاص في الإمبراطورية الجديدة Personal names of the New Empire Dictionary of الذي تمت كتابته اعتماداً على المعلومات الواردة في جميع الألواح والأحجار المصرية، وظهرت وظيفته، وأنه كان مهندساً مسؤولاً عن عمّال مقالع الأحجار.

[٤] قصة سيدنا «يوسف» عليه السلام، وهي من أحسن القصص، كما وردت في سورة يوسف في (١٠١ آية) من أصل (١١١ آية)، وهو العدد الإجمالي للسورة، ثم قال الله تعالى فيها موجّهاً كلامه لسيدنا محمد ﷺ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (١٠٢).

[٥] لَقَبُ «ملك» على حاكم مصر في عهد سيدنا يوسف عليه السلام: أطلق القرآن لقب «ملك» على حاكم مصر في عهد سيدنا يوسف عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ...﴾ (٤٣)، بينما أطلقت التوراة على نفس الحاكم لقب فرعون، والسبب في عدم إطلاق القرآن لقب فرعون على حاكم مصر في عهد سيدنا يوسف عليه السلام أن لقب «برعو»

(وهو أصل لقب فرعون) لم يكن يطلق على حاكم مصر نفسه في ذلك العصر، بل كان يعني (القصر الملكي)، ولم يبدأ إطلاقاً هذا اللقب على حاكم مصر إلا بعد عصر سيدنا يوسف عليه السلام بما لا يقل عن مائتي سنة، وهكذا ففي العصر الذي عاش فيه سيدنا يوسف عليه السلام كان لقب «فرعون» يطلق على حاكم مصر، وبذلك يتجلى الإعجاز التاريخي للقرآن الكريم، الذي كان دقيقاً حين لم يستخدم لقب «فرعون» إلا مع حاكم مصر في عهد سيدنا موسى عليه السلام، في حين عمّمت التوراة استخدام لقب فرعون على حاكم مصر في عصر كل من الأنبياء: سيدنا إبراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام، رغم أن المصريين لم يستخدموه للدلالة على حاكم مصر في الزمن الذي عاش فيه كل من سيدنا إبراهيم وسيدنا يوسف عليهم السلام.

[٦] قصة السيدة مريم عليها السلام: أخبر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ عن أخبار السيدة مريم عليها السلام في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْهُمْ أَيْهَمُ يَكْفُلْ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾^(١)، [ذَلِكَ: المذكور من أمر زكريا ومريم، مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ: أخبار ما غاب عنك، نُوحِيهِ إِلَيْكَ: يا محمد، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْهُمْ: في الماء يقترعون ليظهر لهم، أَيْهَمُ يَكْفُلْ: يربي مريم، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ: في كفالتها، فتعرف ذلك فتخبر به، وإنما عرفته من جهة الوحي].

ونختم بمقولة رائعة للفخر «الرازي»^(١) يقول فيها: «إن هذه القصص دالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأنه ﷺ كان أمياً، وما طالع كتاباً، ولا

١. أبو عبد الله محمد بن علي الرازي، الطبرستاني المولد، الشافعي الأشعري الملقب بفخر الدين الرازي وابن خطيب مدينة الري وسلطان المتكلمين وشيخ المعقول والمنقول، ولد في سنة ٢٥٠هـ - ٨٦٥م. وهو طبيب وكيميائي وفيلسوف وعالم رياضيات مسلم من علماء العصر الذهبي الإسلامي للعلوم، وقد وصف بأنه أعظم أطباء الإنسانية على الإطلاق، حيث ألف كتاب الحاوي في الطب الذي كان يضم كل المعارف الطبية منذ أيام الأغريق وحتى عام ٩٢٥م. وظل المرجع الطبي الرئيسي في أوروبا لمدة ٤٠٠ سنة بعد ذلك التاريخ توفي في سنة ٣١٣هـ - ٩٢٥م.

تَتَلَمَّذَ أَسْتَاذًا، فَإِذَا ذَكَرَ هَذِهِ الْقِصَصَ عَلَى الْوَجْهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا خَطَأٍ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَهَا بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ نَبَوِّهِ».

[٥-١١] من الإعجاز الغيبي للقرآن، الذي تحقَّق في حياة النبي ﷺ (أخبار غيب الحاضر):

هو إنباء القرآن الكريم عن المغيِّبات التي حدثت في عهد النبي محمد ﷺ، ولم يحضرها النبي ﷺ، ولم يخبره بها أحدٌ من أصحابه، فقد كشفت الآيات القرآنية الكريمة مؤامرات الكافرين والمنافقين ومكائدهم قبل تنفيذهم لها. ومن أمثلة ذلك:

[١] موت أبي لهب على الكفر: أخبر القرآن الكريم أَنَّ أَبَا لَهَبٍ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ فِي سُورَةِ الْمَسَدِ: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾، أي: إنه لن يدخل الإسلام، وسيموت على الكفر وزوجته، وقد مات أبو لهب على الكفر بعد غزوة بدر بسبع ليالٍ، ولم يُسَلِّمْ ولو نفاقًا كما أظهر بعض المنافقين الإسلام.

[٢] حال وأخبار المنافقين: وردت آيات كثيرة تكشف حال المنافقين وما يُخْفُونَهُ بَيْنَهُمْ أَوْ فِي صُدُورِهِمْ، كَمَا وَرَدَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾، وكما قال تعالى في سورة التوبة: ﴿يَخْلَفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أَوْبَاءُ لِمَا نَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

[٣] انتصار الروم على الفُرس: كما جاء في قوله تعالى في سورة الروم: ﴿لَمْ يَغْلِبِ الرُّومُ﴾، ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾، ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ

الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾،
وَأَصْلُ الْحَادِثَةِ أَنَّ الْفُرسَ (وَهُمْ عَبْدَةُ أَوْثَان) غَلَبَتِ الرُّومَ (وَهُمْ أَهْلُ كِتَاب)،
فَشَمَتَ كُفَّارُ مَكَّةَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَصَحْبِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَاتِ السَّابِقَةَ تَحْدِيدًا لِلْعَرَبِ
وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، بِأَنْ طَائِفَةٌ الْإِيمَانِ سَتَنْتَصِرُ، وَقَدْ أَخْبَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمَ عَنِ
الْحَدَثِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ الْمُبْهَمِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ أَنْ يُغَيِّرَ مِنْهُ فِي
شَيْئًا، أَوْ يَكْذِبَهُ، وَهُوَ شَكْلٌ مِنْ أَشْكَالِ الْإِعْجَازِ الْغَيْبِيِّ بِالْإِخْبَارِ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ
الَّذِي جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَخْبَارُ الثَّلَاثَةُ:

-الإخبار بهزيمة الروم للفرس في بضع سنين (حدث ذلك سنة ٦٤٧م.
وقيل ٦٢٧م.)، وقيل في مكة المكرمة قبل الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة
بخمسة أو ستة سنين، وقيل: إنهم علموا بها في الحديبية، والله أعلم.

-الإخبار بأن هزيمة الفرس ستكون في نفس يوم فرح للمسلمين، وهذا
اليوم وافق اليوم الذي انتصر فيه المسلمون في معركة بدر.

-الإخبار بالمكان الذي سيهزمون فيه، وهو أدنى الأرض، و(أدنى)
لها عدة معانٍ، منها الأصغر، والأقل، والأقرب، والمنطقة التي تتصف بهذه
الصفات الثلاثة هي منطقة غور البحر الميت في الأردن.

[٤] انتصار المسلمين المستضعفين في مكة: ومن الآيات القرآنية
التي بشرت المسلمين المستضعفين في مكة أنهم سيتصرون على عدوهم
(كفار قريش)، وستقوم دولتهم، قوله تعالى في سورة القمر: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ
وَيُلَوَّنُ الدُّبْرُ﴾ ﴿٤٥﴾، فقد ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسيره أنه لما نزلت
هذه الآية الكريمة قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أي جمع سيهزم؟
أي جمع يغلب؟ ثم قال عمر: فلما كان يوم بدر بعد ذلك رأيت رسول الله
يُثَبُّ في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُلَوَّنُ الدُّبْرُ﴾ ﴿٤٥﴾، فعرفت تأويل
هذه الآية يومئذ.

[٥] بشرى دخول المسجد الحرام: بشر الله تعالى رسوله والمؤمنين بدخول المسجد الحرام، والطواف بالكعبة المشرفة، قبل حصول هذا الحدث، فقد قال تعالى في سورة الفتح: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ، فهذه الآية نزلت عند الانصراف من الحديبية. وقد قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «وكان رسول الله ﷺ قد أَرى في المنام أنه دخل مكة، وطاف بالبيت الحرام، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا في عام الحديبية إلى مكة للعمرة لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تنفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك - على أن يعودوا من قَابِلِ (السنة التالية) - وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأله عمر بن الخطاب في ذلك، فقال له فيما قال: أَفَلَمْ تَكُنْ تَخْبِرُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قال ﷺ: بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قال: قلت لا. قال عليه الصلاة والسلام: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ».

وقد تحقق هذا الوعد بتمامه من العام التالي؛ فقد اعتمر النبي ﷺ وأصحابه، على الهيئة التي ذكَّره القرآن الكريم بها، من تحليق الرؤوس، والأمن في المسجد الحرام، وكان هذا في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة. ولا ريب أن تحقق ما بشر به القرآن الكريم دون خلل في شرح تفاصيل هيئة المسلمين، أو تغيير في ميعاد العمرة، ليدل بوضوح تام على صدق رسول الله ﷺ.

[٦] قصّة مسجد ضرار: وردت في القرآن الكريم في سورة التوبة، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠٧) لَا نَقُصُّ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى

التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾، وتفاصيل القصة وردت في كتب التفسير المُنَدَّة عن ابن عباس، حيث يقول: كان ذلك كافيًا في توضيح الحادثة، فقد كان بالمدينة - قبل مَقْدَم رسول الله ﷺ إليها - رجلٌ من الخزرج يقال له: «أبو عامر الراهب»، وكان قد تَنَصَّر في الجاهلية، وقرأ عِلْمَ أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبيرٌ، فلَمَّا قَدِم رسولُ الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصار للإسلام كلمةٌ عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِيقَ اللَّعِينِ أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهرَ بها، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش، فَالَبَّهُم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بَمَنْ وافقهم من أحياء العرب، وقَدِمُوا عَامَ «أُحُدٍ»، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله تعالى، وكانت العاقبة للمتقين.

وذلك أَنَّهُ لما فَرَّغَ النَّاسُ من «أُحُدٍ»، ورَأَى أَمْرَ الرسولِ ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب أبو عامر إلى «هرقل» ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومَنَّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النَّفَاقِ والرَّيْبِ يَعِدُّهُمْ وَيُمَيِّنُهُمْ، أَنَّهُ سيقْدُمُ بجيش ليقَاتِلَ به النبي ﷺ ويغلبه، ويردَّه عما هو فيه، وأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا لَهُ مَعْقِلًا يقدِّمُ عليهم فيه مَنْ يقدِّمُ مِنْ عنده لأداء كُتْبِهِ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليه بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجدٍ مجاورٍ لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى «تبوك»، وجاؤوا فسألوا رسولَ الله ﷺ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْهِمْ فيُصَلِّيَ في مسجدهم، لِيَحْتَجُّوا بِصَلَاتِهِ عليه الصلاة والسلام فيه على تقريره وإثباته، وذكرُوا أَنَّهُمْ إِنما بنوه للضعفاء منهم، وأهلِ الْعِلَّةِ في الليلة الشاتية!! فَعَصَمَهُ اللهُ مِنَ الصَّلَاةِ فيه، فقال لهم: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا - إن شاء الله - أتيناكم فصلينا لكم فيه».

فلما قَفَلَ عليه الصلاة والسلام راجعًا إلى المدينة من تبوك، ولم يَبْقَ بينه وبينها إلا يومٌ أو بعضُ يومٍ، نزل عليه الوحيُ بخبرِ «مسجد الضُّرار»،

وما اعتمدَهُ بَأُتُوهُ مِنَ الْكُفْرِ، والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أُسِّسَ من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد مَنْ هَدَمَهُ قبل مَقْدَمِهِ إلى المدينة، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة التوبة: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسِجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ...﴾ (١٠٨)، ويُقصد بالمسجد في هذه الآية «مسجد قباء»، إلى الآية: ﴿...وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٩).

[٧] حادثة إسرار الرسول ﷺ لإحدى زوجاته، وقد أعلمه الله تعالى أنها أفشَتْ سِرَّهُ، قال الله تعالى في سورة التحريم: ﴿وَإِذَا سَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ، وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَبِيرُ﴾ (٢)، والمراد ببعض أزواجه: السيدة حفصة رضي الله عنها، والمُراد بالحديث قوله لها - كما جاء في بعض الروايات -: «بل شربت عسلًا عند زينب، ولن أعود، وقد حلفتُ، فلا تُخبري بذلك أحدًا..»، أو قوله لها - في شأن مارية -: «إني قد حرمتُها على نفسي، فاكْتُمِي ذلك»، فأخبرت بذلك عائشة، ﴿فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ﴾، أي: فلما أخبرت السيدة حفصة السيدة عائشة رضي الله عنهما بهذا الحديث الذي أُمِرَتْ من الرسول ﷺ بكتمانه، ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾، أي: وأطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ما قالته السيدة حفصة للسيدة عائشة رضي الله عنهما، وعبرَ بالإظهار عن الاطلاع؛ لأنَّ السيدة حفصة والسيدة عائشة رضي الله عنهما كانتا حريصتين على عدم معرفة ما دار بينهما في هذا الشأن، فلما أطلع الله تعالى نبيه على ذلك كانتا بمنزلة من غلبتا على أمرهما. وقوله سبحانه: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ بيانٌ للمَسْلَكِ السامِي الذي سَلَكَهُ ﷺ في معاتبته للسيدة حفصة رضي الله عنها على إفشائها لِمَا أَمَرَهَا أَنْ تَكْتُمَهُ، حيثُ اكتفى بالإشارة إلى جانب منه، ولم يذكر لها تفاصيل كلِّ ما قالته للسيدة عائشة رضي الله عنها؛ إذ في ذِكْرِ التفاصيل مزيدٌ من الخجل والإحراج لها، وإنما عَرَفَهَا ﷺ ببعض الحديث، لِيُوقِفَهَا على خَطِئِهَا، وعلى أنه كان من الواجب عليها أن

تحفظ سِرِّهِ ﷺ، ثم حكى سبحانه وتعالى ما قالته السيدة حفصة رضي الله عنها للرسول ﷺ، وما ردَّ به عليها، فقال: ﴿...فَلَمَّا بَيَّنَّاهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَيْرُ﴾ ❁، أي: فلَمَّا سمعتُ من الرسول ﷺ ما يدلُّ على أنه قد اطلع على ما قالته للسيدة عائشة رضي الله عنها، قالت له: مَنْ أخبرك بما دار بيني وبينها؟ لتتأكد من أن السيدة عائشة رضي الله عنها لم تُخبره بما دار بينهما في هذا الشأن، فأجابها ﷺ بقوله: أخبرني بذلك الله تعالى، العليمُ بجميع أحوالِ عباده وتصرفاتهم، الخيرُ سبحانه بما تُكنُّه الصدور، وبما يدور في النفوس من هواجس وخواطر.

[٦-١١] الإعجاز التاريخي (الغيبى) المستقبلي في القرآن، (الأخبار الغيبية المستقبلية):

الذي تَحَقَّقَ بِنَصِّهِ بعدَ وفاة النبي ﷺ، والبعضُ منه سيَتَحَقَّقُ إلى أن يرثَ الله الأرضَ ومنَ عليها، أي: ما سيحدث في العصور اللاحقة لعصرِ الرسول ﷺ، وذلك في القرآن.

اهتمَّ القرآنُ اهتمامًا خاصًّا بمستقبل الأرض والكون، وأخبر عمَّا سوف يحدث، لدرجة أنه تحدث عن المستقبل بصيغة الماضي بتأكيد راسخ!

هذا وقد وضع الشروط التي تقضي بأنَّ هلاكَ الأممِ أو ميلادَها راجعٌ لشروط قرآنية، وهذه الشروط تتلخَّصُ في الالتزام بالمنهج القرآنيِّ القائم على الكتاب والميزان، أو التوحيد والعدل، فبالرَّغمِ من أنَّ التاريخَ البشريَّ - منذ ولادة الإنسان وإلى الآن - يعيش حالة الصراع وتبادل النَّصرِ والهزيمة، ولكنَّ القرآن الكريم يقطعُ بأنَّ الإرادةَ الإلهيةَ قد تعلقت بأنَّ العاقبةَ ومستقبلَ البشرية سيكون من نصيب الصالحين والمؤمنين الذين سيرثون الأرض وما عليها، وأنهم سيُقيمون حكومةَ العدل والحقِّ الإلهي، وسيكون زمامُ الأمور بأيديهم، لا بيدِ الباطلِ وأهلِهِ، وأنَّ العالمَ بأسره سينضوي تحت رايةِ الحقِّ والعدل، ولا تقوم للباطل بعد ذلك قائمةٌ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة

في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٥)، وفي آية أخرى في سورة النور يقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾ (٥٥)، إن الاستخلاف المذكور في هذه الآية - سواء قلنا: إنهم خلفاء الله سبحانه، أو قلنا: إنهم خلفاء لمن سبقهم من الناس - يعني القيام بتدبير الأمور، وإقامة العدل الإلهي والقسط في المجتمع، وإعمار الأرض وإصلاحها، وفي آيات أخرى هناك إشارة إلى أن العاقبة للمتقين، كما جاء في سورة الأعراف: ﴿...وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٨)، وفي سورة طه: ﴿...وَالْعَاقِبَةُ لِلنَّوَى﴾ (١٣٢)، فالمستقبل وما سيجري فيه من أحداث ووقائع هو غيبٌ، لا يعلمه إلا الله، وقد وردت آياتٌ صريحة في القرآن الكريم تتحدث عن أخبار مستقبلية، وتجزمُ بأحداثٍ قادمة، وقد وقعت تلك الأخبار كما أخبر القرآن، الأمر الذي يدلُّ على مصدر هذا الكتاب الرباني، ولقد تحققت هذه الأخبار المستقبلية في القرآن الكريم من خلال مظاهر كثيرة مثل:

[١] تحدِّي الكفار أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن: وقد عجزوا عن هذا الأمر في عصر النبوة، وما زال العجز مستمرًا، قال سبحانه في سورة الإسراء: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨)، وقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٤)، إنه ليس تحدِّيًا فحسب، بل تحدُّ مع إخبار مُسبقٍ بأنهم لن يفعلوا!! وما زال التحدي جاريًا، وما زال الخبر الغيبي متحققًا.

[٢] الإخبار عن المنافقين من الأعراب - أهل اليمامة - أصحاب مسيلمة الكذاب: قال الله تعالى في سورة الفتح: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى

قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ يُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾»، قال الشيخ السعدي رحمه الله: «ذَكَرَ تعالى أن المخلفين من الأعراب يتخلفون عن الجهاد في سبيله، ويعتذرون بغير عذر، وأنهم يطلبون الخروج مع المسلمين إذا لم يكن شوكة ولا قتال، بل لمجرد الغنيمة، قال تعالى ممتحنًا لهم: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْدَعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ...﴾ ﴿١٦﴾»، أي: سيدعوكم الرسول ﷺ وَمَنْ نَابَ مَنَابَهُ من الخلفاء الراشدين والأئمة بعده (وهذا ما حصل)، وهؤلاء القوم مثل قوم فارس والروم وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُمْ وَأَشْبَهُهُمْ، مثل المنافقين من أهل الإمامة، وقال الزهري، ومقاتل، وجماعة: هم بنو حنيفة أهل الإمامة أصحاب مُسَيْلِمَةَ الكذاب، قال رافع بن خديج: كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم مَنْ هم، حتى دعا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أنهم هم».

[٣] بُشِّرَى تَمَكِينِ الدِّينِ فِي الْأَرْضِ: كما أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ قَدْ بَشَّرَ المسلمين بالتمكين والاستخلاف في الأرض بعد حين، فقال تعالى في سورة النور: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾»، وقد تحقق للمسلمين ذلك في أقل من خمسة وعشرين عامًا، فملؤوا السمع والبصر بقيمهم وحضارتهم، فامتدت خلافتهم من الصين شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، بل ووصلت إلى أوروبا شمالًا.

والله وضع شروطًا لوراثة الأرض، منها الصلاح، فقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٥٠﴾﴾، وقال أيضًا في سورة القصص: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ ﴿٨٢﴾﴾»، هنا ندرك أن العباد الصالحين ليسوا متكبرين ولا فاسدين، وأن شرط الإصلاح هو شرط توقيفي، وهو ما نراه عندما يتحدث

القرآن عن بني إسرائيل، فقد أفاض القرآن بذكر بني إسرائيل وذكر ملوكهم وأنبيائهم، ثم تحدث عن ماضيهم ومستقبلهم ضمن إطار شروط الإصلاح، وهو في هذا لا يتحدث بمنطق قبلي أو عنصري، ولكنه يتحدث في معجزة فريدة عن مستقبل الأرض والشعوب ضمن إطار العدل والتوحيد، والعدل هنا يشمل العدل بين الأفراد وبين الشعوب والأمم، وإذا كان القرآن الكريم يتحدث عن «قبائل إسرائيل»، فقد تنبأ القرآن بحدوث أحداث تخصهم، منها عودتهم لفيثا، ومنها في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عَلَوْا تَتَبَرَّكُوا ۖ﴾، وهي الآيات التي جاءت في سورة الإسراء، ونخلص منها إلى أن مستقبل المنطقة مرتبط بمن يحسن أو يسيء، ولمن تكون العاقبة في النهاية، وهي ما يؤكد معجزة الرؤية التاريخية القرآنية.

[٤] أحداث يوم القيامة في آخر الزمان: لما أخفى الله عز وجل وقت الساعة (يوم القيامة) عن الناس، فإنه قد أعطاهم علامات ودلائل وأمارات تدل على اقتراب وقوعها، وقد وردت في القرآن الكريم تحت مسمى «أشراط الساعة»، قال تعالى في سورة محمد: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهَا ۝١٨﴾، وقال تعالى في سورة الواقعة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُبَدَّنًا ۝٦﴾، والواقعة: هي يوم القيامة، وقد ذكر الله تعالى يوم القيامة في نصوص الوحي من القرآن والسنة، وهناك حوالى ٧٠ آية في القرآن الكريم تتكلم عن هذا اليوم وأحواله ومراحلها، وأوّل هذه المراحل بعثُ الناس، وخروجهم من القبور، وحشرهم جميعاً حُفَاةً عُرَاةً، ثم بعد ذلك يأتي الأنبياء لشهود الفصل في أمرهم، فتكون الشفاعة الكبرى لسيدنا محمد ﷺ، ثم تتطاير الصحفُ، ويأخذ كل إنسان كتابه يمينه أو شماله، ثم يُنصب الميزانُ، وتوزن الأعمالُ، وتتبع كل أمة ما كانت تعبد.

في الحياة الدنيا، ثم الورود على الحوض، ثم المرور على الصراط، ثم وقوف
التَّاجِينَ من هذه المراحل على قنطرة المظالم، وذلك للمُقَاصَّة فيما بينهم، ثم
دخول الجنة أو النار، ثم خروج من دخل النار من المؤمنين، وذلك في يوم
كان مقداره خمسين ألف سنة، والله أعلم.

[٥] ومن ضمن نبوءات (أخبار) القرآن الكريم المستقبلية أو السبق
العلمي لبعض الاستكشافات التي تحققت في عصرنا وسوف تتنامى في
المستقبل القريب والبعيد التقدم العلمي الهائل والدائم والمستمر، والذي
ارتبط بالإعجاز العلمي في القرآن (والسنة) على جميع الأصعدة والمحاور
العلمية، وهو ما أشار إليه الكتاب العظيم في قوله تعالى في سورة فصلت:
﴿ سَتُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ
بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ ﴾، من هنا تبدو - بجلاء - أهمية الالتزام
بالموضوعية والحِياذ والدقة في عملية التأريخ، على النحو الذي علمنا إياه
القرآن الكريم، وبهذا يمكن أن نجني من قراءة التاريخ فائدتين:

الفائدة الأولى: فَهْمُ السُّنَنِ الكونية التي تحكم مسيرة التاريخ.

الفائدة الثانية: اكتساب القدرة على التعامل مع الأحداث تعاملًا إيجابيًا
مثمرًا.

هذا طرفٌ من إعجاز القرآن الغيبي، ذلك الإعجاز الذي لا تنتهي عجائبه،
ولا يَخْلُق من كثرة الردِّ، فهو كتابُ الله الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا
مِنْ خَلْفِهِ، فاستحقَّ بذلك أن يكون معجزةَ النبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ الخالدة.



[١٢] الإعجاز العددي في القرآن الكريم:

(مقتبس - بتصرف - من مقال للأستاذ الدكتور خالد بن عثمان السبت^(١))

مقدمة:

تكلم علماء المسلمين السابقين رحمهم الله عن عدد حروف القرآن، وعدد الكلمات، وعدد الآيات، وعدد السور، وحتى عدد النقط في القرآن الكريم، وتكلموا أيضاً على المرات التي يتكرر فيها الحرف الواحد من الألف إلى الياء، ويتفنون في السرد والتصنيف والمقارنات والعدد... إلخ، ويوجد لهم مؤلفات كثيرة في هذا الأمر، وقد حذا حذوهم بعض العلماء المعاصرين من المسلمين.

والجدير بالعلم لدى علماء المسلمين أن عدد آيات القرآن فيه خلاف كثير بين العلماء (السلف)، ولكن، بناءً على أي شيء هذا الخلاف؟ هل يوجد أحد ينكر آية من القرآن الكريم؟ حاشاً وكلاً، بل القرآن محفوظ كما أنزله الله عز وجل من فوق سبع سماوات، ولم يتغير منه حرف واحد، ولكن العلماء يختلفون في الأسباب، كالقراءات والأحرف (اللهجات)، فالبسمة - مثلاً - هل تعد من السورة أم لا؟ بينهم خلاف في هذا؟ فهي في بعض الأحرف من السورة، وفي بعض الأحرف ليست منها، وكله حق من عند الله عز وجل.

١. أ.د. خالد بن عثمان بن علي السبت، وُلد في (عام ١٣٨٤هـ. - ١٩٦٤م.) في مدينة الدمام، أستاذ مشارك في كلية التربية (قسم الدراسات القرآنية) في جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل في الدمام، وفي التفسير وعلوم القرآن في كلية القرآن في الجامعة الإسلامية، عضو في الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، ورئيس المجلس العلمي في جمعية تحفيظ القرآن الكريم في المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية.

أ. الخلاف في عدد الآيات:

القرآن الكريم ستة آلاف ومائتا آية ونيف (٦٢٠٠)، واختلفوا في النيف الزائد، فابن مسعود رضي الله عنه قال: (٦٢١٧) آية، والعدد عند أهل المدينة من القراء (٦٢١٤) آية، وبعضهم يقول: (٦٢١٠) آية، وأهل مكة يقولون: (٦٢٢٠) آية، ويقول البصريون: (٦٢١٩) آية، وعند أهل الشام (٦٢٢٦) آية، فالخلاف في العدد الزائد عن ستة آلاف ومائتين.

وهذا اختلاف في العدد بناءً على الاعتبار المذكورة آنفاً، وذلك أيضاً في فصل بعض الآيات، فالحروف المقطعة في أوائل السور بعضهم يعدّها تابعة لما بعدها.

ب. الخلاف في عدد الكلمات:

اختلف العلماء في عدد الكلمات، فابن مسعود يقول إنها: (٧٧٩٣٤) كلمة، ومجاهد وسعيد ابن جبير يقولان إنها: (٧٧٤٣٧) كلمة، وغيرهم يقول إن عددها: (٧٦٠٠٠) كلمة، هذا الاختلاف ليس بناءً على نقص أو زيادة في كتاب الله جل وعلا، وإنما يختلفون أحياناً في الكلمة مثل: (إنما) هل هي كلمتان أو كلمة واحدة؟ ومثل (بئسما) هل هي كلمة واحدة أو كلمتان؟ وعلى كلّ حال فالمؤدّي واحد، من جهة أن القرآن (المصحف الذي بين أيدينا اليوم) مُجمَع عليه أنه لا زيادة فيه ولا نقصان.

ج- الخلاف في عدد الحروف:

وكذلك أجمع العلماء - كما ذكر ابن الجوزي^(١) - على أن عدد الحروف في القرآن الكريم هو: ثلاث مائة ألف (٣٠٠٠٠٠) حرف، واختلفوا في

١. ابن الجوزي، هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي التيمي البكري. فقيه حنبلي محدث ومؤرخ ومتكلم، ولد وتوفي في بغداد. حظي بشهرة واسعة، ومكانة كبيرة في الخطابة والوعظ والتصنيف، كما برز في كثير من العلوم والفنون. يعود نسبه إلى محمد بن أبي بكر الصديق.

الكسر الزائد على ذلك، فابن مسعود يقول: الزائد (٤٧٤٠) حرف، وحمزة القارئ المعروف يقول: الزائد هو (٧٣٢٥٠) حرف، وعاصم يقول: الزائد (٦٣٣٠٠) حرف، وهكذا.

د- القراءات:

القرآن نزل على سبعة أحرف (قراءات، لهجات) كما أخبر رسولنا الكريم ﷺ، فمثلاً في سورة التوبة: ﴿تَجْرِي مَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خِلَالَيْنِ...﴾ (١٠٠)، وفي حرف آخر أو في قراءة أخرى ﴿تَجْرِي مِنْ مَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خِلَالَيْنِ﴾، وكلها قراءات متواترة، وكله من عند الله عز وجل وعن رسول الله ﷺ، ولا تختلف اختلافاً جوهرياً في المعنى، فبناءً على أي نَعُدُّ؟

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فـ (ملك) ثلاثة أحرف، وقراءة حفص عن عاصم التي نقرأ بها تنطق (مالك) أربعة أحرف، هذا من عند الله، وهذا من عند الله، وكله صحيح، والمعاني صحيحة كذلك، وهناك الكثير من الأمثلة مثلها.

وإنما أذكر هذا الكلام لأقول: إن العلماء المسلمين تفننوا في معرفة الأعداد في القرآن الكريم، ومع ذلك لا يوجد في علومهم - إطلاقاً - شيء اسمه «الإعجاز العددي»، فهل هذا الأمر يحتاج إلى تكنولوجيا حتى يقال: إنهم ما اكتشفوا ذلك من زمن لأنه لم يكن لديهم وسائل دقيقة لمعرفة ذلك؟

هـ- ترتيب السور:

وكذلك فإن بعض العلماء يبنون على ترتيب السور فيقولون: هذه السورة رقم (٩٥) أو رقم (١٩) والرقم (١٩) له عندهم أشياء وأشياء! الحقيقية أن الراجح من أقوال العلماء أن ترتيب السور هو اجتهادي وليس توقيفياً (التوقيفي: ما أتى به الشرع، وليس لأحد الزيادة عليه أو الإنقاص منه ولا مجال للرأي فيه) وإنما استأنس فيه الصحابة مما كانوا يرون من غالب

قراءة رسول الله صلى الله عليه، وبالتالي فإن ترتيب السور ليس توقيفياً، إنما التوقيفي هو ترتيب الآيات في القرآن في السورة الواحدة.

[١-١٢] ما هو الإعجاز العددي:

الإعجاز العددي هو محاولة استنتاج قضايا إعجازية من الأرقام، إما على سبيل التوافق، وإما عمليات حسابية، أو ما يسمى بحساب الجُمَّل.

والسؤال: من أي الأرقام يتم الاستنتاج؟

والجواب: يتم ذلك من رقم السورة ورقم الآية ورقم الجزء وعدد الكلمات وعدد الحروف وعدد الآيات، ومن أرقام صرَّح القرآن بها، ومن إحصاء كلمات معينة وأضدادها... إلخ.

فالذين يقولون الإعجاز العددي ينبئون على عدد السور، مع أن عدد السور مختلف، فمثلاً: هل الأنفال والتوبة سورة واحدة - كما ورد عن مجاهد^(١) - أم سورتان؟ العلماء مختلفون في ذلك! كذلك هل سورة الفيل وسورة قريش سورتان أم هما سورة واحدة - كما فعل أبي بن كعب رضي الله عنه -

القرآن هو القرآن، لم يزد فيه شيء ولم ينقص، لكن العلماء يختلفون للتشابه - في النقل والترتيب -، فهل يمكن أن نأتي بعد ذلك ونبني على العدد أحكاماً؟ أو نذكر أشياء على أنها من قبيل الإعجاز؟ ثم إن الطريقة التي ينبئون عليها هذه الأرقام والإعجاز الذي يذكرونه، ليس لهم قاعدة ثابتة فيه، وإنما يذكرون أرقاماً، ثم يحاولون أن يأتوا بموافقات، إمّا بعمليات حسابية (طرح وقسمة وضرب وجمع) إلى أن يستنتجوا له الموافق، أو يجمع معها كلمات أخرى ويحذف أخرى... إلى ما هنالك.

١. مجاهد بن جبر المخزومي القرشي ولد في سنة (٢١هـ - ٦٤٢م). تعلم على عبد الله بن عباس، وهو إمام وفقه وعالم ثقة وكثير الرواية للحديث الشريف وكان بارعاً أيضاً في قراءة وتفسير القرآن الكريم أيام الصحابة والتابعين، توفي سنة (١٠٤هـ - ٧٢٢م). في مكة المكرمة.

فمثلاً كلمة (الرسَل) كم مرة وردت في القرآن الكريم، أو (الناس) كم مرة وردت في القرآن الكريم؟ فإذا أسعفهم العدد ليتوافق أدخلوا مع (الناس): (الإنسان) و (البشر) ليكتمل العدد.

وهناك مثال آخر عن كلمة (الموت)، فإنهم لا يأتون بكل الكلمات، وإنما يقتصرون على الإتيان بكلمة (الموت) أو (الميت) فقط، ويتركون (موتكم) و (يميتكم) و (تموتون).. لماذا؟ من أجل أن يستخرجوا عدداً يوافق شيئاً آخر، فهل هذا إعجاز؟

إن إعجاز القرآن ثابت، ولسنا في حاجة إلى تكلفاتٍ من أجل أن نثبت أن القرآن الكريم مُعْجَزٌ، فهل وصلت الأمور إلى هذا الحد؟

[٢-١٢] الجذور التاريخية لهذه المزاعم:

هل هناك أشياء يستندون إليها؟

ثُمَّ حديثٌ أخرجه البيهقيُّ والحاكمُ بإسنادٍ صحيحٍ، وهو حديث ابن عباسٍ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما سأل يوماً عن ليلة القدر، متى هي؟ فكلُّ أجاب بما عنده، - وليلة القدر فيها عدةٌ أقوال -، فسأل ابن عباس رضي الله عنه فقال: السبع - أي: من العُشر الأخير من الشهر -، فقال بناءً على أيِّ شيء؟ قال ابن عباس رضي الله عنه: رأيت الله ذَكَرَ سبعَ سماواتٍ، ومن الأرضين سبعاً، وخلق الإنسان من سبع، وبرز نباتُ الأرض في سبع...

هل هذا الكلام يتعلق بالإعجاز؟ هل فيه إعجاز قريب أو بعيد؟ أبداً، وإنما هي محاولة للاستنباط من قِبَلِ ابن عباس رضي الله عنه في معرفة ليلة القدر، مُسْتَنْسَافاً بذكر العدد سبعة في قضايا متعددة في القرآن، والله أعلم.

[٣-١٢] الأقسام التي تندرج تحتها مزاعمهم في هذا الباب:

موافقاتٌ رَقْمِيَّةٌ، بتكلفاتٍ حسابية، ومن أمثلة ذلك أنهم وضعوا جداول في الإنترنت وفي كتب خاصة، وبعضهم ينقل عن بعض، وقد جمعت بعض

ما كتبوا، وأعطيته لأحد الفضلاء ممن يتميزون بالدقة العلمية، فأحصى بعض الأشياء، وتبّعهم فيها، فكانت النتائج كالتالي:

مثلاً هم يقولون: «الدنيا» ذكرت (١١٥) مرة، و «الآخرة» (١١٥) مرة، فلننظر هذا الكلام الذي قالوه أهو صحيح أم لا؟ «الدنيا» وردت في القرآن (٦٧) مرة (الحياة الدنيا) أو (حياتهم الدنيا)، و (٤٨) مرة (الدنيا) وحدها، ووردت (٤) مرات لا يُراد بها ما يُقابل الآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ (سورة الأنفال) يعني القريبة، أي الجانب الذي يلي المدينة المنورة: ﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ (سورة الأنفال) أي مما يلي مكة المكرمة، وهذا في غزوة بدر، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ﴾ (سورة الملك)، فيكون العدد الحقيقي لعدد مرات كلمة (الدنيا) بالمعنى المقابل للآخرة (١١١) مرة فقط وهذا لا يتوافق مع عدد مرات ذكر (الآخرة)!

وبنفس المنطق وجد أن كلمة (الآخرة) التي هي مقابل (الدنيا) عددها هو (١٣٩) مرة، ومثل هذه الإحصاءات للكلمات الكثير، ولو تتبعناها من الناحية اللغوية والعددية والتفسير لوجدت أن الأعداد ليست بالضرورة متساوية أو كما يقولون.

ومما يُذكر أيضاً كلمة (الصلاة)، يقولون إنها وردت خمس مرات، (والشهر) ١٢ مرة، واليوم (٣٦٥) مرة، لماذا ليس (٣٥٤) مرة مثلاً، بينما إذا جمعنا كلمة الصلاة بجميع تصاريفها فإننا في الواقع نخرج برقم آخر غير ما ذكر، ولكنه اختار الصلوات المجموعة فقط دون سائر الاستعمالات لتوافق العدد الذي يريد، وإلا فلو عددها بالتصارييف لوجدتها (٨٧) مرة! لماذا لم يجمع ذلك؟ وكذلك الشهر وتصريفاته مجموعها (٢١) مرة، ولكنه اختار المفرد فقط من أجل أن يصل إلى العدد (١٢)! أما بالنسبة لليوم كذلك فعدد اليوم وردت في القرآن (٣٤٩) مرة، يوماً: (١٦) مرة، ويومكم (٥) مرات،

وغير ذلك؛ فالمجموع أكثر من ذلك، ولكنه حذف منها بعض التعاريف، واختار الرقم (٣٦٥) ليتوافق مع ما يريد، وهناك الكثير من هذه الأمثلة.

[١٢-٤] الخلاصة:

إن التفسير العلمي والإعجاز العلمي لا نردّه بإطلاق، بل هناك شروط وضوابط، إذا توفرت قبلناه، مع مراعاة أن القرآن الكريم هو كتابٌ هداية في الأساس، ولا يجوز لأحد أن يقتحم أو أن يستعجل وينسب إلى القرآن ما ليس منه، وبالتالي لا نرى - كما ذكرنا سابقاً - أن ما يفعلونه في ما يسمى «الإعجاز العددي» ليس إعجازاً، وأن هذا النوع من التفسير توفيقات عددية أو رقمية لا يتوقف الإعجاز القرآني عليها، وإنما الإعجاز ثابت من غير هذا النوع، (الإعجاز العددي) ليس من الأنواع الضرورية في الإعجاز؛ إذ لا ينتفي الإعجاز عن القرآن إذا انتفى هذا النوع؛ ولذلك يجب الورع عند الكلام عن هذا النوع من التفسير، والخوف من الله تعالى، والله أعلم.

* ملاحظة مهمة:

إن القرآن الكريم الذي بين أيدينا الآن (في القرن الواحد والعشرين الميلادي)، المحفوظ من رب العالمين بالنص العربي، هو نفس رسم المصحف الشريف الذي خطّه الكتبة الأربعة لرسول الله ﷺ، كما أوحاه الله تعالى إليه، وهو نفس الرسم حرفاً بحرف للمصاحف الستة التي أرسلها سيدنا عثمان بن عفان إلى مكة المكرمة، البصرة، الكوفة، والشام، والذي جعله لأهل المدينة، والذي اختص به نفسه، وقد ثبت ذلك علمياً بما لا يدع مجالاً للشك أبداً بإجماع كافة العلماء المسلمين السلف والمعاصرين، وكذلك العلماء والباحثين الأجانب، وبما أن لهجات العرب تختلف من بلد إلى آخر، فقد اعتُمدت عشر قراءات (لهجات) لهذا المصحف الشريف، وبالتالي فقد اختلف في عدد وترتيب بعض السور والآيات طبقاً لهذا الأمر (كما ذكر هذا المقال)؛ ولكن دَرءاً للفتن، ولإسكات المشكّكين والحاquدين على الدين

الإسلامي ودستوره القرآن الكريم، فقد أقرَّ غالبية العلماء في الأمة الإسلامية المصحف العثماني (نسبة إلى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه)، وهو «المصحف الإمام»، والذي حفظ للمسلمين ترتيبَ السور والآيات على ما هي عليه الآن، وهي: (١١٤ سورة) و (٦٢٣٦ آية)، وهو الذي اعتمده وطبعه مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وسُمِّي بـ «مصحف المدينة المنورة» في المملكة العربية السعودية، والذي يتم بإشراف وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، وجُعِلت مراجعته من كبار علماء القراءات وعلوم القرآن والتفسير من العديد من الدول العربية والإسلامية، وقد تَمَّت طباعته ورقياً، وتسجيله صوتياً، وتوزيعه على وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة، ولذلك فإنه من الواجب أن يكون هذا الرسم للمصحف الشريف هو المرجع الوحيد الآن لجميع المسلمين في العالم.

وبالتالي، فإنَّ ما ذكره الدكتور الشيخ خالد بن عثمان السبت حفظه الله في مقاله هذا عن الإعجاز العددي في القرآن الكريم، هو صحيح، ولا ننكره، بل نشمِّن ما تمَّ شرحه وبيانه في هذا المقام.

ولكنَّ يجدرُ القولُ أيضاً: إننا لا نَنفِي بالمُطلق أن يكونَ هناك إعجازٌ عددي في القرآن الكريم، وإنما يجب البحث فيه بدقَّة وموضوعية وورع، من خلال منهج علمي واضح، بحيث لا يدع مجالاً للشكِّ - ولم نطلع على مثل هذه البحوث الموضوعية بعد -، والله وليُّ التوفيق.



[١٣] الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم

مقدمة:

إن التشريع الإسلامي، المبني على الوحي الإلهي، المتمثل في القرآن الكريم، الذي أنزل للعالمين كان منهجاً مصوباً ومهيماً على الشرائع السماوية السابقة؛ لما اعتراها من تغيير وتبدل بمرور الزمن لمصالح فئات معينة.

وقد أنزلت قواعد الدين الإسلامي وتشريعاته وأحكامه العامة من خالق العالمين، والذي هو أدري وأعلم بمصلحة البشرية كلها، بل ومصلحة سائر الخلق أجمعين.

ولهذا فإن التشريعات (الأحكام) المنصوص عليها في القرآن الكريم هي تشريعات «عالمية» بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، ولا عبرة بمن قال - عن جهل أو عمد - : إن هذه التشريعات هي تشريعات قديمة وخاصة بمجتمعات أهل الجزيرة العربية في زمان ظهور الدين الإسلامي وحتى عصر النهضة الأوروبية، وبنوا على ذلك عدم صلاحيتها لهذا العصر الحديث ولكل البلدان والمجتمعات (في العالم الحديث)، واستدلوا بتخلف المجتمع في معظم البلدان الإسلامية، وبما جرى ويجري فيها حتى الآن، وعدوه دليلاً على مزاعمهم.

والحق يُقال، إن العديد من العلماء المشهورين وقادة الفكر المنصفين من المستشرقين من كافة أقطار العالم قد قاموا بدراسة متأنية للتاريخ الإسلامي ولحياة الرسول ﷺ ومنهم:

* الفيلسوف الفرنسي «لامارتين»، والعالم الأمريكي «مايكل هارت»، والمستشرق الإنجليزي «جورج برناردشو»، والمستشرق البريطاني «وليام مونتيري»، والفيلسوف الفرنسي المعاصر «روجيه بارودي» -الذي اعتنق الإسلام-، وغيرهم الكثير من القادة والعلماء والمفكرين الغربيين والشرقيين على حد سواء، ويمكن الرجوع إلى أقوالهم وكتاباتهم.

وقد بينوا وصرحوا بعدم صحة هذه الادعاءات الباطلة، وأن هذا الكلام يَنُمُّ عن جهل وحقد، أو مقاصد أخرى غير موضوعية! وهذه الادعاءات ليست عبرة للنيل من عالمية التشريعات الإسلامية وفضلها على البشرية وصلاحيتها حتى أيامنا هذه، ولكافة المجتمعات الإنسانية.

ونُضيف أنهم خلطوا (عن قصد أو دون قصد) بين الأحكام العامة المنصوص عليها، وهي الثابتة، وبين الأحكام الفرعية المشتقة منها، والتي اجتهد العلماء على مدى الزمن باستنباطها، والتي قد تتغير بتغير الأحوال والزمان والمكان، (والتي قد قصّر بعض العلماء المعاصرين في تكييفها على حسب المصلحة العامة من غير إخلال بالثوابت المنصوص عليها، والله أعلم).

وبما أن الدين الإسلامي المبني على القرآن الكريم هو خاتم الرسالات السماوية، فقد لزم من ذلك أن يكون صالحًا حتى آخر الزمان، ولكل المجتمعات البشرية على حد سواء.

ولذلك فإننا نؤمن بأن أحكام القرآن الكريم هي فوق الدساتير والقوانين التي وضعها الإنسان، وعلى المشرعين في البلاد الإسلامية اعتماد الأحكام الإسلامية، لتكون المصدر الأساس للدساتير.

وقد أثبت التشريع الإسلامي صلاحيته خلال فترات الحكم الإسلامي منذ عهد الرسول ﷺ وحتى يومنا هذا -وفي بلدان كثيرة، بالرغم من تعرضه

لانتكاسات في التطبيق في بعض العصور السابقة والحالية في العديد من البلدان الإسلامية، وقد انتشر الحكم الإسلامي في القرون السابقة في بلدان كثيرة من آسيا وحتى أوروبا مرورًا بالشرق الأوسط وأفريقيا، وقد استطاعت الشريعة الإسلامية التي تستند عليها الدول الإسلامية الصمود بالرغم من الغزوات والحروب المتتالية والمتعاقبة على مختلف البلاد من قبل الأمم الأخرى، كالمغول والتتار والصليبيين والأوروبيين المستعمرين وحملات الاستشراق والتغريب العلمية والفكرية، (إلا من القلة القليلة من المفكرين الغربيين الموضوعيين)، والغزو الثقافي المتنوع حسب الزمان والمكان، والذي ما يزال إلى عصرنا هذا بصنوف عديدة، ولا ننكر أن من أسهم في سوء تطبيق التشريعات الإسلامية المنصوص عليها في القرآن والسنة والفقه الإسلامي هم بعض العلماء والحكّام والمستشارين المتنفذين في البلدان الإسلامية المختلفة، خلال فترات متعددة؛ وذلك حفاظًا على نفوذهم ومكانتهم ومكتسباتهم الآنية.

والدين الإسلامي واجه - ولا يزال يواجه - تحديات جمة عبر مسيرته الطويلة، واستطاع الصمود والحفاظ على هذا الدين؛ لأن الله تعالى قد حفظه، وسيظل محفوظًا إلى يوم الدين لقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ونحن على ثقة بأنه لا زال هناك رجال وقادة أكفاء، وعلماء أفاضل في هذه الأمة في كل عصر ومصر، يدافعون عن هذا الدين العظيم وتشريعاته، ويُفندون مزاعم أعدائه وافتراءات مُناوئيه، من خارج هذه الأمة أو داخلها.

ومما يدلُّ على عالمية وإعجاز التشريعات الإسلامية: أن القوانين الأساسية والأحكام المنزلة المحكمة في القرآن الكريم بالإضافة إلى كل شروحاتها من الرسول ﷺ والتي دونت في السنة الشريفة الثابتة والمتواترة، لا تتغير إطلاقًا على طول الزمان وفي كل المجتمعات، ولكن ما يتغير هو

الفقه المستنبط - طبقاً لقواعده - من هذه المبادئ والأحكام الأساسية، وطبقاً للأعراف، وللمصلحة العامة، والذي يقوم بهذا التغيير هم العلماء المتخصصين الثقات الأتقياء.

ومن المعلوم أنَّ نصوص القرآن الكريم جميعها قطعيَّة في ثبوتها، ونقلها رسولُ الله إلينا، وقد تناقل المسلمون القرآن كتابةً من المصحف المُدَوَّن، وتلقياً من الحُفَّاظ الموثوقين أجيالاً عن أجيال في عدَّة قرون، والذي يوجد منه نسخ أصليَّة في الجامعات الإنجليزيَّة ومتحف إستانبول وفي متاحف بعض البلاد الأخرى يثبت بصورة علمية قطعية أنها نسخت منذ عصر الخلفاء الراشدين - سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه -، ونصوصها كما هي معروفة لدينا في المصاحف الموجودة بين أيدينا، وما اختلف المكتوب منه والم محفوظ منذ أربعة عشر قرناً، فسيظل القرآن الكريم المصدر الأول للشرعية الإسلامية إلى أبد الآبدين بإذن الله.

وقد اشتمل القرآن الكريم على أنواع عديدة من الإعجاز -وقد بينها بإيجاز وتبسيط في فصول هذا الكتاب- وهذا ليس وصفاً عاطفياً بل وصف علمي موضوعي مُوثَّق، يعترف بها أهل العلم والمتخصِّصون، (وإن لم يعرفوا العربية)؛ لأنه يتعلَّق بمحتواه ومضمونه الذي تضمَّن أعظمِّ التعاليم، وأقوَمِّ المناهج والتشريعات لهداية البشرية إلى التي هي أقوَمُ، في تزكية الفرد، وإسعادِ الأسرة، وتوجيه المجتمع، وتقويمه وحمايته، وبناء الدولة، وإفشاء السلام، وإقامة العلاقات الدولية على أُمْتِنِ الدعائم، ومن هذه الأنواع: (الإعجاز التشريعي).

*** ملاحظة:**

لقد اجتهدنا في هذا القسم بيان وتوضيح أهم النقاط والأمور المهمة في التشريع الإسلامي مع مقارنة بعضها مع بعض التشريعات اليهودية والنصرانية لنفس المواضيع، كما بينا كيف أخذت الدول الأوروبية التشريعات الإسلامية

ونسبها إليها. كما اجتهدنا أيضًا في بيان وجوه التقصير في التطبيق لهذه التشريعات من الدول الإسلامية في هذا العصر مع وضع تصورات واقتراحات لعولمة التشريعات الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة مع ملاحظة أن (نصوص القرآن) أي: كلماته، وهي كلها قطعاً الثبوت، أمّا (نصوص الشريعة) فتشمل أيضًا الأحاديث الشريفة، وهي تتفاوت في الدلالة والثبوت بين القطع والظنّ، فيكون فيها مجال للاجتهاد من ذوي الاختصاص طبقاً لأصول الاجتهاد وقواعده.

ذكرنا في هذا القسم بعض الملامح عن الإعجاز التشريعي، حيث نقلنا بعض اجتهادات العلماء في عدد من التشريعات، وليس كل ما هو موجود في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

إن انقسام المسلمين خلال العصور السابقة، وظهور مذاهب ومملّ متعددة، وعدم التزام بعض تلك المملل بالتشريعات الموجودة في القرآن، لا يُعدُّ حُجَّةً على القرآن وأحكامه، بل ذلك حُجَّةٌ على تلك الجماعات.

ولا عُذْرَ للمسلمين - بكلِّ شرائعهم - إن لم يُحسِّنوا تطبيقَ الشريعة الإسلامية وأحكامها المُحكَّمة الواردة في القرآن الكريم تطبيقاً جديّاً، ولم يأخذوا بما شرعه الله تعالى لنا.

حقيقة الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم^(١):

الإعجاز التشريعي هو إثبات عجز البشر جميعاً في الإتيان بمثل ما قدّمه الوحي القرآني من تشريعات وأحكام تُنظِّم علاقة الفرد بخالقه ونفسه والمخلوقات في كافة المجالات، مع إقرارهم بالحاجة إلى هذا التشريع المتميز.

١. نقلت محتوى هذه الفقرة بتصريف من مقال للأستاذ الشيخ توفيق الحبيب، وهو كاتب تونسي وأستاذ حاصل على الإجازة في أصول الدين من جامعة الزيتونة في تونس.

وليس المراد من الإعجاز التشريعي مُجَرَّد إثبات الإعجاز، بل هو لإثبات صِدْق النَّبِيِّ ﷺ، وبيان كَوْن القرآن من عند الله عَزَّ وجل -خالق البشر لمعالجة أمور حياتهم على مدار الزمن-، كما قال تعالى في سورة فُصِّلَتْ: ﴿وَلَئِنَّهُ لَكِنْبٌ غَزِيزٌ﴾ (٤١) لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤٢)، وقد نزل القرآن الكريم على مَدَى (٢٣) عامًا خلال حياة الرسول محمد ﷺ، وبالتالي فإنَّ أحكامه تَدَرَّجَتْ خلال هذه المدة، وقد عَدَّ الكاتب الأمريكي اليهودي (مايكل هارت) مؤلف كتاب «الخالدون المئة»: أن محمدًا ﷺ هو أعظم الشخصيات أثرًا في تاريخ الإنسانية كُلِّها، باعتباره الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحًا مطلقًا على المستوى الديني والديني.

لقد كانت العربُ أُمَّةً أُمِّيَّةً، ولم تَكُنْ لهم ثقافةٌ (ولا تشريع)، بالرَّغم من تحلِّيهم ببعض الفضائل، كالشجاعة والكرم والشجاعة والوفاء بالعهد، ولم يكونوا يعرفون إلا التحاكم إلى العِرْقِ الْقَبْلِيِّ قبل نزول القرآن المجيد على النَّبِيِّ ﷺ، ومن الأمور البديهيَّة عند علماء القانون والاجتماع، أنَّ أهمَّ ما يُتَوَجَّع به تقدُّمُ أيِّ أُمَّةٍ من الأمم هو تكاملُ البيئَةِ القانونيَّة والتشريعيَّة في حياتها.

وقد ظهر في الجزيرة العربية - قبل أربعة عشر قرنًا - هذا القانون البدْهي؛ فقد ظهر بين تلك الجماعات البدائية قانونٌ متكاملٌ، يتناول - بالإضافة إلى الإرشادات في النواحي الأخلاقية والتَّعَبُّدِيَّة - معلوماتٍ عن خلق الكون، والغاية التي خُلِقَ الإنسانُ من أجلها، والحقوق المدنية، والأحوال الشخصية، ويرسم صورةً للعلاقات بين الجماعات والدُّول، ويضع نظامَ الحرب والسُّلم، ويضع نظامًا للعلاقات المالية والسياسيَّة... وهكذا، تشريعٌ متكامل لا يَتْرُك من أُمُور الحياة صغيرة ولا كبيرة إلَّا عالَجها وقَنَّ لها، ووضع الأسس العامة لتشريعات تفصيلية اجتهادية (لأهل الحلِّ والعقد) لأُمُور قد تُسْتَحْدَث في المستقبل، هذا في الوقت الذي كان فيه عَرَبُ الجزيرة لا يعرفون شيئًا

عن معنى المجتمع الذي يحتاج إلى قانون، فلم يأخذوا بنصيب وافر من العلم أو الحضارة، ممَّا يُعَدُّ خُطُواتٍ أساسيةً لا بد من اجتيازها قبل وضع القانون العام.

فهذا التشريع الذي اشتمل عليه القرآن المجيد، وهو الذي جعل من المسلمين الأوائل أُمَّةً لا نظير لها في التاريخ، فقام المجتمع المثالي، وأقيمت المدينة الفاضلة - في العديد من البلدان الإسلامية في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية من القرن الثامن وحتى القرن السادس عشر - التي طالما خامرت عُقول كثير من المُفكرين والمُصلحين على مدى تاريخ البشرية الطويل.

إن ما يَحْصُلُ من تخلف المسلمين في النواحي المدنية والحضارية التي حدثت في القرنين السابقين، وما زالت تحدث في عصرنا هذا إنما كان بسبب عَدَمِ اتباع ما أمر الله تعالى به ورسوله.

وقد جعل القرآن الكريم مَدَارَ العبادات كُلِّها على اتِّباع ما جاء به رسولُ الله ﷺ في الظاهر، فليس لأحد فيها رأيٌ شخصيٌّ، ولا رئاسة ولا رجحان، ومدارُها في الباطن على الإخلاص لله تعالى وصِحَّةِ النية. وكُلُّ واحدة من النقاط السابقة جديرةٌ بأن تُجَعَلَ مقصدًا خالصًا من مقاصد الوحي، ويُستَدَلُّ بها على أنه من الله تعالى، قرآنًا معجزًا في أحكامه التشريعية، جالبًا مصالح العباد معه.

إنَّ القرآن الكريم يبدأ بتربية الفرد؛ لأنه لَبَنَةُ المجتمع، ويطبق تربيته على تحرير وجدانه، وتحمُّله للتَّبَعَةِ، يحرِّر القرآن الكريم وجدانَ المسلم بعقيدة التَّوْحِيد الذي يُخلِّصه من سُلْطان الخُرافة والوهم، ويُفكُّ أسرَه من عبودية الأهواء والشَّهوات، حتى يكون عبدًا خالصًا لله سبحانه وتعالى.

وإذا صَحَّتْ عقيدةُ المسلم كان عليه أن يأخذ شرائع القرآن في الفرائض والعبادات، فكلُّ عبادةٍ مفروضة يُراد بها صلاحُ الفرد، ولكنَّها مع ذلك ذات

عَلاَقة بصِلاح الجماعة، ومن تربية الفرد ينتقل الإسلام إلى بناء الأسرة؛ لأنها نواة المجتمع.

فَمِنْ وجوه الإعجاز التشريعي في القرآن أنه راعى درجات البَشَر في العقل والفهم، وعلوَّ الهِمَّة وضمَّعَها، فالقطعيُّ منه هو العامُّ، وغيرُ القطعي تتفاوت فيه الأفهام، فيأخذ كلُّ أحدٍ - من أهل الاجتهاد - بما أَدَّاهُ إليه اجتهاده، فالفرائض التَّعبُديَّة والمحرَّمات الدينيَّة العامة لا تثبت إلا بنصِّ قطعيٍّ يفهمه كلُّ أحدٍ.

ولقد أرسى القرآن الكريم مبدأ معاملة الناس بظواهرهم، وجعل البواطن موكولةً إلى الله تعالى، فليس لأحد من الحكَّام، ولا الرؤساء ولا القضاة، ولا لخليفة المسلمين أن يُعاقب أحداً ولا أن يُحاسبه على ما يُضمِر في قلبه أو يعتقد، وإنما العقوبات فقط على المخالفات العمليَّة المتعلِّقة بحقوق الناس ومصالحهم.

وفي القرآن الكريم يقوم الحكم على أسس العدل التامِّ، والمساواة بين جميع الناس، وكلُّ ما من شأنه أن يحفظ سلامة المجتمع، ويحافظ على أمنه واستقراره، قال تعالى في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٣٥﴾، كما قال تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣﴾، وفي سورة النساء: ﴿وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ٥٨﴾.

والإسلام دينٌ وسط جامع لحقوق الروح والجسد، وشرع لكل جانب منهما ما يناسبه ويرضيه، كما يجمع مصالح الدنيا والآخرة، مصداقاً لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَىٰ

النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾، كما أن غاية الإسلام -التشريع الإسلامي- وصول الإنسان إلى سعادة الدنيا والآخرة، بتزكية النفس بالإيمان الصحيح، ومعرفة الله والعمل الصالح، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال، ولا بالشفاعات وخوارق الأعمال وإعمار الأرض، وهو ما يدل عليه ربط القرآن الكريم بين الإيمان والعمل في ندائه للمؤمنين، قال تعالى في سورة التوبة: **﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرَیَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٥)**، وهو دين يُسر؛ فلا حرج فيه، ولا عسر ولا إرهاق، قال تعالى في سورة الحج: **﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (٧٨)**.

كما أن الإسلام منع الغلو في الدين، وأبطل تعذيب النفس، وأباح الطيبات والزينة بدون إسراف ولا كبرياء، فقال تعالى في سورة الأعراف: **﴿بَنِيَّ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١)** قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ **﴿٣٢﴾** قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ **﴿٣٣﴾**، وقال تعالى في سورة المائدة: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ (٧٧)**، فنهى عن الغلو في العبادة، وعن ترك الطيبات، وعن الرهبانية، وقال تعالى في سورة الحديد: **﴿... وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنَاءَ ابْدَعُوهَا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَارِعُوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا...﴾ (٢٧)**.

ولم يتوقف القرآن الكريم عند الأحوال والنواحي الشخصية فقط، وإنما تعدى ذلك إلى السياسة بمفهومها الإسلامي العام -وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق-، فالحكم الإسلامي يتخذ مبدأ الشورى كأساس في تقريره، وما الإمام الأكبر أو الخليفة -أو الرئيس أو الملك أو القائد- إلا منفذٌ لشرع الله في الأرض، لقوله تعالى في سورة الشورى: **﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا**

الصَّلَاةُ وَأَمْرُهُمْ شُورَى... ﴿٣٨﴾، وَبَيَّنَّ الْإِسْلَامُ أَنَّ هُنَاكَ طَائِفَةً مِنَ الْأُمَّةِ يُجِبُ عَلَى الْخَلِيفَةِ أَنْ يَسْتَشِيرَهُمْ فِي مَصَالِحِهَا، وَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ الَّذِينَ تَتَّقَى بِهِمُ الْأُمَّةُ، وَتَتَّبِعُهُمْ فِيمَا يَقْرَرُونَهُ، وَكَانَ أَوَّلُ مَنْفَذٍ لِلْمَشُورَةِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَكُنْ يَقْطَعُ أَمْرًا مِنْ أُمُورِ السِّيَاسَةِ وَالْإِدَارَةِ الْعَامَّةِ لِلْأُمَّةِ إِلَّا بِاسْتِشَارَةِ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْمَكَانَةِ فِي الْأُمَّةِ، لِيَكُونَ قَدْوَةً لِمَنْ بَعْدَهُ، قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: **﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ... ﴿١٥٩﴾﴾**. انْتَهَى الْاِقْتِبَاسُ.

[١-١٣] ومن أهمّ نقاط إعجاز القرآن الكريم:

[١-١-١٣] الشمول:

وَيُقْصَدُ بِهِ الشُّمُولُ الزَّمَانِي، وَالشُّمُولُ الْمَكَانِي، وَالشُّمُولُ الْمَوْضُوعِيُّ، أَيْ: إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَشْمَلُ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ كَافَّةً عَلَى اخْتِلَافِهَا وَتَنَوُّعِهَا.

وهو يشتمل على المقاصد الأساسية والقواعد الكلية للشريعة الإلهية، التي تنظم كلّ شؤون الحياة، وفي الوقت نفسه تُحَقِّقُ الْعَدْلَ التَّامَ وَالْمَسَاوَاةَ بَيْنَ جَمِيعِ الْبَشَرِ، بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الْانْتِمَاءَاتِ الدِّينِيَّةِ أَوِ الْعَرَقِيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا، وَهَذَا - بِالْقَطْعِ - لَا يَدْخُلُ تَحْتَ اسْتِطَاعَةِ أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ كَائِنًا مَنْ كَانَ؛ وَلِذَلِكَ، وَمِنْ أَجْلِ صَيَانَةِ الْمَجْتَمَعَاتِ وَسَلَامَتِهَا، يُقَرَّرُ التَّشْرِيعُ الْقُرْآنِيُّ الْحِفَاطَ عَلَى مَا يَسْمَى فِي الشَّرْعِ بـ «الْكُلِّيَّاتِ الْخَمْسِ» - وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ زَادَ سَادِسَةً -، وَهِيَ كَمَا يَلِي:

[١-١-١-١٣] مقاصد الشريعة الإسلامية^(١):

[أ] الحفظ على الدين:

يقول الإمام الشاطبي^(٢) - رحمه الله - أَنَّ حِفْظَ الدِّينِ يَقُومُ عَلَى قَضِيَّتَيْنِ:

١. مقتبس بتصرف من مقال للدكتور محمد أحمد محمود - جامعة الأزهر.

٢. القاسم (أبو محمد) الشاطبي ولد في شاطبة في الأندلس في عام ١١٤٤ م. - ٥٣٨ هـ، وهو ضريح وأحد الأعلام الكبار المشتهرين في الأقطار الإسلامية وأبرز علماء القراءات وعالم عقيدة ومحدث. وقد انتقل إلى مصر بعد استقلال صلاح الدين الأيوبي بالحكم في مصر في سنة ٥٧٢ هـ. وتوفي سنة ١١٩٤ م. - ٥٨٩ هـ.

الأول: بالمحافظة على ما يُقيم أركانه ويثبت قواعده.

الثاني: برفع الفساد الواقع، أو دفع الفساد المتوقع.

من أجل ذلك جاءت نصوص كثيرة في القرآن والسنة تحث على حفظ الدين وحمايته، وحفظ كيانه، تأسيسًا وتثبيتًا لوجوده، ودفعًا ورفعًا لكل ما يُقصد إليه من مجاوزة حدوده.

[الدين هو: الشرع الإلهي من خالق البشر، المُتلقى عن طريق الوحي، مما يسوق إلى الحق في المعتقد، والخير في السلوك، مما يؤدي إلى خيري الدنيا والآخرة، للأفراد والأسرة والمجتمعات والأمم].

إنَّ الآيات التي جاءت قاصدة بالحث على حفظ الدين كثيرة، سواء أكان ذلك من حيث التأكيد على الالتزام به والتدين، أو النهي عما يُضاده من ألوان الكفر والشرك والنفاق، فلقد بينت شرعة الإسلام أنَّه لا دينَ صحيحًا غير «الإسلام» فقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥)، وقال أيضًا في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا أَلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٩)، ويبيِّن لنا أنَّ هذا الدين كامل، فلا يجوز لعبد أن يزيد فيه، ولا أن ينقص منه؛ لأنَّ مَنْ شَرَعَهُ هو ربُّ العالمين، وليس للعبد أن يتدخل في شريعته، فقال تعالى في سورة المائدة: ﴿... أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ (٣)؛ لأجل ذلك كانت دعوة الأنبياء والمرسلين إلى عبادة الله والكفر بالطاغوت، قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ...﴾ (٣٦).

ولهذا حثنا تعالى على الدعوة إليه، فقال في سورة النحل أيضًا:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٦٥)، وحفاظًا على الدين شرع الله الجهاد للدفاع عن عقيدة التوحيد (الإسلام)، فقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٩٣)، وأمرنا الله تعالى بتحكيم شريعته فقال في سورة المائدة: ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٥٠)، وبين أن من لم يتحاكم إلى شريعته فهو غير مؤمن، قال تعالى في سورة النساء: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦٥)، كما أنه تعالى نهى عباده عن الشرك، وحذَّره من، فقال في سورة يونس: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٥)، كما طلب من المسلمين أن يدعوا أهل الكتاب بالحسنى وإلى كلمة سواء، وهي أن نعبد جميعًا الله وحده، ولا نُشرك به أحدًا، وقال عز وجل في سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤)، وقال عز من قائل في سورة النساء: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾ (٣٦)، ونهى عن طاعة المشركين، وبين أن المرء يُشرك به إذا أطاعهم (في معصية الخالق)، فقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿... وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ لِيُجَدِّ لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (١١١).

إلى غير ذلك من النصوص الأخرى الحاثَّة على قضية هذا الدين، وأهميَّة حفظه وحياطته، والنهي عمَّا يُمأسُّه من الشرك والنفاق والكفر بالله، والعياذ بالله.

[ب] الحفاظ على النفس:

لقد كَرَّمَ القرآنُ الإنسانَ، وبيَّن أنه خليفةُ الله في الأرض، وحرَّم قتل الإنسان لنفسه؛ لأنها ليست ملكًا له، إنما هي ملك لله وحده، وقال في سورة النساء: ﴿... وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾، كما شرع القصاص، وجعله ظرفًا للحياة [أي: لردع المعتدين، ودونه لا يمكن أن تستقر الحياة]، في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾، وقال تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٍ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٍ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٢﴾، فالتعدي على النفس الإنسانية في التشريع الإسلامي من أخطر الجرائم؛ لأن الإسلام أعلى من شأن الإنسان، فقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾، ومن ثمَّ فقد شدد في العقوبة على من يعتدي على حياة غيره بغير حق.

ولا شك أن رحمة الله عظيمة للمجتمع بفرضه القصاص؛ لأن من يهْمُ بقتل غيره وهو يعلم أن في ذلك هلاكه سوف يتردد، أو لا يقدم على هذه الجريمة الشنعاء؛ خوفًا على حياته.

كذلك من يريد الاعتداء على الآخرين أو النيل منهم، حينما يعلم عقوبة القصاص، فلا شك أنه سوف يفكر، وقد يرتدع قبل الإقدام أو اقرار الجريمة؛ لأن القصاص عقاب رادع، وقد بيَّن القرآن الكريم أن القصاص أيضًا مما شرعه الله سبحانه وتعالى وأنزله في التوراة، فقال الله سبحانه في سورة المائدة:

﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ، فَهُوَ

كَفَّارَةٌ لَهُ. وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾، أي: إن الله أوصى أن النفس التي تقتل نفساً أخرى عن سابق قصدٍ وترصدٍ (القتل عمداً) أن تُقتل، وما دون القتل يُقتَصَّرُ من الفاعل على حسب الحال وتقدير الحاكم أو القاضي، كما فتح الله باب العفو أيضاً لمن تنازل عن حقه.

[ج.] الحفاظ على العقل:

ومن أجل الحفاظ على العقل الذي هو مناط التكليف في الإسلام، وأكبرُ نعمةٍ أنعم الله بها على الإنسان حرَّم القرآن الكريم شربَ الخمر، قال سبحانه في سورة المائدة: **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾**، وقد كان تحريمُ الخمر بتدرُّج؛ لأن العرب قبل الإسلام كانوا مُولعين بشربها، وأول ما نزل في شأنها في سورة البقرة: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ... (٢١٩)﴾**، أي: يسألون الرسول ﷺ حول التجارة في الخمر، فلمَّا نزلت هذه الآية ترك الخمر بعضُ الناس، وقالوا نأخذ منفعتها ونترك إثمها، فنزلت هذه الآية في سورة النساء: **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى... (٤٣)﴾**، فتركها بعضُ الناس، وقالوا: لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة، وشربها بعضُ الناس في غير أوقات الصلاة، حتَّى نزلت هذه الآية في سورة المائدة: **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ... (٩٠)﴾**، فصارت حراماً عليهم وتركوها جميعاً، حتى صار يقول بعضهم: ما حرَّم الله شيئاً أشدَّ من الخمر.

[د.] الحفاظ على العِرْضِ (النسل / النسب):

لقد شرع القرآن الزواج؛ استجابةً للغريزة الفطرية، وإبقاءً على النوع الإنساني في تناسلٍ نظيفٍ، ويقوم رِباطُ الأسرة في الزواج على المودة والرحمة، قال تعالى في سورة الروم: **﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ**

يَنْفَكِرُونَ ﴿٢١﴾، قال ابن كثير: ﴿مَوَدَّةٌ﴾ وهي المحبة، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وهي الرأفة، فإنَّ الرجل يمسك المرأة، إمَّا لمحبةٍ لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولدٌ، أو لحاجة إليه في الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك.

وأوجب أن تكون عشرة الرجال لهنَّ بالمعروف، فقال في سورة النساء: ﴿وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ﴿١٩﴾ وهو في الرعاية والمبيت، والتَّفَقُّة، والإجمال في القول. وللرجال حقوق وللنساء حقوق قرَّرها القرآن المجيد، فقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ﴿٢٢٨﴾.

ومن أجل الحفاظ على العِرض والنسل، شرع القرآن الكريم حدَّ (عقاب) الزنى في قوله تعالى في سورة النور: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٤﴾، هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، أن يُجلد كل منهما مائة جلدة، بخلاف الزاني المحصن (المتزوج)، أو الزانية المُحصَّنة (المتزوجة)، فقد دلت السُّنة الصحيحة على أنَّ الحدَّ لكل منهما هو الرجم [الرمي بالحجارة حتى الموت، وهذا من أجل الاعتبار من هذه الفعلة الشنيعة، وقد اختلف العلماء المتأخرون حول نسخ الرجم؛ ولذلك فإن الكثير منهم قالوا: إن الرجم ليس لازماً، وأقرُّوا عقاباً تعزيراً: إما الجلد أو الحبس، والله أعلم].

ومن أجل الحفاظ على العِرض أيضاً شرع القرآن الكريم حدَّ القذف، وهو الاتهام بالفاحشة، في قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٤﴾، وفي الوقت نفسه أمر القرآن الكريم بغضِّ البصر (للذكر والأنثى)، ونهى عن إبداء ما لا يجوز إبدائه من الزينة في قوله سبحانه في سورة النور: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ وقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ

وَلَا يَدِينُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ
أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ
نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ أَوِ التَّبِيعَاتِ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ
الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ
زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢١﴾ ، وَتُوصِي

هذه الآيات المؤمنين والمؤمنات بغض البصر عن الحرام، ورعاية حدود
الأدب والحياء والعفة؛ لكي يُحال دون بروز الفحشاء في المجتمع، كما أطر
الإسلام العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة في إطار الزواج، وخارج هذا
الإطار هو حرام وغير جائز إطلاقاً.

وعن قضية تعدد الزوجات - التي يحاول أن يستغلها بعض المُشكِّكين
والمُغرضين - فإن الإسلام لم ينشئ قضية التعدد، بل كانت معروفةً وسائدةً
في المجتمعات السابقة قبل الإسلام، الذي رخص في التعدد، وقيده بشرط
العدل، وحذر أشد التحذير من الظلم أو الجور، بل أمر بالاكْتفاء بواحدة
عند الخوف من عدم العدل، ويدل على ذلك ما روي من أن غيلان بن سلمة
الثَّقَفي رضي الله عنه أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية، فأسلمن معه، فأمره
النبي ﷺ أَنْ يَتَخَيَّرَ أَرْبَعًا مِنْهُنَّ، علماً بأن المجتمعات غير المسلمة يُباح فيها
التعدد المحرَّم، فالتعدد في المجتمعات الإسلامية تعددٌ مقيد بشروط، وهو
في إطار سياق من الحق والفضيلة وحفظ الحقوق وحفظ المجتمعات، وهو
على سبيل التخيير، وما نشهده اليوم من تفسُّخ بعض المجتمعات هو نتيجة
اتِّخاذ خليات كثيرة في الخفاء، بعيداً عن الأصول الشرعية.

[هـ.] الحفاظ على المال (الملكية):

المال في اللغة هو كل ما له قيمة مما يملك من جميع الأشياء، وعند
جمهور أئمة الفقه الإسلامي المال هو ما يعد في الصرف مَالاً -نقوداً- وكل
ما يمكن حيازته والانتفاع به سواء كان ثميناً كالذهب والفضة والحيوان

والنبات والأشياء وغيره أو منفعة كالأعيان والأراضي والمساكن سواء كان مالکها أو مستأجرها أو عروضاً كمال التجارة والسندات وأدوات الاستثمار كالأسهم أو مثل ذلك...

لم يهمل القرآن الكريم الإرشاد إلى أن المال وسيلة من وسائل الحياة المتعددة، فبين القرآن حقيقة المال التي يجب أن يعيها الإنسان جيداً، فقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿تَتَّبِعُوا فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ (١٨١)، فالمال فتنه للبشرية جميعاً، ووسيلة للسعادة والفلاح، أو الخزي والذل، فمن أنفق في وجوه الخير نال وسيلة السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٩٢)، وفي آية أخرى في سورة البقرة: ﴿وَمَا نُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (١١٠)، ومن أنفق في وجوه الشر والفساد نال من الله العذاب الأليم، لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥)، كما خاطب الله تعالى الذين يستخدمون المال في الصد عن سبيل الله فقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْقَرُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٦).

ولم يقتصر القرآن على الجانب النظري فقط في محاربة الأمراض (المجتمعية) المتعلقة بالمال، وإنما تعدى ذلك إلى الجانب العملي، بتشريعه للزكاة، وبيانه لطرق صرفها، وتحريمه للربا، فقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٠)، وكذلك تحريمه للرشوة وأكل أموال الناس بالباطل، لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٨)، ونهى كذلك عن تطفيف الميزان، فقال تعالى في سورة المطففين: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ

إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾، وغير ذلك من وجوه التشريع في القرآن الكريم، والتي تدلُّ دلالة واضحة على صدق النبي ﷺ في ما أوحاه ربُّه سبحانه وتعالى.

ومن أجل الحفاظ على المال (الملكية)، وحقوق الناس، وأمن المجتمع، شرع القرآن الكريم حدَّ السرقة في قوله سبحانه في سورة المائدة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٣٨﴾، ذلك أنَّ السرقة نَزْعَةُ شَرِيرَةٌ ربَّما تحمل صاحبها، أو تجرُّه إلى ارتكاب جرائم شنعاء في سبيل الاستيلاء على مال الغير، بدافع من خُبث الطبع، أو فساد المنشأ، وسوء التربية. وقد تؤدي هذه النزعة الشريرة عند بعض المجرمين إلى تكوين عصابات من الأشرار، وقد تسطو على أموال البنوك وخزائن الحكومات، من أجل هذا كانت هذه العقوبة الرادعة لكل مَنْ تُسَوَّلُ له نفسه العدوان على مال الغير، وقد رأينا كيف أنَّ رسول الله ﷺ لم يقبل شفاعَةَ أسامة بن زيد في المرأة المخزومية، فعن عائشة رضي الله عنها أنَّ قريشاً أهتمَّتْهم المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: مَنْ يَكَلِّمْ رسولَ الله ﷺ؟ ومن يجترئ عليه إلَّا أسامة بنُ زيد حبَّ رسولِ الله ﷺ، فكلمَ رسولَ الله ﷺ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِئِمُّوا لِلَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَيَّهَا» (رواه البخاري)، وقد اجتهد العلماء في تقدير هذا العقاب حسب ظروف السارق ومقدار الأذى من هذه الفعلة الشنيعة.

وقد أضاف بعض العلماء مقصدًا سادسًا وهو الحفاظ على النظام العام، وعَدَّه بعضهم من ضمن مقاصد الحفاظ على المال والنفس.

[و.] الحفاظ على النظام العام:

ومن أجل الحفاظ على النظام العام، وضمان أمن المجتمع واستقراره شرع القرآن الكريم حدَّ الحِرَابَةِ (قطع الطريق عن طريق جماعات مسلحة

للسلب والنهب والإرهاب وقتل وسفك الدماء)، في قوله سبحانه في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٣)، فالمحاربون لله ورسوله هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض بالكفر والقتل والتخريب، وأخذ الأموال، وإخافة المسافرين، والعَبَث في الأمن.

والمشهور أنَّ هذه الآية الكريمة في أحكام قُطَّاع الطُّرُق، الذين يَعْرِضُونَ للنَّاس في المدن والقرى والبوادي، فيغصبونهم أموالهم، ويقتلونهم، ويخيفونهم، فيمتنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها، فينقطع عنهم بذلك سفرهم، فأخبر الله أن جزاءهم - عند إقامة الحدِّ عليهم - أن يُفَعَّلَ بهم أحدُ هذه الأمور، وأن عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم، فكل جريمة لها قِسط يقابلها، كما تدل عليه الآية بحكمتها وموافقتها لحكمة الله تعالى، وأنَّهم إن قُتِلُوا وأُخِذُوا مَالًا تَحَتَّم قَتْلُهُمْ وَصَلْبُهُمْ، حتى ينزجر ويرتدع غيرُهم، وإن قُتِلُوا ولم يأخذوا مَالًا تَحَتَّم قَتْلُهُمْ فَقَطْ، وإن أخذوا مَالًا ولم يقتلوا تَحَتَّم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف: اليد اليمنى، والرجل اليسرى. وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا ولا أخذوا المال، نُفُوا مِنَ الْأَرْضِ (أي: يسجنوا)، حتى تظهر توبتهم، وهذا قولُ ابن عباس رضي الله عنه وكثير من الأئمة، على اختلافٍ في بعض التفاصيل.

[٢-١-١-١٣] الأحكام في القرآن الكريم

(هذا تقسيم اصطلاحي تعارف عليه العلماء للتوضيح والتبيين):

الأحكام جمع حُكْم، ومعناه في اللغة: القضاء والعدل؛ لذا يسمى الحاكم بين الناس قاضياً يصدر الأحكام القضائية، وتأتي بمعنى العلم والفقه.

واصطلاحًا: هو ما اقتضاه الشرع وهنا القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة المتواترة أو ثابتة وهي قواعد متعلقة بأفعال المكلفين من الناس من طلب أو تخيير أو وضع (ترك) وقد قسم العلماء الأحكام التي جاء بها القرآن الكريم إلى:

الأول: أحكام اعتقادية:

تتعلق بما يجب على المكلف اعتقاده في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقضاء والقدر (أركان الإيمان)، ولهذا العلم أسماء أخرى، منها: الإيمان، والتوحيد، وأصول الدين.

مثاله قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿١٣٦﴾.

الثاني: أحكام خلقية:

تتعلق بما يجب على المكلف أن يتحلَّى به من الفضائل، وما يجب أن يتخلَّى عنه من الرذائل، وتسمَّى أيضًا بعلم الأخلاق. مثل قوله تعالى في سورة النور: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿٣٠﴾، وكقوله تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٩٠﴾.

الثالث: أحكام عملية (فقهية):

تتعلق بما يصدر عن المكلف من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات، وهذا النوع الثالث هو فقه القرآن، وهو المقصود الوصول إليه بعلم أصول الفقه الذي يتعلق بمصالح العباد في دنياهم وأخراهم. والأحكام العملية في القرآن تنظم في قسمين:

وهي: من صلاة وصوم وزكاة وحج ونذر ويمين ونحوها من العبادات، التي يقصد بها علاقة الإنسان بربه، مثل قوله في سورة البقرة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣) وقوله: أيضًا في السورة نفسها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣).

ولكل نوع من العبادات حكم شرعي، وهو ما يثبت بخطاب الله (كلامه) المتعلق بأفعال المكلفين على وجه الاقتضاء أو التحيز أو الوضع، والأحكام الفقهية خمسة مراتب:

«الواجب»: وهو ما يُثاب فاعله، ويأثم تاركه، كالصلاة، والصيام، والصدق، والإحسان إلى الجيران، ونحو ذلك.

«المستحب» أو «المسنون» أو «المندوب»: وهو ما يُثاب فاعله، ولا يأثم تاركه، مثل النوافل بجميع أنواعها من صلاة وصدقة وصيام في غير رمضان ونحوه.

«الحرام»: وهو الذي يُثاب تاركه، ويأثم فاعله كالزنى، والسرقه، وشرب الخمر، وعقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، ونحو ذلك.

«المكروه»: وهو ما يُثاب تاركه، ولا يعاقب فاعله، كالدخول إلى المسجد بالقدم اليسرى، أو الدخول إلى بيت الخلاء بالقدم اليمنى، ونحو ذلك.

«المباح»: وهو ما يستوي فعله وتركه في الشرع، كالأكل ونحو ذلك، والشرب والنوم، والمشي.

* ملاحظة: لم يذكر القرآن تفاصيل عن الصلاة وكيفيةها إنما بينها الرسول محمد ﷺ ودونت في السنة الشريفة وتعلمها الصحابة الكرام وتناقلوها وعلموها للأجيال التي بعدهم وكذلك الزكاة والحج وغيرها.

من عقود وتصرفات وعقوبات وجنایات وغيرها مما عدا العبادات، ويقصد بها تنظيم علاقة المكلفين بعضهم ببعض، سواء أكانوا أفراداً أم أمماً أم جماعات، فقد تنوعت أحكام المعاملات بحسب ما تتعلق به وما يقصد بها إلى الأنواع الآتية:

أ. أحكام الأحوال الشخصية:

وهي التي تتعلق بالأسرة من بدء تكونها، ويقصد بها تنظيم علاقة الزوجين، كالزواج، والطلاق، والعدة، والأقارب بعضهم ببعض، وآياتها في القرآن نحو ٧٠، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَرْبِضَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعُولِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ...﴾ (٢٣٨)، وكقوله تعالى في سورة النساء: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ...﴾ (١١).

ب. الأحكام المدنية (المعاملات المالية):

وهي التي تتعلق بمعاملات الأفراد ومبادلاتهم، من بيع، وشراء، وإجارة، ورهن، وكفالة، وشركة، ويقصد بها تنظيم علاقات الأفراد المالية، وحفظ حق كل ذي حق، وآياتها في القرآن نحو ٧٠، مثل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ...﴾ (٢٧٥)، وقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ...﴾ (١)، وكذلك في آية الدين في سورة البقرة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ...﴾ (٢٨٢).

ج- الأحكام الجنائية (العقوبات):

وهي التي تتعلق بما يصدر عن المكلّف من جرائم، وما يستحقه من عقوبة عليها، ويُقصد بها حفظُ حياة الناس وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم، وتحديد علاقة المَجْنِي عليه بالجاني وبالْأُمَّة، وآياتها في القرآن نحو ٣٠، مثل قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٨)، وكقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣٢).

د- أحكام المرافعات (القضائية):

وهي التي تتعلق بالقضاء والشهادة واليمين، ويُقصد بها تنظيمُ الإجراءات لتحقيق العدل بين الناس، وآياتها في القرآن نحو ١٣، كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُوفًا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (٨)...، وكقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿...وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءِثْمٌ قَلْبُهُ...﴾ (٢٨٣).

هـ الأحكام الدستورية (السياسة الشرعية):

وهي التي تتعلق بنظام الحكم وأصوله، ويقصد بها تحديدُ علاقة الحاكم بالمحكوم، وتقديرُ ما للأفراد والجماعات من حقوق، وآياتها نحو ١٠ آيات، كقوله تعالى في سورة الشورى: ﴿... وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ...﴾ (٣٨)، وكقوله تعالى في سورة النحل: ﴿...إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾ (٩٠). وكقوله في سورة المائدة: ﴿وَأَن أٰحْكَمَ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ...﴾ (٤٩). وكقوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ (١٠).

و- الأحكام الدولية (السّير والمعاهدات):

وهي التي تتعلق بمعاملة الدولة الإسلامية لغيرها من الدول، وبمعاملة غير المسلمين في الدول الإسلامية، ويقصد بها تحديد علاقة الدول الإسلامية بغيرها من الدول في السّلم وفي الحرب، وتحديد علاقة المسلمين بغيرهم في بلاد الدول الإسلامية، وآياتها نحو ٢٥، كقوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ نَبَرُّوهُمْ وَنُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾. وكقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ... ۝٦١﴾.

ز- الأحكام الاقتصادية والمالية:

وهي التي تتعلق بحق السائل والمحروم في مال الغني، وتنظيم الموارد والمصارف، ويقصد بها تنظيم العلاقات المالية بين الأغنياء والفقراء، وبين الدول والأفراد، وآياتها نحو ١٠، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿... وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ... ۝٢٧٥﴾، وكقوله تعالى في سورة النساء: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ... ۝٢٩﴾.

وللقرآن الكريم منهج متميز في عرض الأحكام الشرعية ومن استقرى آيات الأحكام في القرآن يتبين أن أحكامه تفصيلية في بعض العبادات وما يلحق بها من الأحوال الشخصية والمواريث، لأن أكثر أحكام هذا النوع تعبدية ولا مجال للعقل فيه، ولا يتطور بتطور البيئات، وأما في ما عدا العبادات والأحوال الشخصية من الأحكام المدنية والجنائية والدستورية والدولية والاقتصادية، فأحكامه فيها قواعد عامة، ومبادئ أساسية، (وتفسيراتها مع بعض التفاصيل من السنة النبوية الشريفة)، ولم يتعرض فيها لتفصيلات جزئية إلا في النادر؛ لأن هذه الأحكام تتطور بتطور البيئات والمصالح، فاقصر القرآن فيها على القواعد العامة والمبادئ الأساسية، ليكون ولاء الأمر في كل عصر في سعة من

أن يُفصلوا قوانينهم الفرعية فيها حسب مصالحهم، في حدود أُسس القرآن، من غير اصطدام بحكم جزئي فيه.

✽ ملاحظة:

ما تم ذكره من الأحكام ما هي إلا أمثلة للتوضيح والتبسيط ومن أراد التبحر فيها والاستزادة منها فيمكنه الرجوع إلى الكتب المقررة والمعتمدة.

[٢-١-١٣] السَّعة والمرونة:

التشريع الإسلامي يمتاز بالسَّعة والمرونة التي تسع الجميع من الفقهاء والعلماء المجتهدين، هذه السعة التي تُتيح الاختلاف المشروع بين الفقهاء، وهو اختلافٌ تنوع لا اختلافٌ تضادٌ، واختلافٌ في الفروع لا في الأصول، والقرآن المجيد في كل هذا لا يتبدل أو يتغير، ولا يتناقض، قال تعالى في سورة النساء: ﴿...وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢)، فأدلة بعض الأحكام في القرآن هي بين القطع أو الظن (من حيث الدلالة)، ويفصل فيها حديث الرسول ﷺ، فإن لم نجد إجماع العلماء، ثم القياس، فالعرف والاجتهاد، بخلاف أدلة العقيدة؛ فهي يقينية قطعية لا مجال فيها للظن أو الاجتهاد.

قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره: (المسألة الخمسون): دلالة الألفاظ على معانيها ظنية؛ لأنها موقوفة على نقل اللغات ونقل الإعراب والتصاريف، وأحوال الناقلين - لو كانوا آحادًا - (أي: عددًا لا يصل إلى حد التواتر)، ورواية الآحاد لا تفيد إلا الظن، وأيضًا فتلك الدلائل موقوفة على عدم الاشتراك، وعدم المجاز، وعدم الإجمال، وعدم التخصيص، وعدم وجود المعارض العقلي؛ فإنه بتقدير حصوله يجب صرف اللفظ إلى المجاز.

ومثال ذلك: اللفظ المشترك في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَالْمُطَلَقَاتُ يَرَبِّصْنَ أَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...﴾ (٢٢٨)، ذلك أن لفظ «القرء»

من الألفاظ المشتركة؛ لأنه يدل بالتساوي على معنيين اثنين، هما «الحيض» و «الطهر»، وهنا يأتي دورُ الفقيه العالم أو المجتهد التقي في تعيين المعنى المراد، والقرينة هي التي تحدد ذلك، ومثال ذلك أيضًا قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ...﴾ (٦)، حيثُ اختلف في المراد بقوله سبحانه: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾، فأخذ الإمام مالك بالاحتياط، وأوجب الاستيعاب أي: استيعاب كل الرأس بالمسح، وأما الشافعي، فقد أوجب أقل ما يقع عليه اسم المسح، وأخذ الإمام أبو حنيفة ببيان الرسول ﷺ حيثُ ورد أنه قد مسح على ناصيته، وقدروها بربع الرأس، وكل ذلك جائز.

[٣-١-١٣] الإيجاز في آيات الأحكام في القرآن الكريم:

ولقد جاءت آيات الأحكام غايةً في الإيجاز البليغ، مع شمولها كل جوانب الأحكام التي تناولها، فهي موجزة وشاملة، والجمع بين الشمول والإيجاز لونٌ من الإعجاز. من الأمثلة على هذا النوع من الإعجاز:

أ. آية الدِّين (والبيع):

يقول الله في سورة البقرة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا

يُضَآءَرُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقُكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ
 اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٨٢﴾، حيث دعا الإسلام إلى كتابة الدين والإشهاد
 عليه، ليعلم الدائن والمدين أو ورثتهم حقوقهم وواجباتهم فيما بينهم؛ لأن
 مرور السنين مدعاة للنسيان، كما يؤدي عدم كتابة الدين إلى التنازع، وإنكار
 المدين الحق المتوجب عليه نحو الدائن كما يحصل اليوم عند بعض الناس،
 واشترط الإسلام أن يكتب وثيقة الدين كاتب عالم بشروط العقود وتوثيقها
 وبأحكام الشريعة، وخير بمعاملات الناس، وأن يتحرى العدل بين الطرفين،
 بأن لا يزيد ولا ينقص في الدين الذي يكتبه، وفي هذا دعوة إلى أنه ينبغي أن
 يكون من بين الناس كتّاب متخصصون للقيام بهذه المهمة، وهو ما يعرف
 اليوم (بكاتب العدل)، وهذه التسمية مقتبسة أصلاً من النص القرآني.

ولا يكتفي القرآن بالدعوة إلى كتابة الدين، بل يدعو أيضاً إلى الإشهاد
 عليه؛ زيادة في التوثيق، وحرصاً على حفظ الحقوق من النكران، وذلك بطلب
 رجلين شاهدين عدلين، فإذا تعذر وجودهما فليقم مقامهما رجل وامرأتان
 من الذين يرضى وضعهم الاجتماعي وسيرتهم الحسنة، ويقولون الحق.
 والحكمة في أن المرأتين تقومان مقام رجل واحد في الشهادة ليس انتقاصاً من
 قدرها وأهليتها وثافتها، ولا دعوة لدرجة التعليم أو العمل، بل هي خشية أن
 تخطئ أو تنسى إحداها فتذكرها الأخرى، والسبب في خطئها أو نسيانها هو
 قلة ممارسة المرأة - عادةً - للشؤون المالية، وللحالات النفسية والجسدية
 التي تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل، وذلك مراعاةً لتثبيت الحقوق، وعدم
 تعرض أي من طرفي الحق لأي خطأ أو نسيان، والذي قد يكون خارجاً عن
 إرادة المرأة، فتعصّد إحداها الأخرى، أما اشتغال النساء بالمسائل المالية
 فهذا شأن آخر لا يغير الحكم؛ لأن الأحكام إنما هي للأغلب.

لقد جعل الله تعالى بعد الهجرة ولاية الأخوة بين الأنصار والمهاجرين،
 وكانت هذه الولاية أعم من ولاية الميراث، وكان المتأخيان يتوارثان فيما

بينهما، ولكنْ بعد أن نزلتْ هذه الآية من سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٧٥﴾، جعل الله ولاية الإرث بين الأرحام والقربات فقط، ثم نزلت آيات الميراث تُفصل نصيب الورثة.

ب. آية الزكاة:

قال تعالى في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٦٠﴾.

وكلمة (إِنَّمَا) يُرَادُ بها القصر، أي: على هؤلاء الأصناف الثمانية، وتسمى (المصارف).

أما لماذا لم يُقَلَّ الحق سبحانه وتعالى الزكاة وقال الصدقة؟

فيقول الشيخ متولي الشعراوي في هذا الأمر: «إنه في المجتمعات غير الإيمانية - الملحدة - من الناس مَنْ يَفْكُرُونَ في إنشاء مؤسسات اجتماعية لرعاية الفقراء، وإن عطف الإنسان على أخيه الإنسان هو أمر غريزي خلقه الله فينا جميعاً؛ ولذلك كان يجب أن نفهم أن الزكاة صدقة، ولو لم يشرعها الله لكان يجب أن يقدمها الإنسان لأخيه الإنسان. وحوادث الكون كلها تدل على صدق وصف الحق سبحانه وتعالى للزكاة بأنها صدقة؛ لأنها تأتي تطوعاً من غير المؤمن وغير الملتزم بالتشريع، ويحس القادر بالسعادة وهو يعطي غير القادر، وهي غريزة وضعها الله في خلقه ليخفف من الشقاء والفقر في الكون، ولا تحل للأغنياء، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَحُلَّ الصَّدَقَةُ لَغْنِيٍّ، وَلَا لَذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ». (رواه أحمد وأبو داود والترمذي).

وَتُعَرَّفُ الصَّدَقَةُ بِأَنَّهَا الْعَطِيَّةُ الَّتِي يُبْتَغَى بِهَا الثَّوَابُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ تَنْقَسِمُ إِلَى نَوْعَيْنِ رَئِيسِيَّيْنِ :

١. صَدَقَةُ النَّافِلَةِ (التي تدفع في أي وقت وبأي قيمة، ومنها الصدقة الجارية).

٢. الصَّدَقَةُ الْمَفْرُوضَةُ وَهِيَ «الزَّكَاةُ»؛ لِأَنَّ اللَّهَ فَضَّلَهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ (٦٠) مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ)، وَهِيَ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِذَا بَلَغَ مَالُهُ النَّصَابَ، وَهُوَ حَدٌّ مُقَدَّرٌ شَرْعًا تَجِبُ الزَّكَاةُ عِنْدَ بُلُوغِهِ، وَيَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَمْوَالِ الَّتِي تَجِبُ فِيهَا الزَّكَاةُ، وَهِيَ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ أَوْ مَا يُقَابِلُهُ مِنَ الْعُمَلَاتِ النَّقْدِيَةِ وَتَبْلُغُ ٥, ٢٪ مِنْ قِيَمَتِهَا بَعْدَ مُضِيِّ الْحَوْلِ عَلَيْهَا (سنة هجرية)، وَيُرْجَعُ فِي تَحْدِيدِ النَّصَابِ لِكُلِّ نَوْعٍ إِلَى كُتُبِ الْفَقْهِ الْمُخْتَصَةِ.

أما المصارف الثمانية للزكاة فهي :

١. الفقراء (الذين لا يملكون شيئاً).
٢. المساكين (الذين لا يكفيهم دَخلُهُم).
٣. العاملون عليها (المتفرغون لتحصيل وإدارة أموال الزكاة وإيصالها إلى المحتاجين).
٤. المؤلفة قلوبهم (المسلمون الجدد؛ لتأليف قلوبهم وتشبيتهم على دين الإسلام).
٥. وفي الرقاب (أي: إعتاق العبيد - سابقاً -، والأسرى - اليوم -).
٦. الغارمون (المدينون الذين لا يستطيعون سداد ديونهم).
٧. في سبيل الله (ويشمل كل ما كان في سبيل الله، سواءً للجهاد عند فرضه من أولياء الأمر، أو في وقت السلم).
٨. ابن السبيل (من انقطعوا في البلاد دون زاد ولا مأوى).

ج- آيات المواريث (علم الفرائض):

والتي تشمل جميع حالات الوراثة حسب حاجات المجتمع، من غير إخلال في الحقوق لأيٍّ من الأطراف (الورثة)، ووردت آيات المواريث في القرآن الكريم خمس آيات (في سورة النساء) على وجه الإجمال والتفصيل، وهي:

أ. الآيات المجملة:

قوله تعالى في سورة النساء: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْقَرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٨﴾.

ب. الآيات المفصلة (على حسب الحالة وموقع الوارث):

قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنثَىٰ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١١﴾.

قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي

الثُّلُثُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ
أَمْرُكُمْ هَلْ يَسَّرَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ
فَإِنْ كَانَتْ أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ
حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢٦﴾

فلسفة الميراث في الإسلام:

ذكر الدكتور محمد عمارة رحمه الله في إحدى محاضراته عن آيات
الميراث ما يلي:

صحيحٌ وحقٌّ أن آياتِ الميراث في القرآن الكريم قد جاء فيها قولُ الله
سبحانه وتعالى في سورة النساء: ﴿... لِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ ... ﴾ (١١)،
لكن كثيرين من الذين يُثيرون الشبهاتِ حولَ أهليةِ المرأة في الإسلام،
مُتَّخِذِينَ مِنَ التَّمَايُزِ فِي الْمِيرَاثِ سَبِيلًا إِلَى ذَلِكَ، لَا يَفْقَهُونَ أَنَّ تَوْرِيثَ الْمَرْأَةِ
عَلَى النِّصْفِ مِنَ الرَّجُلِ لَيْسَ مَوْقِفًا عَامًّا وَلَا قَاعِدَةً مُطَّرَدَةً فِي تَوْرِيثِ الْإِسْلَامِ
لِكُلِّ الذَّكَورِ وَكُلِّ الْإِنَاثِ، فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَمْ يَقُلْ: يُوَصِّيكُمُ اللَّهُ فِي الْمَوَارِيثِ
وَالْوَارِثِينَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ، وَإِنَّمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ فِي سُورَةِ
النِّسَاءِ: ﴿يُوَصِّيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِهِ لِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ (١١)، أَي: إِنْ
هَذَا التَّمْيِيزُ لَيْسَ قَاعِدَةً مُطَّرَدَةً فِي كُلِّ حَالَاتِ الْمِيرَاثِ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي حَالَاتٍ
خَاصَّةٍ، وَمَحْدُودَةٍ مِنْ بَيْنِ حَالَاتِ الْمِيرَاثِ، بَلْ إِنْ الْفَقْهُ الْحَقِيقِيُّ لِمَقَاصِدِ
الْإِسْلَامِ فِي الْمِيرَاثِ يَكْشِفُ عَنْ أَنَّ التَّمَايُزَ فِي أَنْصَبَةِ الْوَارِثِينَ وَالْوَارِثَاتِ لَا
يَرْجِعُ إِلَى مَعْيَارِ الذَّكَورَةِ وَالْأُنُوَّةِ.. وَإِنَّمَا لِهَذِهِ الْفَلَسَفَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي التَّوْرِيثِ
حِكْمٌ إِلَهِيٌّ، وَمَقَاصِدُ رَبَّانِيَّةٌ قَدْ خَفِيَتْ عَنِ الَّذِينَ جَعَلُوا التَّفَاوُتَ بَيْنَ الذَّكَورِ
وَالْإِنَاثِ فِي بَعْضِ مَسَائِلِ الْمِيرَاثِ وَحَالَاتِهِ شُبْهَةً عَلَى كَمَالِ أَهْلِيَّةِ الْمَرْأَةِ

في الإسلام؛ ذلك أن التفاوت بين أنصبة الوارثين والوارثات - في فلسفة الميراث الإسلامي - إنما تحكّمه ثلاثة معايير:

أولها: درجة القرابة بين الوارث (ذكرًا أو أنثى)، وبين المورث (المتوفى)، فكلّما اقتربت الصلة زاد النصيب في الميراث.. وكلما ابتعدت الصلة (عن المتوفى) قلّ النصيب في الميراث، دونما اعتبار لجنس الوارثين.

ثانيها: موقع الجيل الوارث من التابع الزمني للأجيال، فالأجيال التي تستقبل الحياة، وتستعدّ لتحمل أعبائها، عادةً يكون نصيبها في الميراث أكبر من نصيب الأجيال التي تستدبر الحياة، وتتخفف من أعبائها، وتصبح أعباؤها - عادة - مفروضةً على غيرها، وذلك بصرف النظر عن الذكورة والأنوثة للوارثين والوارثات. فبنت المتوفى ترث أكثر من أمّه (وكلتاها أنثى)، بل وترث البنت أكثر من الأب (حتى لو كانت رضيعة لم تدرك شكل أبيها، وحتى ولو كان الأب هو مصدر الثروة التي للابن)، وكذلك يرث الابن أكثر من الأب (وكلاهما من الذكور)، وفي هذا المعيار من معايير فلسفة الميراث في الإسلام حكم إلهية بالغة، ومقاصد ربانية سامية تخفى على الكثيرين! وهي معايير لا علاقة لها بالذكورة والأنوثة على الإطلاق.

ثالثها: العبء المالي الذي يوجب الشرع الإسلامي على الوارث تحمله والقيام به حيال الآخرين.. وهذا هو المعيار الوحيد الذي يثمر تفاوتًا بين الذكر والأنثى.. لكنه تفاوت لا يفضي إلى أيّ ظلم للأنثى، أو انتقاص من إنصافها، بل ربما كان العكس هو الصحيح!

ففي حالة ما إذا اتفق وتساوى الوارثون في درجة القرابة، واتفقوا وتساوا في موقع الجيل الوارث من تابع الأجيال - مثل أولاد المتوفى، ذكورًا وإناثًا - يكون تفاوت العبء المالي هو السبب في التفاوت في أنصبة الميراث؛ ولذلك لم يُعمّم القرآن الكريم هذا التفاوت بين الذكر والأنثى في عموم الوارثين، وإنما حصّره في هذه الحالة بالذات، فقالت الآية القرآنية في

سورة النساء: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴿١١﴾﴾،
ولم يقل يوصيكم الله في (عموم الوارثين)، والحكمة في هذا التفاوت - في
هذه الحالة بالذات - هي:

أن الذَّكَرَ هنا مكلف بإعالة أنثى، بينما الأنثى الوارثة (أخت الذكر) إعالتها
مع أولادها فريضة على الذَّكَرِ المقترن بها، فهي - مع هذا النقص في ميراثها -
بالنسبة لأخيها الذي ورث ضعف ميراثها أكثر حظاً وامتيازاً منه في الميراث..
فميراثها - مع إعفائها من الإنفاق الواجب - هو ذمة مالية خالصة ومُدَّخرة، لجبر
الاستضعاف الأنثوي، ولتأمين حياتها ضد المخاطر والتقلبات، وتلك حكمة إلهية
قد تخفى على الكثيرين، (وهذا بغض النظر عما إذا كان الذكر متزوجاً أم لا).

وإذا كانت هذه هي الفلسفة الإسلامية في تفاوت أنصبة الوارثين
والوارثات - وهي التي يغفل عنها طرفاً الغلو الدينيّ واللا ديني، الذين
يحسبون هذا التفاوت الجزئي شُبْهَةً تلحق بأهلية المرأة في الإسلام - فإن
استقراء حالات ومسائل الميراث كما جاءت في علم الفرائض (المواريث)،
يكشف عن حقيقة قد تُذهل الكثيرين عن أفكارهم المسبقة والمغلوطة في
هذا الموضوع؛ فهذا الاستقراء لحالات ومسائل الميراث يقول لنا:

- ١- إن هناك أربع حالات فقط ترث فيها المرأة نصف نصيب الرجل.
 - ٢- وهناك حالات أضعاف هذه الحالات الأربع ترث فيها المرأة مثل نصيب الرجل تماماً.
 - ٣- وهناك حالات عشر أو تزيد ترث فيها المرأة أكثر من نصيب الرجل.
 - ٤- وهناك حالات ترث فيها المرأة، ولا يرث نظيرها من الرجال.
- أي: إن هناك أكثر من ثلاثين حالة تأخذ فيها المرأة مثل الرجل، أو أكثر منه أو ترث هي ولا يرث نظيرها من الرجال، في مقابلة أربع حالات محددة

ترث فيها المرأة نصف نصيب الرجل - كما ذكر الدكتور صلاح الدين سلطان في كتابه (ميراث المرأة وقضية المساواة: ص ١٠ / ٤٦) - .

تلك هي ثمرات استقرار حالات ومسائل الميراث التي حَكَمَتْهَا المعايير الإسلامية التي حددتها فلسفة الإسلام في التوريث.. وهي تتميز على كل أنظمة المواريث الأخرى المعمول بها حاليًا في البلدان غير الإسلامية من ناحية العدالة الاجتماعية والإنسانية، علمًا بأن تشريعات الإرث عندهم قد احتاجت إلى مجلدات عديدة، والعبرة ليست بكثرة التفاصيل، بل في سهولة الفهم، ووضوح الرؤية، وإيجاز الأحكام العامة، وهذا ما جاء في القرآن الكريم، والذي أوجز آيات الميراث (الأساسية - العامة) في خمس آيات فقط، وهذا من الإعجاز، ولله الحمد والمِنَّة.

مقارنة بين أنظمة الإرث في الديانات السماوية:

أولاً: نظام الإرث في الديانة اليهودية:

عندما ظهر التشريع اليهودي المستمدُّ أساسًا من التوراة، أقرَّ ما جاء في العديد من المواد القانونية للحضارات القديمة، وخاصة ما كان منها في «قانون حمورابي»، مما يدل على أن الفكر اليهودي قد تأثَّر تأثُّرًا كبيرًا بحضارة البابليين والآشوريين والمصريين، غير أنَّ التشريع اليهودي في الميراث أكثر شموليةً من قوانين تلك الحضارات؛ لأنه يحمل تفاصيلٍ وتفريعاتٍ حول التَّركَاتِ والهبات ومُستحقِّيها، فقد فصَّل الحديث في بيان شأن المستحقِّين، وبيَّن مقدار نصيب الفرد منها، ومن هم الذين يحق لهم ميراثُ المتوفَّى من الأبناء والأقرباء، وهو كذلك تشريع قاصر إذا ما تمَّتْ مقارنتُهُ مع ما جاء بعده من تشريعات.

كانت الشريعة اليهودية منذ بدايتها تقوم على حرمان البنت من الميراث، إلى أن قامت بناتُ صُلُفْحَادَ بن حَافَرَ بالاعتراض على ذلك لدى سيدنا موسى

عليه السلام، فرفع سيدنا موسى عليه السلام الأمر إلى الله سبحانه، ليحكم في هذه المسألة! فأنصفهم الله سبحانه وتعالى قائلاً لموسى: «بحق تكلمت بناتٌ صلفحاد، فتعطينهم ملك نصيب بين إخوة أبيهنّ، وتنقل نصيب أبيهن إليهن» (سفر العدد ٦: ٢٧-٧)، وكانت تلك الحادثة بدايةً لاستقرار أحوال الميراث للبنات، والتي حُسمت بأمر من الله عز وجل، فالواضح جداً أن نظام الميراث في الشريعة اليهودية نظامٌ لا يعالج الكثير من المشكلات والقضايا المرتبطة بالإرث؛ لأن القاعدة الشرعية الأساسية في شريعة موسى تقوم على أن الأبناء الذكور فقط هم الذين لهم الحق في الميراث، ولا حق لأحدٍ غيرهم في حالة وجودهم في هذا الميراث، ولقد سار اليهود على نظام توريث الولد دون البنت (إذا كان هناك أخ) وفي الكثير من الحالات، ويتضح ذلك في ما يلي:

أنه إذا مات ميتٌ فأوّل من يرثه ولده الذكّر، وإذا تعدد الذكور فللبكر حظٌّ اثنين من إخوته، هذا إن كان جميعُ أبناء الميت من الذكور، أما لو كُنَّ جميعاً إناثاً فإنه يُقسَمَ بينهنّ بالتساوي (كما نُقل سابقاً عن سفر العدد)، فإن كانت بنتاً واحدة فإنها تأخذ جميعَ المال، وشرط ميراث البنات ألا يكون للميت ولدٌ ذكّر.

واليهود يحرصون دائماً على جمع المال واكتنازه بمختلف الوسائل، وهذا يتماشى مع طبعهم في العيش، حيث يعيشون مُتَماسكين، ومن أجل ذلك كان من البدهيّ حرصهم كُّل الحرص على عدم توزيع ثروة الميت خارج أُسرته؛ لتحفظ الأسرة في ما بينها بأموالها التي تعبت في جمّعها، وتعزّز بها بوصفها وسيلةً للسيطرة والظهور في المجتمعات؛ لذلك هم لا يورثون المرأة، سواء أكانت بنتاً، أو أمّاً، أو زوجة، أو أختاً، ما دام يوجد لهذا الميت ابنٌ، أو أبٌ، أو قريب ذكر، كالأخ والعمّ، فالذكر يقدّم دائماً على الأنثى، وللشخص الحرية الكاملة في ماله، يتصرف به كيف يشاء بطريقة الهبة أو الوصية، وأن الزوج يرث زوجته، وهي لا ترثه، كما لا ترث الأمُّ من تركة الأبناء.

وليس هناك مبررات معقولة لذلك، أما نظام اليهود - الآن - في الإرث فهو نظامٌ مبنيٌّ في مُعظمه على أُسسٍ لا دينية، كما أنه يخلو من فرائضٍ مقدرةٍ لسائر الورثة، مما يُشكّل صعوبةً في التقسيم، خلافاً لنظام الإرث الإسلامي العادل الذي فصل في أحكام الميراث تفصيلاً يعزّز وجوده في أيّ من الشرائع السماوية السابقة والنظم، وهذا إنما يدل على جلالة شأن علم الفرائض، وشديد خطره؛ إذ إنه متعلّق بحقوق العباد والأسرة الوارثة واستقرار المجتمع.

ثانياً: نظام الإرث في الديانة المسيحية:

إن الأناجيل خلّت من الأحكام التشريعية؛ حيث علّم سيدنا المسيح عليه السلام أتباعه تطبيق الديانة اليهودية خاصة في شقّها التشريعي؛ لأنه لم يأت بتشريع جديد، كما لم يأت لينقّض شريعة سيدنا موسى عليه السلام، وبالتالي ليس في الديانة المسيحية تشريعات خاصة بالميراث، بل كلّ ما جاءت به شريعة موسى ينطبق على المسيحيين، قال المسيح عليه السلام لبني إسرائيل: «لا تظنّوا أنني جئت لأنقّض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقّض بلّ لأكمّل، فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض، لا يزول حرفٌ واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل، فمن نقض إحدى الوصايا الصّغرى وعلمّ الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السماوات، وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً في ملكوت السماوات» (إنجيل متى ٥: ١٨-١٩).

فالأنجيل التي بيد النصارى الآن لا تتضمن أي تشريع للمواريث، فقد ظل المسيحيون يتوارثون بنظام التوريث الموجود في التوراة عند اليهود قبل أن تضع الكنائس لاحقاً نظاماً خاصاً لهم، وقد اقتبس رجال الكنيسة بعض قواعد الميراث من اليهود والقانون الروماني والشرائع الأخرى.

أمّا ميراث المرأة في الديانة المسيحية، فقد سئل البابا شنودة الثالث (البابا السابق لأقباط مصر) عن موقف الكنيسة في تقسيم الميراث بين الرجل

والمرأة فقال: «الكنيسة لم تضع للميراث نظامًا محددًا، واسترشد بفقرات (إنجيل لوقا ١٢: ١٣-١٥)، واستطرد قائلاً: المسيحية لم تضع قوانين حالية، وإنما وضعت مبادئ روحية، في ظلها يمكن حل المشاكل المالية وغيرها، وينطبق هذا على موضوع الميراث، وإن وُجدت بين الإخوة محبةٌ وعدم طمع يمكن أن يتفاهموا بروح طيبة في موضوع الميراث، بل كل واحد منهم يكون مستعدًا أن يترك نصيبه لأي واحد من إخوته أو أخواته يرى أنه محتاج أكثر منه».

إن نظام الموارث عند النصارى - الذي وُضع بأيدي الأبرار والرهبان في فترة لاحقة - فضلًا عن أنه متضارب ومتناقض ولا يصلح للتطبيق العملي، فليس لهم قانون موحد يحتكمون إليه في نظام الموارث، بل تختلف نُظُمُهُمْ على حسب المجتمعات التي يعيشون فيها، فزاهم إذا عاشوا في مجتمعات تساوي بين الرجل والمرأة في الميراث فعلوا مثل فعلهم، وإذا عاشوا في مجتمع إسلامي فعلوا أيضًا مثل أهل هذا المجتمع ولو بطريقة مجتزأة للتمييز.. وهكذا.

ونقتبس من قول الشماس (القسيس) الدكتور وديع فتحي (الذي أسلم لاحقًا):

مما غاظني من ديني أثناء نصرانيتي، وشد انتباهي إلى الإسلام، أننا احتكنا إلى الشريعة الإسلامية ونحن مسيحيون في أمر الميراث، نظرًا لعدم وجود شريعة للميراث عند المسيحيين، وكذلك لما تزوجت أختي الكبرى - ونحن أرثوذكس - من رجل بروتستانتي من دون أن نعرف، علمنا بعد الزواج، وجاء أحد الكهنة يلوم أبي على هذا الزواج، ولما سألنا عن شرعية هذا الزواج قالوا لنا إنه حرام، ويجب تطليق أختي من زوجها بالشريعة الإسلامية، لأن المسيحية لا يوجد في شريعتها طلاق لاختلاف الملة والطائفة، والزواج من خارج الطائفة مُحَرَّم بحسب أوامر البطارقة الذين يُكفّر

كُلُّ واحد منهم الطائفة الأُخرى، فلا يوجد حل لهذا التضارب إلا باللجوء إلى الشريعة الإسلامية.

وقد سمحت بعض الدول المسيحية بالتصرف - باسم القانون الوضعي لكل دولة، وهي تختلف من دولة إلى أخرى - في تعديل أنصبة الورثة قبل وفاة أحد الوالدين، فمثلاً إذا وجد الأب أو لادَه أغنياء وإحدى بناته فقيرة محتاجة، بإمكانه قبل الوفاة أن يكتب لها جزءاً من تركته بطريقة شرعية -كنسية-، كما يمكن أن يحرم ورثته من الميراث، وله توريث كامل تركته أو جزء منها حسب ما يراه هو.

[٤-١-١٣] موافقة الفطرة:

والتشريع القرآني يوافق الفطرة (وهي: الخِلقة، والطبع السوي) الإنسانية التي فطر الله النَّاسَ عليها، قال تعالى في سورة الروم: ﴿ فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ أَلَيْسَ الْفَيْمُ وَلَنِكَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠)، وقال تعالى في سورة القصص: ﴿ وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا... ﴾ (٧٧).

فلا يكلف التشريعُ القرآني الإنسانَ ما هو فوق طاقته، ولا يُحمِّله ما لا يتحمَّله، ومن هنا جاء قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاًّ وَسَعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾... (١٨١)، وقوله سبحانه في سورة الحج: ﴿... وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾... (٧٨)، وفي التشريع القرآني الرَّخْصُ التي رَخَّصَ فيها الشارِعُ (وهو الله تعالى، أو الرسول الذي لا ينطق إلا بوحي من الله) لرفع الحرج عند الاضطرار، فعلى سبيل المثال لا الحصر، فرض الله الصيام للمسلمين البالغين، ورَخَّصَ في الفِطْرِ للمريض (ويقضي بعد الشفاء، وإن كان المريض مزمناً يسقط عنه الصوم ويدفع فدية)، والمسافر، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ

وَبَيَّنْتَ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرٍ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾، ومن ذلك أيضًا أنه سبحانه وتعالى ذَكَرَ المحرّمات من الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك، ثم بيّن الله سبحانه أنه لا إثم على المضطر، فقال تعالى في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ ﴿٢﴾﴾، وهكذا فالتشريع القرآني موافق للفترة التي فطر الله الناس عليها؛ مما يجعلهم مُنقادين إليه، طائعين غير مجبرين، وقد أثبتت الأبحاث العلمية خطورة أكل اللحوم لهذه الأصناف المذكورة في هذه الآية.

٥-١-١٣] التقوى ومحاسبة النفس:

- تقوى الله:

وهي من أسمى مراتب عبادة الله تعالى، والتقوى لغة: هي الاسم من (اتَّقَى)، والمصدر: الاتقاء، والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، فأصل التقوى: أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يخافه ويحذره وقايةً.

أما المعنى الشرعي فهو: فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، وعُرِفَتْ على أنها (وقاية النفس من عصيان أوامر الله ونواهيه)، أو (حفظ النفس حفظًا تامًا عن الوقوع في المحظورات، بترك الشُّبُهَات) -أي: إذا خطرت على باله، ولكنه يراجع نفسه ويخاف معصية الله، فلا يقدم على تنفيذ هذا الخاطر-.

وهي أن يجعل العبد بينه وبين ربه وقايةً من غضبه وسخطه وعذابه، وأن يعمل بطاعة الله، ويعلم أنه يراه ويراقبه، يرجو ثوابه، وأن يترك معصية الله ويخاف عقابه، وأساس تقوى الله خشيةً، وذلك من عمل القلب، قال الله تعالى في سورة الحشر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٩)، ويأمر الله تعالى المؤمنين بالتقوى قبل القيام بتنفيذ أوامره سبحانه، لتكون حافزاً لهم على امتثال ما يأمر به؛ لعظم ثوابِ فعلِ هذه الأوامر، كما في قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣٥)، وفي سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١)، وفي سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١١)، وفي سورة الأنفال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١)، ويذكر الله في القرآن التقوى أحياناً قبل النواهي، لتكون دافعاً للانتهاج عنها، ودرعاً لسوء عاقبة فعل المنهي عنه، كما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٩)، بل يقصُّ علينا القرآن أن الرُّسل جميعاً دعوا أقوامهم إلى تقوى الله، حيث كان كل منهم يقول لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾؛ ولهذا جعل القرآن وصية الله للأولين والآخرين هي «التقوى»، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ...﴾ (١٣١).

فإذا زَلَّتْ قدمُ أحدهم إلى المعصية، فسرعان ما يثوبُ إلى رشده، ويتوب إلى ربه، ويقرع بابَه مُستغفراً، كما قال تعالى في وصف المتقين من

عباده في سورة آل عمران: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥)، وليس ذلك فقط، بل بعد التوبة يبذل الله تعالى سيئات العبد بالحسنات، لقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٠).

ومن تدبر القرآن وجده قد ربط خيرات الدنيا والآخرة كلها بالتقوى، فمن ثمار التقوى الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة؛ ولذلك فالمسلم المؤمن لديه رادع إضافي زيادة على رادع العقوبات المتوقعة، وهذا الرادع الإضافي لا تجده في أتباع الأديان والملل الأخرى، أو حتى القوانين الوضعية؛ مما يقلل من نسبة احتمال القيام بالمعاصي والآثام من عموم المسلمين.

إن أفضل وأرقى مقام في التقوى هو مقام «الإحسان»، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. والعبادة هنا هي في معناها العام يدخل فيها الشعائر والمعاملات والأخلاق، والإحسان في العمل: إتقانه.

محاسبة النفس:

غرس القرآن الكريم في نفس المسلم فضيلة (محاسبة النفس)؛ ليراجع نفسه دائماً، قال تعالى في سورة النازعات: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٤١)، وليتخلص من ذنوبه وآثامه - إن وقع فيها بقصد أو من غير قصد-، ويردّ الحقوق إلى أصحابها، ويظهر ذمته من المظالم، فيعيش حياته سعيداً حريصاً على طاعة خالقه، يرجو رحمته، ويخاف عقابه، فالإنسان الذي يحاسب نفسه أولاً بأول تقل أخطاؤه، وتندر عثراته، ومن حاسب نفسه قبل أن يحاسب، ووزن أعماله قبل أن توزن عليه، كان من الرابحين، ومن استولت عليه الغفلة وعدم المحاسبة، تمادى في الأخطاء، واصطدم بالعثرات؛ فكان من الخاسرين.

ومحاسبة الإنسان نفسه تنبع من داخله، من إيمانه الصادق وعقيدته الراسخة، التي تجعله موقناً بلا أدنى شك أن أمامه حساباً في الآخرة، وسوف يقرؤه في كتاب يلقاه منشوراً، قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ (١٣) ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (١٤)، وقال تعالى في سورة القيامة: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (١٤).

[٢-١٣] القضاء في الإسلام:

القضاء: وهو الفصل بين الخصوم، والحكم بالحق لكل منهم، في ما يدعيه أحدهم أمام الآخر.

كان شيخ القبيلة يتولّى القضاء عند العرب قبل الإسلام، معتمداً على العرف والتقاليد السائدة بين القبائل، التي لم تعرف سلطةً تشريعيةً تسنُّ لها القوانين.

وباجتماع القبائل العربية تحت راية الإسلام، كان القرآن الأساس الرئيس الذي جعل من الرسول محمد ﷺ أوّل مَنْ قضى في الإسلام.

ثم أذن النبي لبعض الصحابة بالقضاء، ولكن دون أن يُسمي هؤلاء بـ (القضاة)، وأُتاب بعضهم في البلاد، واستمرّ الأمر على هذا المنوال في عصر الخلافة الراشدة.

وكان العصر الأموي امتداداً لعهد الخلافة الراشدة، في اختيار القضاة الذين يعتمدون على القرآن والسنة النبوية ثم الاجتهاد في القضاء بين المسلمين، وقد أنشأ الخليفة «عبد الملك بن مروان» منصب «صاحب المظالم» للنظر في أحوال المتخاصمين في المشاكل العويصة التي يعجز عن حلّها القاضي.

وكان الولاية في العصرين الراشدي والأموي يُباشرون السلطة القضائية بالنيابة عن الخليفة في بادئ الأمر، وقد احتفظ الوالي لنفسه بما كان (يعجز عنه القاضي)، وإذا لم يقبل الوالي حكم القاضي لم يكن أمام القاضي إلا أن يعتزل ويجلس في منزله.

وكان القاضي بمثابة حكم، مهمته الفصل بين الناس في الخصومات؛ حسماً للتداعي، وقطعاً للتنازع، فيحل الخلافات بين المتخاصمين الذين يقصدونه، ويكون ذلك بالأدلة الشرعية، أي: حسب الشريعة الإسلامية، وهو لا يملك سلطة تنفيذ الحكم، إلا أنه مخول بسلطة يشرف بموجبها على جميع القضايا التي تؤثر في حياة المجتمع، والتي نظمها الشريعة، كالزواج، والطلاق، وكفالة الأيتام، والموارث، وغيرها، وكان صاحب الشرطة يُنفذ قرارات القاضي، ويُطارد المجرمين ليُحضّرهم أمام الوالي ليستكمل بدوره تنفيذ الحكم.

وكان الخليفة أبو جعفر المنصور الذي يُعدُّ المؤسس الحقيقي للخلافة العباسية، يرى أن القاضي أحد الدعائم الأربع التي لا تصلح الدولة إلا بها، ومع كثرة ولايات الخلافة استجدَّ منصباً سمّاه (قاضي القضاة).

تحدد المهام القضائية التي يضطلع بها قاضي القضاة في تعيين القضاة، ومراقبتهم، والإشراف عليهم، وعزلهم، ومحاكمة الوزراء والأشخاص الذين يُهدّدون الحكم، وتسطير كتاب بيعة وخلع الخلفاء، وعقد خطبة وزواج الخلفاء والأمراء، وأحياناً الحسبة والنظر في المظالم، فضلاً عن الفتيا، ونتيجة لتوسع القضاء فقد وظفت الخلافة العباسية أعواناً لقاضي القضاة ليساعدوه في إتمام القضاء على أحسن وجه.

وقد حدّد الماوردي (وهو من أكبر قضاة الدولة العباسية في بغداد، وعالم اجتماع وسياسة، صاحب التصانيف الكثيرة، وفقه حافظ، وألف في فقه الشافعية موسوعة ضخمة في أكثر من ٢٠ جزءاً، وله مؤلفات كثيرة في

السياسة والملك والقضاء) الشروطُ المعتبرة في الشرع، والتي يجب توافرها في مَنْ يُلِي القضاء، وهي بالإجمال:

- الذكورة والبلوغ: أي: أن يكون القاضي رجلاً، وناضجاً جسدياً وعقلياً.

- الذكاء: حتى يتمكن من التمييز، وإيضاح ما أَشْكَل من القضايا.

- الحرية: فلا يجوز للعبد أن يتقلّد القضاء، أمّا إذا كان العبد قد نال حُرّيته فيجوز له تقلّد القضاء إذا توافرت فيه الشروط الأخرى.

- الإسلام: ويعني ذلك: عدم جواز تقلّد أهل الذمّة وغيرهم القضاء بين المسلمين.

- العدالة: وتشمل الصدق والأمانة والعفة والبعد عن الرّيب.

- سلامة السمع والبصر: ليتمكّن من التمييز بين الحق والباطل.

- العلم بالأحكام الشرعيّة: ويعني ذلك: العلم بالقرآن والسنة النبويّة والاجتهاد، (أي: أن يكون عالماً بالفقه الإسلامي).

وقد عدّ الماورديّ القضاة موازين العدل، وحُرّاس السّنة النبويّة، باتباعها في أحكامهم، وقد أضاف صفاتٍ لا بد من مُراعاتها في اختيار القضاة بعد الشروط المعتبرة فيهم بالشرع، وهي: أن يكون القاضي حَسَنَ العَلَانِيَةِ، مَأْمُونَ السَّرِيرَةِ، كَثِيرَ الجِدِّ، قَلِيلَ الهزل، شديدَ الورع، قَلِيلَ الطمع. وعلى القضاة الاقتداء بالأئمّة، ومشاورة أهل العلم والرأي.

وقد اشتهر القضاة المسلمون من السلف بالنزاهة، والتقوى، والجرأة في الحق، ولا يخافون في الله لومة لائم، والتاريخ والمؤرخون يشهدون على ذلك.

[١ - ٢ - ١٣] الشهادة والشهود في الإسلام:

لقد عرّف العلماء المسلمون الشهادة بأنها: (إخبارٌ صدقٍ، لإثبات حقٍّ، بلفظ الشهادة، في مجلس القضاء)، وقد جاء القرآن الكريم بأرقى وأسمى مبادئ الإثبات للحق في العصر الحديث، وذكر الدكتور إدريس العلوي العبدلاوي في كتابه «وسائل الإثبات في التشريع المدني المغربي»، الجزء الأول الطبعة الأولى صفحة ١٣٠، في تصنيفه للشهود حسب نوع القضايا:

ففي شهود الدين، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْب الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكُنْ بُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكُنْ بُوهُنَّ وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾، وتسمى آية المداينة.

وقد اشترطت الشريعة عدداً معيناً من الشهود حسب نوع القضايا، وتبعاً لخطورة النتائج المترتبة على هذه الشهادة، ففي إثبات الزنى لابد من شهادة أربعة عُدُولٍ؛ قال الله تعالى في سورة النور: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾، وشهادة عدلين في سائر الأمور، وهو ما اتفق عليه الفقهاء تأسيساً على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴿٢٨٢﴾﴾، أو شهادة رجل وامرأتين بخصوص الأموال وما يؤول إلى المال، كالبيع، والرهن،

والصلح، استنادًا إلى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ (٢٨٢)، وشهادة امرأتين دون رجل، وذلك فيما لا يطلع عليه الرجال، كالحيض والنفاس والحمل، وشهادة رجل أو امرأة واحدة مع يمين في أحوال خاصة، وشهادة امرأتين مع يمين في الأموال أو ما يؤول إليها، وشهادة الصبيان في الجرح والقتل الذي يقع بينهم، إلى ما هنالك، ويمكن الرجوع إلى الكتب المختصة لمن أراد مزيدًا من التفاصيل.

[٢-٢-١٣] فلسفة النظام العام للحدود والعقوبات في الإسلام:

قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢١)، وقال تعالى في سورة الحشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً بَيْنَ الْأَحْزَابِ﴾ (٢١)، وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً بَيْنَ الْأَحْزَابِ﴾ (٢١)، وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً بَيْنَ الْأَحْزَابِ﴾ (٢١).

ففي فصل القضاء كان الرسول ﷺ القدوة الحسنة للمسلمين في تطبيق حدود الله تعالى، وهذان المثالان يُبينان ذلك:

١. سَرَقَتْ امرأةٌ من بني مخزوم، وهي من أشرف قريش، ورفَعَ أمرُها إلى النبي ﷺ، فاعترفتُ بفعلتها، والاعترافُ سيِّدُ الأدلة، والحُكم لا لبسَ فيه، فطلبت قريشُ من أسامة بن زيد، أن يشفع لها عند رسول الله ﷺ، فذهب أسامة إلى النبي ﷺ وطلبَ منه أن يعفو عنها، فلا يُقيمَ عليها الحدَّ، فقال له: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ يَا أُسَامَةُ؟!»، ثم قام، فصعدَ المنبر وقال: «إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِيْمُ اللَّهِ، لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا». (رواه البخاري).

٢. وفي شأنٍ آخر من شؤون الأمة الإسلامية بخصوص الالتجاء إلى رسول الله ﷺ لحلِّ مشاكل المتخاصمين، فعن أم سلمة رضي الله عنها أن

النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ
الْحَنُّ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي بَنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ
شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ؛ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ». (متفق عليه).

فَمِنْ أَجْلِ الْحِفَافِ عَلَى الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ (الْكُلِّيَّاتِ الْخَمْسِ)، الَّتِي
تَتَّفِقُ كُلُّ الْمَجْتَمَعَاتِ عَلَى صِيَانَتِهَا وَالْحِفَافِ عَلَيْهَا، حَذَّرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ
وَالنَّبِيَّ الْكَرِيمُ مِنَ الْإِعْتِدَاءِ عَلَيْهَا، وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَلَكُمْ فِي
الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأَوَّلِي أَلَا لَبِيبٌ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩)، وَوَضَعَ مَا يُعْرَفُ فِي
الْفَقْهِ الْإِسْلَامِيِّ بِالْعُقُوبَاتِ وَالْحُدُودِ - أَحْكَامٌ وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ لِلْقِصَاصِ مِنَ
الْعَصَاةِ -، وَهِيَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

- الْقِصَاصُ: لَجَرَائِمِ الْقَتْلِ وَشَبْهِهِ.

- الْحُدُودُ: وَهِيَ الْعُقُوبَاتُ الْمَقْدُرَةُ شَرْعًا فِي مَعْصِيَةٍ، كَحَدِّ السَّرْقَةِ، وَحَدِّ
الزَّوْنِ وَغَيْرِهَا لِتُرْدَعَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي مِثْلِهَا.

- التَّعْزِيرُ: وَهُوَ الْعُقُوبَةُ الْمَشْرُوعَةُ بِغَرَضِ التَّأْدِيبِ عَلَى مَعْصِيَةٍ أَوْ جُنَايَةٍ
لَا حَدَّ فِيهَا، وَلَا كَفَّارَةَ، أَوْ فِيهَا حَدٌّ وَلَكِنْ لَمْ تَتَوَفَّرْ شُرُوطُ تَنْفِيزِهِ، كَالْقَذْفِ فِي
غَيْرِ الزَّوْنِ.

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:
«إِذْرَوُْوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ» (رواه الترمذي)، أَي، إِذَا لَمْ يَثْبُتْ لِلْحَاكِمِ (الْقَاضِي)
الْحَدُّ ثُبُوتًا وَاضِحًا لَا شُبُهَةَ فِيهِ فَإِنَّهُ لَا يَقِيمُهُ، وَيَكْتَفِي بِمَا يَرُدُّ عَنْ الْجَرِيمَةِ مِنَ
أَنْوَاعِ التَّعْزِيرِ.

* ملاحظة:

لِمَعْرِفَةِ تَفَافِيصِ الْأَحْكَامِ وَالْحُدُودِ وَالْعُقُوبَاتِ لِلْجَرَائِمِ وَالْمَعَاصِي
الْمَنْصُوصِ عَلَيْهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالتِّي بَيْنَهَا الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ فَيُمْكِنُ
الرَّجُوعُ إِلَى الْكُتُبِ الْمُتَخَصِّصَةِ.

[٣-٢-١٣] المقارنة للمفهوم العام للعقوبات بين الديانات السماوية:

أ. نظام العقوبات عند اليهود:

يُنسب التشريعُ اليهودي إلى سيدنا موسى عليه السلام، فهو الذي وضع أُسُسَ القانون التشريعي في التوراة، فأصبحت الحجرَ الأساسَ في بناء الدولة اليهودية؛ فكان قائدًا لبني إسرائيل، ومُرشدًا ومُشرِّعًا لهم.

وقد فَصَّلَتْ أسفارُ موسى كثيرًا من القوانين المتعلقة بالقتل وعقوبته، وتناولت عقوبةَ القتلِ العمد، وعقوبةَ القتلِ الخطأ، وعقوبةَ الحيوان الذي يقتل إنسانًا..

لكن الأسفارَ الخمسة الموجودة الآن ليست نفسها التي أُوحيَتْ إلى سيدنا موسى عليه السلام، بل هي من تأليف الكَهَنَةِ والرُّهبان اللاويِّين - وهُم أتباعُ أحدِ أسباط بني إسرائيل الاثني عشر من نَسْلِ لاوي، الابن الثالث لسيدنا يعقوب عليه السلام -، الذين كان لهم الحق في وضع الأحكام للأمة اليهودية.

إن المبدأ الذي يقوم عليه العقابُ هو «قانون القصاص». «إن حصَّلت أذيةٌ تعطي نفسًا بنفس، وعينًا بعين، وسِنًّا بسِنٍّ، ويدًا بيد، ورجلًا برجل، وكيًّا بكيٍّ، وجرحًا بجرح، ورَضًا برَضٍّ»، ومع ذلك لم تبقَ التشريعاتُ المتعلقة بنظام العقوبات على حالها، فقد أخذت مُنحَى مُغايرًا لما كانت عليه أيامَ موسى عليه السلام حتى آخر أيام النبي سليمان عليه السلام.

وبالإجمال فقد جاءت الشريعةُ اليهودية بتحريم القتل، وعدُّوه جريمةً يعاقب فاعلُها بالقتل، ولكن هذا العقاب مخصص فقط بما إذا قام اليهودي بقتل اليهودي؛ ذلك لأن الديانة اليهودية تُعدُّ قتلَ اليهودي جريمةً كبرى عقوبتها الإعدام، وإحدى أشنع الخطايا الثلاث (عبادة الأوثان، والقتل، والزنى)، وأن المَحاكم اليهودية والسُّلطات مُلزَمةٌ بمعاينة قاتل اليهودي حتى خارج نطاق العدالة المعتادة، هذا إذا كان متعمدًا، أما إذا كان خطأ أو بصورة غير مباشرة

فهو مذنّب بما يدعوه «قانون التلمود» خطيئة ضد قانون السماء، يعاقب عليه الله لا الإنسان.

أما إذا قتل يهوديٌّ غيره من «الجوييم أو الأميين» فإنه لا يعدُّ قاتلاً، ولا يعاقبه التشريع اليهودي بالقتل، فعلى الرغم من النصوص الصريحة التي تنهى عن القتل، فإن التلموديين قد تناولوها حسب مصالحهم وأهوائهم، فما جاء في النص التوراتي (لا تقتل) فقد فسروه: أي لا تقتل اليهوديَّ، على «وفق تفسير ابن ميمون».

وهذا يدلُّ على الأثر الخطير الذي قام به فلاسفة اليهود وحاخاماتهم في تأويل النصوص الدينية وتحريفها؛ لتنسجم مع أهوائهم؛ لذلك نجد أن أسفار العهد القديم زُحِرت بالنصوص التي تأمرهم بالقتل والإبادة التي مارسها اليهود ضد مخالفيهم، ونلمس ذلك من خلال سفر (يوشع)؛ حيث تركزت كلمات هذا السفر في مجملها على احتلال أرض كنعان، وما صاحب ذلك من قتل وتدمير وحرق وإبادة طال الإنسان والحيوان، وكلُّ ذلك بزعم أنه كان بأمر يهود وامتنالاً لأوامره.

إن الشرائع السماوية كلّها تُحرّم قتل الناس بغير حقٍّ، ومنها شريعة التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، والتي بيّنت حرمة هذه الجريمة، ومدى خطورتها، من خلال وصية (لا تقتل)، إلا أن اليهود تركوا هذه الوصايا وراء ظهورهم، ومارسوا القتل بكل أنواعه، وأول من سفكوا دماءهم هم أنبياء الله ورسله، ومن أجل هذا فقد جعل الله تعالى في القرآن الكريم قتل النفس بغير حقٍّ، بمثابة قتل البشرية جمعاء، قال تعالى في سورة المائدة: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾، وإن هذه الجرائم التي اقترفتها اليهود

- وما زالوا يقتربونها -، والتي طالت صفوة خلقه وهم الأنبياء، فقد دونوها في كتبهم المحرّفة، ولفّقوا الأباطيل لأنبيائهم، ووصفوههم بارتكاب المجازر ضد الإنسانية، وقد جاء وصفهم في القرآن بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

بالإضافة إلى ذلك، فاليهود يعتقدون اعتقادًا جازمًا بأنهم وحدهم هم الشعب المختار عند الله تعالى، وأن غير اليهود - في نظر واضعي التلمود - حميرٌ خلّقوا ليركبهم شعبُ الله المختار، حيث يذكر التلمود: «إن الأمميّين هم الحمير الذين خلّقهم الله ليركبهم شعبُ الله المختار، فإذا نفقَ منهم حمارٌ، ركبنا منهم حمارًا؛ ولأن إبراهيم الخليل حين توجه ليذبح ابنه إسحاق! كان يصحبه خدّمه، فقال لهم: امكثوا هنا والحمار، بينما أذهب أنا وولدي إلى الأمام! ومن هنا عُرف أن غير اليهود حمير!»

ولهذا، فقد فسروا أنه: (ذا قصد يهوديُّ قتل حيوانٍ فقتل شخصًا خطأ، أو أراد قتل وثنيٍّ أو أجنبي فقتل يهوديًا خطأ فخطيئته مغفورة، ومن يقتل مسيحيًا أو أجنبيًا أو وثنيًا، يُكافأ بالخلود في الفردوس، والجلوس هناك في السراي الرابعة، أما من يقتل يهوديًا عمدًا فكانه قتل الدنيا كلّها).

من سفك دم الكافر (الأممي) فإنه يقرب إلى الله قربانًا، وعلى اليهودي أن يطعم الكلاب ولا يطعم الأغيار، كما أن الله لا يغفر ذنبًا لليهودي يرُدُّ للأممي ماله المفقود، وأنه مصرّح لليهودي أن يغش غير اليهودي ويحلف له أيمانًا كاذبة، وغير مصرّح لليهودي أن يُقرض الأجنبي إلا برّبا، وللإهود الحق في اغتصاب غير اليهوديات، فإتيان زوجات الأجانب جائز؛ لأن المرأة غير اليهودية بهيمة، ولا عقد للبهائم! ويصرّح التلمود لليهودية أن تزني غير آثمة بغير اليهودي، كما يصرّح للزوج أن يزني بغير يهودية حتى

في بيت الزوجية، فيلزم أن تكون طاهرًا مع الطاهرين، ودنسًا مع الدنسين، ولا يُسمح لليهودي أن يكون مؤدبًا مع الكافر بدين اليهود، أو يدعي محبته، إلا إذا خاف أذاه.

وبالتالي فإن هذه الاعتقادات تُعدُّ مُحفِّزًا لزيادة الفساد والمعاصي والظلم والإجرام والاقتتال بين المجتمعات اليهودية وغير اليهودية في شتى أنحاء العالم.

ب. نظام العقوبات عند المسيحيين (النصارى):

يعتقد النصارى اعتقادًا جازمًا بعقيدة الخلاص (أو النجاة، أو الفداء)، وهي - في نظر واصفي الإنجيل - : حفظ الإنسان من الخطيئة وعواقبها، ومن ذلك الموت والانفصال عن الله بموت المسيح وقيامته، والتفكير باتباع هذا الخلاص، تتلخص وجهة النظر هذه في أن الإنسان مهملًا أخطأ أو عصى فإنَّ المسيح المُخلَّص قد افتدى خطيئته عندما صُلب! (أي: تُعدُّ غفرانًا للخطيئة الإنسانية).

والمسيحية تجعل الإيمان بصُلب المسيح كافيًا للخلاص، ومُحرِّرًا من لعنة الناموس والشرعية التي نسخها بولس (أحد كُتَّاب الإنجيل) بأقواله، ونسخ كل ما قرره الشرعية من تحريم وتجريم وعقوبة من ارتكب الموبقات المختلفة من زنى، وشرب للخمور، وقتل، وفساد؛ إذ ذكر فيه: الإيمان بالمسيح المصلوب نيابة عنا (يريدون: المؤمنين به) يكفر خطايانا مهما عظُمت، ويوضحه بقوله: «يسوع المسيح البار، وهو كفارة أخطائنا، ليس خطايانا فقط، بل لخطايا كل العالم أيضًا» (١ يوحنا ٢: ٢).

ويؤكد في قوله: «نشهد أنَّ الآب قد أرسل الابنَ مخلصًا للعالم» (يوحنا ٤: ١٤)، فجعل الخلاص عامًّا لكل الخطايا، وشاملاً لكل البشر، مهما عملوا من الموبقات والرزايا.

وبالتالي فإن ذلك الأمر يشجع على ارتكاب الخطايا والفساد؛ لأنها مغفورة للعاصي أو المجرم أو مرتكب هذه الخطايا!!

وبالنسبة إلى الكنيسة الكاثوليكية، فقد ورد في إنجيل متى: «سمعتم أنه قيل: عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشرَّ، بل مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الْآخَرَ أَيضًا، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْكَ فَلَا تَرُدَّهُ، سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ، بارِكُوا لَاعِنِيكُمْ، أَحِبُّوا مُبْغِضَكُمْ، وَصَلُّوا لِأَجْلِ الَّذِينَ يُسَيِّئُونَ إِلَيْكُمْ فيطردونكم..».

هذه مجرّد وصايا بالعفو، وليست بشريعة أو نظام يُسنُّ، وعلى ذلك تخرج عبارات الإنجيل داعية إلى العفو عن المُسيء.

من جانب آخر ليس بوسعنا تصوُّر أن سيدنا المسيح عليه السلام (وخصوصًا أنه علّم أتباعه تطبيق الشُّقِّ التشريعي في الديانة اليهودية - أي: ما جاء في العهد القديم -)، يضع أو يُقرُّ تشريعًا ينصُّ أن لا يُقتل قاتلٌ، ولا يُضرب مُعتدٌّ، ولا يُسجن ظالمٌ؛ وعليه فإن انعدام تشريع يقتص من المعتدي، يجعل في وسع القوي التهام الضعيف، وعندئذ لا يجد الضعيف من ينصره، وذلك من شأنه أن ينتهي بالمجتمع إلى الانهيار الكامل.

ومن هنا كان لا بُدَّ من وجود عقوبة لكل خطأ، ومن ناحية أخرى، فإن هذا يجعل النصوص التي قال بها إنجيل متى - التي ذكرت سابقًا - غير مُمكنة التطبيق في أيِّ مجتمع وأيِّ زمان، وعليه أصدرت الكنيسة أنواعًا مختلفة من العقوبات التي اختلفت حسب نوع الجرم، لكنه غير معروف تمامًا من أين استُنتت تلك العقوبات، وهل هي تشريعات خاصة بالكنيسة أم أنها رواهب لبعض المعتقدات الدينية التي ظلت قائمة إلى جانب الأعراف والقواعد القانونية الوضعية؟!

مفهوم العقوبة الكنسية وأنواعها:

تُعرَف لفظة «عقوبة» في المصطلح الكنسي، وتعني «اللوم» أو «التوبيخ»، ويرجع هذا المصطلح إلى عهد الجمهورية الرومانية، وقد تبنت الكنيسة تلك اللفظة لتعبّر بشكل عام عن «العقوبات الروحية» التي تضطر إلى تطبيقها على المسيحيين عمومًا عند ارتكابهم ذنبًا جسيمًا.

وينقسم «اللوم» إلى ثلاث عقوبات:

أولاً: «الحرمان الكنسي».

ثانيًا: «المنع».

ثالثًا: «الوقف».

أما «الحرمان الكنسي»: فهو عقوبة روحانية بموجبها يُقَطَّع المذنب من شركة الكنيسة والتواصل مع جماعة المؤمنين وما يتبع من فوائد.

وأما «المنع»: فهو عقوبة جماعية تفرّض على مجتمع بأكمله ليُمنع بموجبه من إقامة الشعائر الدينية في أماكن معينة ولأشخاص بعينهم، وهو يعاقب الأبرياء مع المذنبين، ويمكننا تشبيهه «بالحجر الروحي»؛ إذ يترتب عليه توقف شبه تام للحياة الدينية، حيث يتم إغلاق الكنائس، وتوقف الشعائر والطقوس الدينية.

وأخيرًا عقوبة «الوقف»: وهي عقوبة قاصرة على رجال الدين وحدهم، بمقتضاها يُمنع رجل الدين من ممارسة مهام منصبه.

وللعلم: لم يكن هناك قانون وضعي للعقوبات الكنسية حتى نهاية العصور الوسطى، بل مجموعة من الإجراءات لا أكثر، إضافة إلى ذلك أن المجموعة القانونية المتعلقة بالعصور الوسطى، لم تأت على ذكر أي عقوبة، باستثناء أنها حوّت عنوان «الحرمان الكنسي»، دون أي إشارة إلى عقوبتي «المنع» أو

«الوقف»، وكلُّ ما وصل إلينا عن هاتين العقوبتين كان من خلال الإشارات المتفرقة في المراسيم البابوية، على الرغم من اعتناق معظم الشعوب الغربية لبعض إصدارات القيم اليهودية المسيحية، أظهرت العصور الوسطى في أوروبا القليل من القيود الموضوعية من قبل السلطات الدينية.

وعلى العكس، تم تجاوز مستوى العنف بين شعوب العصور الوسطى من خلال القوة المطبقة من قبل الدولة الناشئة والحكام، في محاولتهم للحفاظ على السلطة وقمعها، وكان الإقرار بالذنب عند الجاني أهم من طبيعة المجرم، عندما كان يُعلن عن الذنب، لم يكن السؤال كثيرًا عما إذا كان يجب إجراء الإعدام، بل عن مدى مأساويته، كما لم يكن هنالك الكثير من العقوبات غير المنفّى والإعدام.

أما في نظام الحد الإسلامي، المطبق قبل ١٤٠٠ سنة، كانت عقوبة المجرمين عامة ومفصلة وطبقًا لنوعية الجرم فقط، وليست بناءً على الدين أو الجنس أو اللون، وهدفت إلى الردع الاجتماعي العام.

وللإنصاف، فقد سنَّ العلمانيون قوانين مدنيّة خاصة بالعقوبات في فترة لاحقة، ثم تبعهم في ذلك النصارى.

ج - نظام العقوبات عند المسلمين:

إن الخلاص (بمعنى: أن مَنْ يخطئ فإنَّ الإيمانَ بدينه يُكفِّر عنه خطاياَه مهما كانت) ليس له وجود في الإسلام، فجوهر الإسلام هو تحقيق طاعة الإنسان لله تعالى، والتسليم له وحده سبحانه، وإعلان خضوع الإرادة الإنسانية للإرادة الإلهية، من خلال الالتزام بالدين في جوانبه العقدية والتشريعية والأخلاقية، وهناك ثواب وعقاب، والطاعة لله مُحَقَّقة للثواب والمعصية مُحَقَّقة للعقاب في الدنيا - كما بيّنت في الفقرة السابقة - وفي الآخرة أيضًا، وهي من الأمور المهمة أيضًا، ونجاة الإنسان من العقاب تتم من خلال الطاعة وترك المعصية، وبالإضافة إلى ذلك وقبل الوقوع في

المعصية والإثم، فإن المسلم المؤمن يفكر مرتين قبل القيام بهذه المعصية؛ وذلك لإيمانه بأن الله تعالى يراه، وسيحاسبه على عمله مهما فعل، حتى ولو تهرَّب من عقاب الدنيا، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩٤)، وقال تعالى في سورة الزلزلة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)، وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ (٤٨).

ووفقاً لمنهج الإسلام الذي يحترم أصحاب الأديان الأخرى، ويؤمن بأنبيائهم وكتبهم (التي كانت قبل التحريف)، ولا يُكره أحداً على الدخول في الإسلام، ويوفّر الحماية المادية والمعنوية لكل البشر بلا استثناء، بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم، ويحرّم قتل النفس إلا بالحق، لقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾ (٣١)، وقول المولى عز وجل في مُحكم كتابه في سورة الحج: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ كُلُّ نَفْسٍ بِالَّذِي أَلْبَسَتْ﴾ (٤٠)، وقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ (٣٢)، وقوله في سورة البقرة: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦)، وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبَإِيِّينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢)...

د- تطبيق العقوبات (الحدود) الإسلامية لغير المسلمين:

إن تعاليم الشريعة الإسلامية كفلت لغير المسلم - الذمّي (من كان في عهد المسلمين وحمائهم) والمستأمن (من دخل ديار المسلمين بإذنهم دون

نية الإقامة) - حياة آمنة مستقرة، وجَرَمَتِ العدوانَ على حياته، وَمَنْ يُلْحِقْ أَدَى بِمُسْتَأْمَنٍ سَيَكُونُ خَصِيمًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يومَ القيامة؛ حيث أوصى صلوات الله وسلامه بحُسن معاملتهم، وقال: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ حَقَّهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَغِيرِ طَيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ، فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (رواه أبو داود)، وقال أيضًا ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» (رواه البخاري). والمعاهد: الذي بينه وبين المسلمين عهد دون الإقامة بينهم.

والقاعدة الإسلامية الفقهية في هذا الأمر تقول: «لهم ما لنا، وعليهم ما علينا»، وهي التي استقرت على مدار التاريخ الإسلامي، وأسست قاعدة المساواة بين المسلمين وغيرهم في الحقوق والواجبات، وقد كان هذا المبدأ في «الصحيفة» التي هي بمثابة أول دستور في الدولة الإسلامية، وتمَّ تحريرها بعد هجرة النبي ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ونصت على أن أهل الكتاب (اليهود آنذاك) أمةٌ مع المؤمنين: أي: لهم حقوق المواطنة الكاملة، والحماية، يمارسون عبادتهم بكل حريتهم، ويناصرون المسلمين، ويتناصرون في حماية المدينة.. ويتعاونون - كلُّ في موقعه - على حمل الأعباء.

اعترف المؤرخون والكتاب الأوروبيون وغيرهم بكلِّ ما يُنصف الإسلام وأُمَّتَه وحضارته؛ حيث إن مواقف المسلمين المتسامحة مع غيرهم من أصحاب الديانات والعقائد الأخرى جاءت ترجمةً لما وضعه القرآن الكريم من أسسٍ ومبادئٍ وقواعدٍ للتعامل مع غير المسلمين ما داموا مُسالِمينَ للمسلمين، لم يقاتلوهم في دينهم، ولم يخرجوهم من ديارهم، ولم يظاهروا (يعاونوا) على إخراجهم، حيث يقرر الحق سبحانه قاعدة التعامل العادل مع غير المسلم، قال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ٨،

وكذلك فإن القرآن ارتفع بقيمة العدل إلى أعلى مستوى في التعامل مع أهل الكتاب في قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُونًا قَوْمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءٌ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى اَلَّا تَعْدِلُوْا اَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿٨﴾﴾، أي: إن كل من يعتدي على غير مسلم بغير وجه حق، أو يحمله بغضه على عدم العدل في تعامله مع غير المسلمين، سيكون خصيماً لله تعالى يوم القيامة، فالمسلم مُطالب بالعدل معهم ومع غيرهم؛ ذلك أن الظلم من أشد المحرمات، سواء كان لمسلم أو غير مسلم؛ فالله تعالى لا يحب الظالمين.

وقد شدد الحق سبحانه وتعالى في وعيده على من يستهين بالحدود ولا يراعيها، وذلك في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَنْ يَعْذِ حُدُودَ اللّٰهِ فَأُولٰٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾، والحدود في الشريعة الإسلامية تشمل حد الزنى، والقذف، والسرقة، وشرب الخمر، وقطع الطريق، والبغي، ولا يملك أحد أن يلغي تلك الحدود أو يعدل فيها، أو أن يعفو عن تطبيق العقاب، أو يستبدل العقوبة.

ولمّا كانت حقوق الله مبنية على التحري والدقة، فإن الجريمة الحديثة لا تثبت إلا في أضيق الحدود، وهناك شروط لإثبات حد تلك الجريمة، وقد لا تتوفر تلك الشروط في كثير من الأحيان؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ادفعوا الحُدُودَ مَا وَجَدْتُمْ لَهُ مَدْفَعًا» (رواه ابن ماجه).

إن الهدف من الحد في الإسلام ليس إيقاع العقوبات وتنفيذ الحدود، إنما هي لستر الناس، وحمايتهم، والمستعرض لأحوال المسلمين في زمن الرسول ﷺ، وفي زمن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، لا يجد عقوبات حديثة قد وقعت إلا في مرات قليلة، وفي أضيق الحدود.

وقد اشتهر أن سيدنا عمر بن الخطاب قد عطل حد السرقة في عام الرمادة (المجاعة)، ولكن هذا التعبير غير دقيق، وما فعله عمر ليس تعطيلاً لهذا الحد، بل أوقفه مؤقتاً؛ لأن شروط تنفيذ هذا الحد لم تكن متوفرة؛ فالذي

يَأْكُل مَا يَكُونُ مِلْكًا لِغَيْرِهِ بِسَبَبِ شِدَّةِ الْجُوعِ وَعَجْزِهِ عَنِ الْحَصُولِ عَلَى الطَّعَامِ
يَكُونُ غَيْرَ مُخْتَارٍ، فَلَا يَقْصِدُ السَّرْقَةَ، وَيَكُونُ كَالْمُضْطَرِّ، وَالضَّرُورَاتُ تَبِيحُ
الْمَحْظُورَاتِ، وَيُقَاسُ عَلَى ذَلِكَ بَقِيَّةُ الْحُدُودِ تَبَعًا لِلْحَالَةِ، وَذَلِكَ مِنْ قَبْلِ
الْحَاكِمِ التَّقِيِّ الْوَرَعِ.

وغيرُ المسلمين في بلاد المسلمين منهم «الذَّمِّيُّ المقيم»، ومنهم
«المستأمنُ غيرُ المقيم»، ولكلُّ منهما ما يخصه من الأحكام، على بعض
الخلافاً بين المذاهب في ذلك، قال ابن قدامة في المغني: «إذا تحاكم إلينا
مسلمٌ مع ذِمِّيٍّ، وجب الحكم بينهما؛ لأن علينا حفظَ الذَّمِّيِّ من ظلم المسلم،
وحفظَ المسلم منه، وإن تحاكم بعضهم مع بعض، أو استدعى بعضهم على
بعض، خيّر الحاكم بين الحكم بينهم أو الإعراض عنهم، لقوله تعالى في
سورة المائدة: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ (٤٢)، فَإِنْ حَكَمَ
بينهم، لم يحكم إلا بحكم الإسلام؛ لقول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَإِنْ
حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ (٤٢)».

وبخصوص إقامة الحدود على غير المسلمين وما فيها من تفصيلات في
المذاهب الأربعة، فقد جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية كلامٌ محرَّرٌ مفصَّلٌ؛
فراجعهُ إن شئتَ.

[٤-٢-١٣] نظام الحِسْبَةِ في الإسلام

مقتبس بتصرّف من مقال أ.د. عبدالحليم عويس^(١)

الحِسْبَةُ من الوظائف التي يتَّصِلُ عملُها بعمل القضاء والشرطة، لكنها مستقلة عنهما، ويقال لصاحبها: (المحتسب)، و(صاحب الحسبة)، و(متولّي الحسبة)، و(ناظر الحسبة)، و(والي الحسبة).

والحسبة في الشريعة الإسلامية: إزالة المنكر إذا ظهر فعله، والأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ويمثل نظام الحسبة بذلك نظاماً رقابياً يتكامل مع النظام الاجتماعي والسياسي في المجتمع الإسلامي.

والمعروف ما أمر الشارعُ بعمله، والمنكر ما نهى الشارع عن فعله، لكن - مع التطور الحضاري - قد تظهر بعض السلوكيات والعادات والأمر العرفية، فتخضع لتحسين الشرع وتقييحه، ولا يخضع الشرع لها.

والحق أن الشريعة الإسلامية لم تكتفِ ببيان المعروف وتعداد أنواعه، ولكنها ترسم للإنسانية منهاج الحياة المتكامل على وجه ينمي فيها المكارم

١. عبدالحليم عويس: ولد في عام ١٩٤٣م. في مصر، حصل على ليسانس اللغة العربية والدراسات الإسلامية (١٩٦٨م.) وعلى الماجستير (١٩٧٣م.) والدكتوراه (١٩٧٨م.) «عن أطروحة ابن حزم الأندلسي» وهو مؤرخ في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة. عمل أستاذاً بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سبعة عشر عاماً، وراقي فيها إلى درجة أستاذ (١٩٩٠م.). درس في العديد من الجامعات الإسلامية وأشرف على عشرات من رسائل الماجستير والدكتوراه في العديد من الجامعات الإسلامية، وناقض الكثير منها. انتدب أستاذاً في جامعة الزقازيق بمصر وبالجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية وهو عضو مجلس أمناء الجامعة. عمل نائباً لرئيس جامعة روتردام الإسلامية بهولندا. ومستشاراً لرابطة الجامعات الإسلامية. أنجز موسوعة في الفقه الإسلامي، وتفسير القرآن الكريم للناشئين، وأشرف وأسهم في كتابة موسوعات في التاريخ، وتاريخ الإدارة، والحضارة الإسلامية. صاحب أكثر من ١٠٠ مرجع وكتاب وبحث علمي في التاريخ والحضارة والثقافة والعلوم الإسلامية، إضافة إلى مئات المقالات والبحوث المنشورة.

وهو خير بمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا وعضو اتحاد كتاب مصر. عضو نقابة الصحفيين، عضو اتحاد المؤرخين العرب، نائب رئيس جمعية رابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة. ورئيس تحرير مجلة التبيان التابعة للجمعية الشرعية بمصر. قام بالعديد من الرحلات في معظم بلاد العالم. كما شارك في العديد من البرامج الإذاعية والفضائية (ت: ٢٠٠١).

والفضائل، ويبعث فيها روح الخير، ويساعدها على النماء والرقى، ويُحِبُّ إليها فعل المعروف بكافة صورته، كما لا تكتفي بالنهاي عن المنكر وبيان الرذائل، وإنما توضح مَضَارَّها وتحذّر من اقترافها؛ حتى يصير المجتمع المسلم مجتمعاً فاضلاً نظيفاً.

وللحسبة الرقابية العامة والوظيفية في هذا المجال الفضل الأول، وأوّل مَنْ احتسب هو رسولُ الله ﷺ، فقد كان يمرُّ على الأسواق ويقول للناس: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

ويُعَدُّ الخليفة الراشد عمر بن الخطاب أوّل مَنْ وضع نظام الحسبة، وكان يستخدم الدرة أو السوط في معاقبة المخالفين.

وقد استمرّت الحسبة في العصر الأموي، ونقلها الأمويون إلى الأندلس، وكانت من أهم الوظائف الشرعية عندهم.

لكن المصطلح لم تتحدّد معالمه، ولم يُصَبِّحَ علماً على مؤسسة كالقضاء والشرطة إلا نتيجة لاهتمام العباسيين خلال العصر العباسي الأوّل بجعل الشريعة الإسلامية أساساً لحكمهم، ولمقاومة حركات الزندقة والمتأثرين بها، والناشرين للإلحاد والفساد.

وقد صارت وظيفة المحتسب في القرن الرابع الهجري من الوظائف الثابتة الوطيدة الأركان في جميع الدول الإسلامية.

وكان المحتسب يُختار من بين علماء الدين، المُلمِّين بأحكام الشريعة، والأشدّاء في الحق، وذوي الثقة والأمانة، وربما كان من القضاة أو أعيان المعدّلين (المعروفين بالعدالة)، وربما أضيفت أعمال الحسبة إلى القاضي، أو إلى الوالي، أو صاحب الشرطة، وقد يجمع المحتسب بين نظر الحسبة ونظر الوقف، وكان المحتسب يولي عنه نواباً في سائر المدن والأقاليم التابعة له، وكانت اختصاصات المحتسب تُوجب مراقبة ما يتعلق بتأدية العبادات؛

بتأدية صلاة الجمعة، والمحافظة على الصلاة جماعةً، وأداء الزكاة، ورَدْع أهل البدع، ومراقبة الأسواق، ومعاملة التجَّار للناس، ومراقبة النقابات والحرفيين.

وهي أوجب في الفرضية العينية على الحاكم المسلم الذي هو المسؤول الأول عن حراسة دين الله تعالى، وإصلاح شؤون الأمة في دينها ودنياها.

- وكذلك ينشئ - ضمن أنواع الولايات - (ولاية الحسبة) للقيام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أداءً لبعض الواجب على الحاكم ومساعدة له.

- ويأخذ بمبدأ القدوة الحسنة؛ فهي التي تؤثر في النفس ما لا تؤثره الكلمة؛ ولذا فلا بد من أن يكون ملتزمًا في نفسه كما قال الله تعالى حكاية عن شعيب: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنِّي أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ويدخل «نظام الحسبة» من ضمن مؤسسات الدولة الحديثة المعاصرة وهي تمثل الجهات الرقابية المتعددة التي يحكمها القانون والنظام الإسلامي العام ولا تدخل من ضمن وظيفة المجتمع المدني وعلماء الدين ولا الأفراد إلا من حيث الأمر بالمعروف والأمر عن المنكر على أفراد العائلة، وإقامة الندوات، والحث من على منابر المساجد، وبالتالي هي أحسن كما أوجبها الله تعالى في كتابه وسن عليها رسول الله ﷺ والله أعلم.

[٣-١٣] الفقه في الإسلام:

الفقه لغة: هو الفهم، ثم خُصَّ به (علمُ الشريعة)، والعالم به يُدعى (فقيهاً)، ويكون مضطلعاً (متخصّصاً) بعبء استخلاص الأحكام الشرعية من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ويعرض الموضوعات المتعلقة بما ينبغي على المسلم فعله أو تركه، في العبادات، والمعاملات، والعادات، واللباس، والأطعمة، والأنظمة المالية، والميراث، والحدود... إلى ما هنالك، كما عليه أن يعرف قواعد استنباط الأحكام الفقهية من النصوص الشرعية.

وكان من الصحابة الكرام رضي الله عنهم فقهاء أعلام ذوو تخصص في الاستنباط، وكانت لهم اجتهادات ومذاهب فقهية، وأخذ عنهم فقهاء التابعين في مختلف البلدان، وبذلك بدأ تأسيس المدارس الفقهية في الحجاز والعراق والشام ومصر واليمن، وتلخصت منها مذاهبٌ عديدة، وكان أشهرها المذاهبُ الأربعة من أهل السنة والجماعة، وهي: المذهبُ الحنفي للإمام أبي حنيفة النعمان، ثم المذهبُ المالكي للإمام مالك بن أنس، ثم المذهبُ الشافعي للإمام محمد إدريس الشافعي، ثم المذهبُ الحنبلي للإمام أحمد بن حنبل، ثم يأتي بعدها في الانتشار: المذهبُ الظاهري، ومذهب الإمام جعفر الصادق، ويعمل به بعض الشيعة، وقد أخذ بعضُ الفقهاء أهل السنة من فقه الإمام جعفر الصادق في مرحلة لاحقة، ثم أضاف الفقهاء طُرُقاً أخرى لاستنباط الأحكام، وهي الإجماع والقياس وغيرها، مثل العُرف، والاستحسان، والمصالح المُرْسَلَة.

والاختلاف في بعض الأحكام الاجتهادية بين الفقهاء لا يفسد للوُدّ قضيةً.

هذا وليس بالضرورة أن يكون الفقيه قاضياً، وكذلك القاضي ليس بالضرورة أن يكون فقيهاً.

الفقه في الإسلام، واعتماده في سَنِّ القوانين المعمول بها حالياً في العالم^(١):

[١-٣-١٣] في الحقل الاقتصادي والاجتماعي:

منذ فتح الأندلس على يد العرب، كان هناك تأثيرٌ ملحوظ للفقه الإسلامي في الحقل الاقتصادي على البلاد التي فتحوها، كقضايا «الشركات» مثلاً.

ومن ضمن مجال الشركات: البنوك، وهي تقوم في العالم المعاصر بأجلّ الخدمات لتنشيط مختلف مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، فالشركة بصورة عامة في المذهب المالكي هي -كما يقول ابنُ عرفة-: «شركةٌ بقدر مُتموّل بين مالِكين فأكثر، ملكاً فقط، خارجين عن الإدارة»، والشركة هذه لها شبيهه إلى حد كبير في القانون الفرنسي، بل تستعمل المدونة الفرنسية نفس التعابير التي وُجدت في النصوص الفقهية القديمة، مما يدل على أن التشريع الفرنسي اقتبس منها.

ولاحظ الأستاذ (أوكتاف بيل) وهو مستشرق فرنسي (ت: ١٩٥٤ م.) في كتاب له حول الشركة والقسمة في المذهب المالكي، أن الشركات «المالكية» شركاتٌ تبني على عقود أمانة، وهو ما كان يجري به العمل في فرنسا قديماً.

وأهم أنواع الشركات اليوم في ألمانيا الغربية الشركة المعروفة بـ «القراض»، أي: ذات المسؤولية الفردية أو المحدودة المسؤولية (Comman-ditaire)، وهي من أهم أنواع الشركات في الفقه الإسلامي؛ لأنها لا تمسُّ ثروة وأملك المشارك فيها، وإنما تقتصر مسؤوليته على حصته في الشركة، أي: إن أرباب المال ملزمون على قدر حق كل منهم في رأس مال الشركة.

كما أن في القانون الفرنسي وغيره من القوانين الأوروبية، وخاصة منها القانون الألماني، الذي أصبحت بعض العمليات المصرفية تجري اليوم

١. مقتبس بتصرف من مقال للكاتبة الأدبية والناقدة التونسية / فوزية بن حورية.

في نطاقه على نسقِ البنوكِ دون فائدة، وهو مُظْهِرٌ لأثرِ الفقه الإسلامي في مجتمعاتهم، ولكنْ بصورة عامة وإجمالية، فإن معظم العمليات المالية والمصرفية العالمية ما زالت معاملات ربوية ومجحفة في معظم الأحيان، ولا تتَّفَق مع النظام المالي والاقتصادي الإسلامي العام؛ حيث إن النظام المالي والاقتصادي الإسلامي له ضوابط ثابتة تحافظ على الحقوق العامة، مع ضمان التكامل الاجتماعي العام.

ولا شكَّ أن للفقه المالكي خاصة بصماتٍ تقوى وتضعف حسب الأقاليم التي تأثرت في أوروبا وأمريكا بالإشعاع القانوني الإسباني والبرتغالي، مأخوذاً من الأندلس التي استمرت فيها تطبيقات فقهية مالكية إلى القرن الماضي (بداية القرن العشرين)، وقد نُقِلَ عن صاحب كتاب (لوس - وزار ايس دوطوليد) أن بعض القرى الأندلسية بناحية «بلنسية» استعملت العربية إلى أوائل القرن التاسع عشر وقد جمع أحد أساتذة جامعة مدريد (١١٥١) عقداً في موضوع البيوع مُحَرَّرًا بالعربية، كنموذج للعقود التي كان الإسبان يستعملونها في الأندلس.

ونعطي مثلاً لهذا التأثير في الحقل الاجتماعي أيضاً في مفهوم (الجنسية) في الفكر الإسلامي، فالجنسية في الحقيقة ميزة تتَّسِم بها أمةٌ بعينها، وهي أيضاً وصفٌ لمن ينتسب لأمةٍ من الأمم، ولم يهتم الإسلام بالجنسية أو العنصر بقدر ما اهتم بالملَّة أو النَحْلَة الدينية، ولكن ليس معنى هذا أن أحكام هذا المفهوم لم تكن واضحة مضبوطة في الإسلام، فقد قال النووي في كتابه «التقريب» نقلاً عن عبد الله بن المبارك وغيره أنَّ مَنْ أقام في بلدة أربع سنين نُسب إليها، وقد تحدث المراكشي في كتابه «الإعلام» عن أمد الحصول على هذه الجنسية حسب الفقه الإسلامي (الإعلام: ١/ ١٥٠). وقد اختارت مدونات قانونية أوروبية وأمريكية نفس هذه المدة لإقرار جنسية الأجنبي المقيم في البلد.

[٢-٣-١٣] ضوابط النظام المالي والاقتصادي الإسلامي:

يستند النظام المالي والاقتصادي الإسلامي إلى مجموعة من الضوابط التي تساعده في الوقوف أمام الأزمات والتقليل من مخاطرها، لا سيّما إذا تمّ مقارنته بالنظام الاقتصادي العالمي، الذي يستند إلى نظام الفائدة الربوية والمشتقّات المالية؛ لذلك يستلزم الأمرُ التعريف بالضوابط التي تحكّم عمل النظام المالي والاقتصادي الإسلامي، وأهمّها ما يلي:

أنه يقوم على منظومة من القيم والمُثل والأخلاق، مثل: الأمانة، والمصادقية، والشفافية، والبيّنة، والتيسير، والتعاون، والتكامل، والتضامن والتكافل... فالإسلام يؤكد على أنه: لا اقتصاد دون أخلاق ومُثل، ووجود مثل هذه القيم الأخلاقية تساعد على تحقيق الأمن والأمان والاستقرار لكافة المتعاملين، وفي الوقت نفسه تُحرّم الشريعة الإسلامية المعاملات المالية والاقتصادية التي تقوم على الكذب والمُقامرة والتدليس والغرر والجهالة والاحتكار والاستغلال والجشع والظلم وأكل أموال الناس بالباطل... لذلك يعدّ الالتزام بالقيم الإيمانية والأخلاقية بمثابة الإطار الذي يضبط فيه المسلم سلوكه سواء كان مُتبتجا أو مُستهلكا، بائعا أو مُشتريا، وذلك في حالة الزواج والكساد، وفي حالة الاستقرار أو في حالة الأزمة.

أنه يستند إلى قاعدة المشاركة في الربح والخسارة، وعلى التداول الفعلي للأموال والموجودات، ويحكم ضوابط الحلال الطيب الأولويات الإسلامية، وتحقيق المنافع المشروعة، والغنم بالغرم، والتفاعل الحقيقي بين أصحاب الأموال وأصحاب الأعمال، والحرية والعمل وفق ضابط العدل والحق، وبذل الجهد... هذا يُقلّل من حدة أيّ أزمة؛ حيث لا يوجد فريق رابح دائما أبداً، وفريق خاسر دائما أبداً، بل المشاركة في الربح والخسارة، وقد وضع الفقهاء والعلماء المتخصصون مجموعة من عقود الاستثمار والتمويل الإسلامي التي تقوم على صورة شرعية، ومن هذه العقود (صِيغُ التمويل

بالمضاربة، وبالمشاركة، وبالمرابحة، والاستصناع، وبالسَّلَم، وبالإجارة، والمزارعة، والمساقاة، وغيرها...)، كما حَرَّمت الشريعة الإسلامية كافة عقود التمويل بالاستثمار القائمة على التمويل بالقروض ذات الفائدة، والتي تُعدُّ من الأسباب الرئيسة للأزمة المالية العالمية الحالية، (علمًا بأن بعض العلماء قد أجاز التمويل الاستثماري، لكن بشروط معينة).

حَرَّمت الشريعة الإسلامية نظام المشتقات المالية، والتي تقوم على معاملات رسمية يسودها الغرر والجهالة، ولقد كيَّف الفقهاء مثل هذه المعاملات على أنها من المغامرات المنهي عنها شرعًا، فضلًا أن الخبراء وأصحاب البصيرة من المختصين في الاقتصاد العالمي يؤكِّدون أن من أسباب الأزمة المالية العالمية المعاصرة: نظام المشتقات المالية؛ كونها لا تؤدي إلى تحسُّن تنمية اقتصادية حقيقية، وإنما هي وسيلة من وسائل خلق النقود (دون تغطية رأسمالية) التي تسبب التضخم وارتفاع الأسعار والانهيَار السريع في المؤسسات المالية التي تتعامل بمثل هذا النظام.

والمشتقات المالية هي عقود تتم بين طرفين، وتشتق هذه العقود قيمتها من سعر أصل أساس (لسلعة محددة، كالذهب، والنفط، والمعادن، والقمح.. إلخ، أو من الأوراق المالية، كالسندات والأسهم، كأسهم شركة أبل أو غيرها)، وهذه العقود مقيَّدة بوقت وسعر محدد في العقد لتسليم الأصل الأساس، أو أن يتم التسوية نقدياً في تاريخ مستقبلي، تستمد المشتقات سعرها من أصل يمكن أن يكون سعرًا أو مؤشِّرًا أو غيره، كما يتم تداولها في الأسواق المالية «البورصة»، (ارتفاعًا أو هبوطًا بناءً على العرض والطلب - أي: المضاربة -، وليس على النتيجة أو القيمة الفعلية للأصول).

حرمت الشريعة الإسلامية كافة صور وصيغ وأشكال بيع الدين بالدين، مثل: (خصم الأوراق التجارية، وخصم الشيكات المؤجلة، ونظام جدولة الديون مع رفع سعر الفائدة)، ولقد أكدت ذلك الآثار التي أفرزتها الأزمة

المالية، والتي اعترف بها المختصون في الاقتصاد العالمي، على أن من أسباب الأزمة المالية المعاصرة (في القرن الواحد والعشرين) هو قيام بعض شركات الوساطة المالية بالتجارة في الديون، وهو ما أدى إلى اشتعال الأزمة وتفاقمها.

يقوم النظام المالي والاقتصادي الإسلامي على مبدأ التيسير على المقترض الذي لا يستطيع سداد الدين لأسباب قهرية، كما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨٠)، فضلاً عن أن المختصين في الاقتصاد الدولي والمدني أكدوا على أن من أسباب الأزمة توقّف المدين عن سداد الالتزامات المترتبة عليه، وقيام الدائن برفع سعر الفائدة، أو تحرير القرض بفائدة إلى أجل معيّن، أو تنفيذ إجراءات الحجز على الرهون المقدّمة من قبل المدين، وتشريده وطّرده، وهذا ما أدى إلى وجود أزمة اجتماعية وإنسانية إلى جانب الأزمة المالية.

[٣-٣-١٣] نظام الوقف

يُعرّف الوقف بأنه حبس المال عن الاستهلاك للانتفاع المتكرر به في وجه من وجوه البر، ويُعدّ صدقةً جاريةً ما بقي رأس ماله.

الأوقاف مؤسسة قديمة جدًّا عرفت كثرة من الشعوب قبل الإسلام. لقد عرف العهد الفرعوني في مصر بعض الأوقاف، من دور للعبادة، وأراض ينفق ريعها على دور العبادة، أو تُعطى عوائدها للربان لينفقوا على الفقراء والمرضى.

ويركز الوقف على الاستثمار في أصول رأسمالية إنتاجية، تنتج المنافع والإيرادات التي تستهلك في المستقبل، سواء كان هذا الاستهلاك بصورة جماعية كمنافع المسجد أو المدرسة، أو بصورة فردية نحو ما يوزع على الفقراء والمساكين أو على الذرية، فهو عملية تجمع بين الادخار والاستثمار معاً.

ميز الإسلام بين ثلاثة أنواع من الوقف بحسب الأغراض هي: الوقف الديني البحت، والوقف الخيري، والوقف الأهلي.

فالوقف الديني هو تخصيص الأموال لأهداف العبادة، نحو أماكن الصلاة والحج وسائر أشكال العبادة.

والوقف الخيري هو ما يخصص من عقارات وأموال لوجوه البر المتنوعة، من رعاية صحية وثقافية وتعليمية واجتماعية وأمنية وغيرها.

أما الوقف الأهلي فهو أن يقوم المسلمون بوضع أوقاف من أملاكهم لصالح ذرياتهم أولاً ثم لوجوه الخير العامة بعد ذلك.

عملية تنمية

والوقف عملية تنمية؛ فهو يتضمن بناء الثروة الإنتاجية من خلال عملية استثمار حاضرة، تنظر بعين البر والإحسان للأجيال القادمة، وتقوم على التضحية الآنية بفرصة استهلاكية مقابل تعظيم الثروة الإنتاجية الاجتماعية، التي تعود خيراتها على مستقبل حياة المجتمع بكامله.

وإذا نظرنا إلى طبيعة ثمرات أو منافع أو إنتاج الثروة الموقوفة، فإنه يمكن تقسيم الأموال الوقفية إلى قسمين: الأول أموال تنتج خدمات استهلاكية مباشرة للغرض الموقوفة عليه، مثال ذلك: المدرسة والمستشفى ودار الأيتام، والمسكن المخصص لانتفاع الذرية، وهذا النوع من الوقف يمكن أن يكون غرضه وجهاً من وجوه الخير العامة.

أما القسم الثاني من أموال الوقف فهو ما قصد منه الاستثمار في إنتاج أية سلع وخدمات مباحة شرعاً، تباع في السوق لتنفق عوائدها الصافية أو أرباحها على أغراض البر التي حددها الواقف، سواء كانت دينية أو خيرية عامة أو أهلية، ويطلق على هذا النوع من الوقف الأوقاف الاستثمارية.

تقوم فكرة الوقف على تنمية قطاع ثالث متميز عن كل من القطاع الخاص والقطاع الحكومي، وتحميل هذا القطاع مسؤولية النهوض بمجموعة من الأنشطة لا تحتمل -بطبيعتها- الممارسة السلطوية للدولة، كما أنها تبتعد عن الدوافع الربحية للقطاع الخاص.

مشروعية الوقف

تستند مشروعية الوقف إلى الكتاب والسنة والإجماع، أما الكتاب فيدل على مشروعيته بعموم قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى نُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ﴾ (١٢). وقد بادر بعض الصحابة إلى التصديق بأحب أموالهم إليهم.

أ. عن أنس بن مالك قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة نخلاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما أنزلت: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى نُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ﴾ (١٢). قام أبو طلحة وقال: يا رسول الله: إن الله يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى نُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ﴾ (١٢)، وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال ﷺ: اجعلها (أي: ريعها) في قرابتك. (رواه ابن حبان)

ب. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». ويفصّل معنى الصدقة الجارية يقول النبي ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علمٌ نشره، أو ولدٌ صالحٌ تركه، أو مصحفٌ ورّثه، أو مسجدٌ بناه، أو بيتٌ لابن السبيل بناه، أو نهر أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه بعد موت». (رواه ابن ماجه)

ج. وروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قدم النبي ﷺ المدينة وليس بها ماء يُستعذب غير بئر رومة، فقال: «من يشتري بئر رومة، فيجعل فيها دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة؟»، قال عثمان: «فاشتريتها من صلب مالي»، ومعنى الحديث أن عثمان اشترى البئر وجعلها وقفاً على المسلمين. وما زال هذا الوقف مع أرض النخل إلى الآن يصرف على المحتاجين.

تطور الوقف على مرّ العصور الإسلامية:

- في العصر الأول (عهد الصحابة)

كانت أوائل الوقفيات في عهد الرسول وصحابته وكانت تشمل المساجد والمزارع وغيرها.

- في العصر الأموي

كثرت الأوقاف نظراً لاتساع الفتوحات الإسلامية التي بلغت مشارف الصين شرقاً، وحدود فرنسا غرباً وأنشئت إدارة خاصة للإشراف على الأوقاف، وخضعت إدارة الأوقاف لإشراف السلطة القضائية مباشرة، وكانت مستقلة عن السلطة التنفيذية.

- في العصر العباسي

ازداد التوسع في إنشاء الأوقاف، وكان يتولى ديوانها من يطلق عليه (صدر الوقف)، وشملت مصارف ريع الوقف الأوقاف الحضارية المدنية كالمستشفيات والمكتبات ودور الترجمة ومعاهد التعليم وغيرها.

- في عصر المماليك

اتسعت الأوقاف في عهد المماليك وكثرت كثرة ملحوظة، واتّسع نطاقها، وأنشئت ثلاثة دواوين للإدارة والإشراف على الأوقاف هي: ديوان لأحباس المساجد، وديوان لأحباس الحرمين الشريفين وجهات البر المختلفة، وديوان للأوقاف الأهلية.

- في العصر العثماني

اعتنى سلاطين العثمانيين بالأوقاف بدرجة ملحوظة، وتوسعت مصارف ريع الوقف لتشمل المدارس و كليات الطب والنساء الممرضات والمستشفيات وسبل المياه والتزويج للعrsan والمطاعم ودور السكن وتوفير الغذاء والأراضي الزراعية والمعاصر والخدمات الطبية لمستشفيات قائمة، مواكبة للتطور والتقدم العلمي في العصور الحديثة. ونظرًا لأهمية مكة والمدينة وبيت المقدس للمسلمين فقد خصهم باهتماماته بسبب قدسيته، فبذلت الدولة العثمانية الكثير من المال للحفاظ على المباني الموجودة فيها، وأضافت الكثير من المساجد والمدارس والتكايا التي مازالت شاهدة على وجودهم حتى الآن، وكذلك في الأوقاف التي ورثتها دولتهم في البلاد الإسلامية، وزادوا عليها ونظمت أوقاف عامة وأوقاف خاصة، وجعلت شيخ الإسلام (المفتي) هو الجهة المسؤولة عن إدارة الوقف الخاص مع ترك الوقف العام للمقيمين عليه.

- في العصر الحاضر

اهتمت كثير من الدول الإسلامية في العصر الحاضر بالأوقاف في مجالات شتى، كما أنشأت كثير منها وزارات خاصة بالأوقاف أو إدارات خاصة تعنى بشؤونها وأمورها.

ومن أشهر الجامعات الإسلامية القائمة على الوقف قديمًا: الأزهر الشريف، والزيتونة، والنظامية، والجوزية، ومن آخرها: الفلاح، والصولتية.

ومن أشهر الأعمال الوقفية القائمة إلى الآن في العالم العربي: وقف الشيخ صالح الراجحي في بريدة في المملكة العربية السعودية، ويحتوي على أكبر بستان في العالم بمساحة ٥٤ مليون متر مربع، ويحتوي على ٢٠٠ ألف نخلة، ودخل موسوعة جينيس العالمية، كما يوجد أيضًا وقف الملك عبدالله بن عبدالعزيز لوالديه في مكة المكرمة (أبراج البيت ٧٠ برج) مقابل المسجد الحرام، وفيه برج ساعة مكة أكبر ساعة في العالم وكذلك يعد من أضخم

مجمع أبراج في العالم (٥, ١ مليون متر مربع) وتبلغ تكلفته ١٥ مليار دولار أمريكي، ويعود ربع الوقف على مصالح وخدمة الحرم المكي الشريف.

[٤-٣-١٣] مكانة الزكاة في الاقتصاد الإسلامي

إن الاقتصاد الإسلامي يؤمن بوفرة الموارد، ومن ثم إمكانية تحقيق حد الكفاية لكل إنسان؛ لأن موارد الله تعالى التي خلقت للجميع تكفي الجميع، وهو أيضًا يؤمن بحق الجماعة في موارد الثروة، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۝٢١﴾، وقال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ۝١٠٣﴾.

والزكاة ركن أساسي من أركان الاقتصاد الإسلامي، وهي إحدى الوسائل التي يمكن أن تستخدم وتساهم في تحقيق أهداف الاقتصاد الإسلامي.

وقال في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾. والصدقة المفروضة هي الزكاة.

ولو طبقت الزكاة كما أَرادها الإسلام لما اقتصر أثرها على عدد محدود من أفراد المجتمع، وإنما تستطيع إذا طبقت بالأسلوب الصحيح أن تنقل المجتمع من التخلف للتقدم، وتقود خطأ التنمية في كل مجتمع إسلامي، وهي ليست علاقة فردية بين غني وفقير، وإنما علاقة بين الدولة والمواطنين - في حال لم يتم تطبيقها من الأفراد -؛ فيجب عليها أن تأخذ الزكاة من الأغنياء للإنفاق على المشروعات التي تنقل الفقراء إلى مستوى الأغنياء، وهي لا تُعطى معونة مؤقتة، وإنما غنى كاملاً.. يقول سيدنا عمر رضي الله عنه للعاملين على الزكاة: إذا أعطيتهم فأغنوا.

ويقول النووي رحمه الله: يُعطى الفقير والمسكين ما ينقله من الفقر إلى الغنى دون أن يعود فقيراً مرة أخرى. فحتى هذه الجزئية، يمكن أن تقود إلى

التقدم الاقتصادي، وأن تحقق للمجتمع التنمية الاقتصادية إذا فُهِمَت على حقيقتها كما أرادها الله أداة للإنتاج ووسيلة للتقدم.

والزكاة، فرض أصيل، وركن من أركان الإسلام الخمسة، وهي فريضة على كل مسلم عاقل قادر مكلف، نصابها المعلوم هو من إجمالي المملوكات والثروة إذا مرَّ عليها عام.

والزكاة في مفهومها هي تناغم اجتماعي اقتصادي لفائدة المجتمع، فبإمكانها أن تغير حياة البلائين من البشر، أجل البلائين وليس الملايين! لماذا؟ لأن أبسط حاسبة مادية تقول لنا إنه إذا أخرج جميع المسلمين ٥, ٢٪ من أموالهم، لتوفر المال الكافي لحل كل أزمات الإنسانية، إذا فرضنا صرفها في نفع المستفيدين والفقراء والمحتاجين.

وهناك عدد من أنواع الزكاة التي يجب على المسلم إخراج الزكاة فيها، وهي:

أ. زكاة الذهب والفضة

قال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُمْسِكُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٤).

فالذهب والفضة من أنواع الزكاة التي أمرنا الله تعالى بها.

كما أوضح الله تعالى الشروط التي تجب عندها الزكاة في الذهب والفضة، وهي:

- أن يبلغ كلاهما النصاب، ومقداره مفصّل في كتب الفقه.

- وأن يمرَّ عليهما الحول.

- وأن يكونا ملكًا تامًّا، لمسلم حر.

ب. زكاة بهيمة الأنعام

قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ، وَلَا بَقَرٍ، وَلَا غَنَمٍ، لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهَا إِلَّا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمَ مَا كَانَتْ وَأَسْمَنَهُ، تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا، وَتَطَوُّهُ بِأَظْلَافِهَا، كُلَّمَا نَفِدَتْ أَخْرَاهَا عَادَتْ عَلَيْهِ أَوْ لَاهَا، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ» (رواه مسلم).

لدفع زكاة بهيمة الأنعام يجب أن تحقق الشروط:

- أن يمر على الأنعام حَوْل (عام هجري) كامل عند مالكها؛ لقول النبي ﷺ: «لَا زَكَاةَ فِي مَالٍ حَتَّى يَحُولَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ» (رواه ابن ماجه).

- أن تكون سَائِمَةً؛ لقول النبي ﷺ: «فِي كُلِّ إِبِلٍ سَائِمَةٌ فِي كُلِّ أَرْبَعِينَ ابْنَةً لَبُونٌ» (رواه النسائي)، والسائمة: هي التي يكون غذاؤها على الرعي من نبات الأرض، والكَلَأ المباح، وهو الذي نبت بفعل الله سبحانه دون أن يزرعه أحد، أما إن كان غذاؤها علفاً يُشترى فلا تُعدّ سائمة ولا زكاة فيها. والله أعلم.

- أن تكون مُعَدَّةً للاستفادة من ألبانها ونسلها، لا أن تكون عاملة، والإبل العاملة: هي التي يستخدمها صاحبها في حرث أو سقي الأرض، أو نقل المتاع، أو حمل الأثقال. والإبل العاملة لا تجب فيها الزكاة؛ لأنها -حينئذ- تدخل في حاجات الإنسان الأصلية كالثياب. أما إذا أُعِدَّت للتأجير فإن الزكاة تكون فيما يحصل من أجرتها، إذا حال عليه الحَوْل.

- أن تبلغ الأنعام النُّصاب الشرعي: الإبل خمس، الغنم: أربعون، البقر: ثلاثون.

ج- زكاة ما يخرج من الأرض

قال الله تعالى في سورة الأنعام عن زكاة ما يخرج من الأرض: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ (١٤١).

وقال أيضًا رسول الله ﷺ: «فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ وَالْعُيُونُ أَوْ كَانَ عَثَرِيًّا [عَثَرِيًّا: ما يشرب من غير سقي إما بعروقه أو بواسطة المطر والسيول] نِصْفُ الْعُشْرِ» (رواه البخاري).

لإخراج زكاة الثمار يجب أن تتوفر فيها شروط الزكاة:

- أن تكون خارجة من أرض صاحب الزكاة.
- أن تبلغ النصاب، ومقداره خمسة أوسق، وهي ما تعادل (٦١٢) كيلو غرامًا تقريبًا.

د- زكاة التجارة

- زكاة التجارة هي وضع المال في عروض التجارة، ويتوفر فيها شرطان:
- أن يبلغ النصاب: وهو ما يساوي ٨٥ جرامًا من الذهب، أو ٥٩٥ جرامًا من الفضة.
 - أن يبقى النصاب حوْلًا كاملاً. (عامًا هجريًا).

هـ- زكاة الفطر

زكاة الفطر هي الزكاة التي تدفع قبل صلاة عيد الفطر، وأمرنا الله تعالى في سورة البقرة بالزكاة في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا نُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

تجب زكاة الفطر على كل مسلم حيث فرض رسول الله زكاة الفطر، صاعًا من تمرٍ، أو صاعًا من شعيرٍ، على العبد والحرِّ، والذكر والأنثى، والصَّغير والكبير، من المسلمين، وأمر بها أن تُؤدَّى قبل خروج الناس إلى الصلاة.

وما وجود بالذكر أن القرآن لم يقف أمام التفاصيل الدقيقة للأحكام، ومن ذلك أحكام الزكاة، وإنما أتت التشريعات فيه مجملة.

و قد أكد القرآن الكريم على أن تفصيل جميع الأحكام التي ساقها هي من مهام السنة النبوية، لقوله عز وجل في سورة النحل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ٤٤. فأداء الطاعات جميعها لا بد أن يكون تبعاً لم أرشد إليه النبي ﷺ وَبَيَّنَّ.

إن الواقع التاريخي خير دليل على أنه كان للزكاة على عهد النبي ﷺ نظام دقيق، حدد النبي ﷺ فيه مقاديرها وأنصبتها وشروطها وجميع أحكامها بدقة ووضوح، فقد عنت أحاديث كثيرة صحيحة في جميع كتب السنة ببيان ذلك وتوضيحه.

وقد سار الخلفاء الراشدون وجميع الصحابة على ما أرشد إليه النبي ﷺ بشأن أحكام الزكاة، وتبعهم في ذلك التابعون ومن تبعهم إلى يومنا هذا.

لقد أيقنت الفرق الإغاثية الإسلامية من شتى بلدان المسلمين، وأيقن الفقراء والمحتاجون أثر الزكاة، كيف تنقذ الإنسان، وتجدد الأمل، وتغير حياتهم بالكامل، قال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ١٠٣.

[٥-٣-١٣] تأثير المسلمين في صياغة مبادئ القانون الدولي:

منذ القرن التاسع الميلادي، بعد مرور مدة قليلة على انتشار الدين الإسلامي في الأندلس (إسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا وبعض الجزر المتوسطية)، برزت مبادئ الأخلاق الدولية المستمدة من مبادئ هذا الدين، وقد صنف «مارسيل بوازار» - وهو أستاذ جامعي سويسري، وكان ممثلاً للجنة الدولية للصليب الأحمر في سنة ١٩٧٢ م. ومشاركاً في برامج التثقيف الدبلوماسي بالمعهد الجامعي للدراسات بجنيف بسويسرا - كتاباً في هذا الصدد اسمه الأول «الإسلام والخلق الدولي»، ذكر فيه كثيراً من العناصر

الحضارية الفلسفية والخلقية الإسلامية التي برزت مؤخرًا في مختلف مجالات الفكر التشريعي دبلوماسيًا وعسكريًا ومدنيًا.

وقال: إن الإسلام حضارة أعطت مفهومًا هامًا للفرد وحددت بدقة مكانة المجتمع، وقدمت عددًا من الحقائق الأولية والأساسية التي تحكم العلاقات بين الشعوب.

ويدل التاريخ على وجود حقيقة ثابتة مثالية في الحضارة الإسلامية، التي كانت منذ بدئها - ولا تزال - متوجهة توجهاً كاملاً نحو الله، وهذه الظاهرة التي تغيب دائماً عن الفكر والتحليل الغربي الحديث تعطي للإسلام طابعه المتميز بالدوام.

فالإسلام هو دين مطلق إلهي وعقلاني، وعلى العقل البشري أن يتوافق والمنهاج الموصى به.

حيث إن الاتصالات بين الإسلام وأوروبا قد وصلت تدريجياً عن طريق الأندلس وصقلية، كما تَبَلَّوَرَت عن طريق مَراسي البندقية وجنوة وبيزا، وقد كان التجار الأوروبيون يقضون عدة شهور في الشرق في أوائل الخريف ونصف الربيع من كل عام، فكان ذلك أول اتصالهم بالأخلاق والعادات الإسلامية؛ مما تَمَخَّض عن نواة القانون التجاري الدولي الذي برز - أول ما برز - من خلال انتشار مبدأ حرية البحار، وذلك منذ القرن الثاني عشر الميلادي.

وقد كان للمسلمين «الموحدين» الذين أنشؤوا مملكتهم في المغرب العربي (المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا - والأندلس في ١١٢١ - ١٢٦٩ م.) دورٌ فعَّال في ذلك؛ حيث وضعوا المبادئ الأساسية لهذه القواعد، وحاربوا القرصنة بإحداثهم مجموعاتٍ مسلَّحةٍ خاصة بتأمين البحار، في الوقت الذي كانوا فيه سادة المتوسط. يقول (أندري جوليان) في كتابه «تاريخ الشمال

الإفريقي»: إن أول أسطول في البحر المتوسط كان للموحدين، وهم أول من لقن مصطلحات التجارة الدولية أيضًا لأوروبا.

هذا وإن أول بادرة نتجت عن حرية التبادل التجاري بين الشرق والغرب خاصة في المتوسط هي ظهور عملاء تجاريين مهّدا للمبادلات الدبلوماسية؛ فأصبحوا عبارة عن قناصل أوروبيين على التراب الإسلامي بعد الحروب الصليبية، وقد بادر الإيطاليون، والكتلانيون الإسبان، وتجار جنوب فرنسا، إلى إقامة هذه القنصليات في الشرق الإسلامي، فكان من لوازم هذا التأثير إدراج نصّ قانوني في دستور بلدية مرسيليا منذ القرن الثالث عشر، حول احترام ملكية الأجانب إِبَّانَ الحرب؛ وذلك احتذاءً بما كان يتمتع به التجار الفرنسيون على الشواطئ المصرية والشامية، ومعلوم أن حماية المسافرين والتجار الأجانب كانت تتّسم - منذ أوائل الإسلام - بِسِمَةِ الوجوب في دار الإسلام.

وقد تَبَلَّوَر التأثير الإسلامي عملياً في التنصيب على هذه المبادئ فعلاً في المعاهدات التجارية، مثال ذلك المعاهدة التي وُقِّعت عام (٨٩٥هـ / ١٤٨٩م) بين جمهورية فلورنسا والسلطان المملوكي «قايتباي» أمير القلعة بالقاهرة، وقد تمَّ توقيعها بعد ثلاث سنوات من المفاوضات، برزت خلالها أولاً كمرسوم سلطاني لدوائره الإدارية بمصر والشام قبل أن تكون معاهدة مع تجار أوروبيين. وقد نصّ هذا المرسوم - بالإضافة إلى حماية التجار (أوروبيين ومسلمون) - على ضمان حقوقهم في عدة بلدان عربية وإسلامية.

بالإضافة إلى أن ثَمَّة مساهمات عديدة عامة للفقهاء والعلماء المسلمين في صياغة الكثير من المبادئ والمعاهدات الدولية، اعتماداً على مبادئ الشريعة الإسلامية، منذ ذلك التاريخ وحتى عصرنا هذا.

[٦-٣-١٣] تأثير الفقه المالكي في العالم الغربي:

لا بدّ لكل مسلم وعربي أن يعرف - حقّ المعرفة - من أين استُمدَّ القانون الفرنسي؛ حتى لا يقول بأن فرنسا منّت علينا بالتقدّم والرُّقيّ، وخاصة بقانونها الحضاري الحالي، ولولاها لبقينا في عتمة الظلمات، وحتى لا يعود أيضًا إلى مغالطة نفسه وغيره، بأنّ الأمة الإسلامية جاهلة بالقوانين المدنية الحديثة، وأنا مدينون للغرب.

لذا فمن الواجب علينا أن نعرف ممّن أخذت فرنسا وأوروبا العلوم والقوانين، ومدى تأثير وتغلُّل المذهب المالكي (مذهب الإمام مالك بن أنس ٩٣-١٧٩ هـ. / ٧١١-٧٩٥ م.) - على وجه الخصوص - في القانون الفرنسي، وصحة اقتباس هذا القانون من هذا المذهب.

كانت أوروبا في العصور الوسطى ترزح في عتمة الظلمات وتحت نير الجهل؛ فقد كانت نسبة الأميين في أوروبا (٩٩٪) مقابل (١٪) فقط من المتعلمين، وذلك حين بدأت النهضة في أوروبا، في حين كان في الأندلس وحدها (١٧) جامعة، «والجامعة» في الأصل هي اختراع إسلاميٌّ بحثٌ، وهو من أعظم الاختراعات، وكان مثل الجامعات الحديثة، فكانت جامعة قرطبة وحدها بها (١١٠٠٠) طالب وطالبة يدرسون، منهم (٤٠٠٠) أوروبيون، من بينهم «البابا سلفستر الثاني» صاحب الدور الأساس الفعليّ في نقل العلوم العربية والإسلامية بمختلف أنواعها وأبعادها إلى أوروبا، وتغيير نمط الحياة فيها، خاصة من الناحية القانونية، وذلك بنقله للفقه المالكي، وإدخاله - زورًا - كقانون روماني جديد، وذلك في القرون الوسطى الأوروبية، حيث يقول معظم الأوروبيين - بكل ثقة وتعجرفٍ -: ليس للعرب فضلٌ علينا، ولا تأثير لهم في المجتمع الأوروبي، في حين أن هؤلاء الذين درّسوا منهم في قرطبة هم الذين أشعلوا النهضة في أوروبا.

لقد كان «البابا سلفستر الثاني» (جربرت) هذا الذي وُلِدَ في مدينة بيليك في مقاطعة أوريك الفرنسية (٩٤٠-١٠٠٣م) باحثًا متعمِّقًا وأستاذًا مولعًا وشغوفًا بالعلوم العربية الإسلامية التي ازدهرت في عصره، وذاع صيتها، فغرف «البابا سلفستر» من مدارس الأندلس وجامعة «القرويين» بمدينة فاس بالمغرب، وهي ثاني أقدم جامعة تم إنشاؤها في العالم بعد جامعة «الزيتونة» في تونس، ولكنها تُعدُّ الأولى - حسب موسوعة غينيس للأرقام القياسية -، والتي مكث فيها فترة من الوقت، واكتسب فيها أيضًا معرفةً واسعة من العلوم التطبيقية التي أحرز فيها تقدمًا عظيمًا لاحقًا.

وبفضل الأساتذة العرب في جامعة «القرويين» وفي الأندلس تعلَّم سلفستر الثاني أشياء لم يكن أحدٌ في أوروبا ليحلم بها أو يسمع عنها، على سبيل المثال لا الحصر: «الحساب»، «الرياضيات»، و «المِعداد» الذي ابتكره الخوارزمي، والنظام العشري للأعداد باستخدام الأعداد العربية والصفير والهندسة والميكانيكا والساعة ذات الميزان والفلك وعلم التنجيم والإسطرلاب الذي يقيس أبعاد الشمس والقمر والنجوم والمواقع العالمية بدقة متناهية ويحدد أبعاد الأرض بدقة عجيبة، وأصبحت آلة لا يستغنى عنها في الملاحة والفلك والمساحة.

وقد درس سلفستر بـ «قرطبة» أيضًا - وبصورة خاصة - : (الفقه المالكي)، وهو فقه الإمام مالك بن أنس، الذي استرعى انتباهه، وحاز إعجابه، حتى استحوذَ على كيانِه حدَّ السيطرة عليه. فاعتنى به عنايةً فائقةً، وانكبَّ على دراسته دراسةً معمقةً لسنوات عديدة، ولما عاد إلى فرنسا لم يقدِّم لهم الإسطرلاب وما تعلم هناك من علوم فحسب، بل قدم لهم أيضًا كنزًا ثمينًا جدًّا، وهو (الفقه المالكي) وأصوله، بما فيها من بيوعات وشراءات وتعويضات وشروط... إلخ.

إنه قانون عجيب ومخيف، مدونة قانونية متكاملة، تضبط كل شروط الحياة بالمساواة والإنصاف، على خط العدل والصراف المستقيم. هذا روح الإسلام دَرَسَهُ البابا سلفستر الثاني تمامًا، ولكنه كذب على الأوروبيين، وقَدَّمه لهم على أنه القانون الروماني المُبتَكَر الجديد، ولم يُفصِّح عن الحقيقة ويُقُلَّ لهم إن هذا القانون ما هو في الأصل إلا فقه المسلمين، وظل يعمل به ويُعدِّل بعضًا منه، إلى أن انتهى بالقانون المعروف بـ (قانون نابليون)، لذا يرجع الفضل إليه في إدخال كل هذه العلوم إلى فرنسا، ومن ثمَّ إلى أوروبا، ثم إلى العالم كلّه.

إن قانون فرنسا الذي تمَّ وضعه سنة (١٨٠٥م)، وسوّقه ثمَّ ورّثه لنا الغربُ عبْرَ الاستعمارِ جُلُّهُ يتطابق مع الشريعة الإسلامية بنسبة كبيرة؛ لأنه باختصار شديد ابنُ هذه الشريعة، فهو بضاعتنا رُدَّتْ إلينا.

لو أننا عدنا إلى التاريخ، إلى عهود خلتْ وقُرون مَضَتْ (قبل الفتوحات الإسلامية في الأندلس وما جاورها، حيث كانت أوروبا ترتع فيها عتمةُ الجهل، وتعمُّها الفوضى، وكانت الغلبةُ للأقوى والأشرس) لَعَرَفْنَا أن القانون السائد الذي كان حُكَّام أوروبا يعملون به هو القانون الروماني الذي لا يَمُتُّ اليوم بصلة إلى القانون الفرنسي أو الأجنبي عامة، وقد جَرَت العادةُ أنه في الحروب والاستعمار تتمازج الحضاراتُ أحيانًا، وتتعارض أحيانًا أخرى.

وحينما انتشر الإسلامُ في الأندلس وأجزاء من الجُزُر والسواحل الأوروبية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السابع الميلادي عن طريق الفتوحات الإسلامية كان الحُكَّام المسلمون يرسلون الفقهاء والعلماء والقراء إلى البلدان والأقطار التي فتحوها؛ حتى يعلموا أهلها أصلَ الدين الإسلامي، فقههُ وتشريعَه وأحكامه، وذلك إِبَّانَ الفتح الإسلامي، فتغلغل الفقه الإسلامي، وكان له تأثيرٌ كبيرٌ في الحياة الأوروبية العامة والخاصة، واستمَّال الناسُ إليه؛ فَرَسَخَ التشريعُ الإسلامي في كثير من هذه الدول.

وبعد فتح مدينة القسطنطينية - عاصمة الإمبراطورية البيزنطية -، على يد المسلمين مُمثلين بالدولة العثمانية في القرن الخامس عشر الميلادي، شكّل هذا الحدث - إضافةً إلى فتح منطقتين روميتين أُخريّين لاحقاً - نهايةَ الإمبراطورية البيزنطية، بعد أن صمدت مدةً طويلة، كذلك شكّل الفتحُ العثماني للقسطنطينية ضربةً مُوجعةً للعالم المسيحي والبابويّة الكاثولوكية (في روما)؛ لأنّ المدينة كانت تُشكّل عائقاً وحاجزاً أمام التوغّل الإسلامي في أوروبا.

بعد تمام الفتح، نُقلَ السُلطانُ مُحَمَّدُ الفاتح عاصمةً مُلكه من مدينة أدرنة (وهي إحدى مُدن تركيا في إقليم تراقيا) إلى القسطنطينية، والتي تسمّى اليوم إسطنبول، وانتشر عددٌ كبير من العلماء والفقهاء المسلمين، والمؤسسات التعليمية العربية، والأطباء والشعراء العرب والمسلمين؛ لتتّسق التشريعات الإسلامية مع تطوّر حياة الناس، وانسجامه مع الفكر المعرفي، وحمايته لحقوق الإنسان... حيث وضع علماء المسلمين منهجيةً للبحث العلمي قبل علماء أوروبا، واستخدموها في اكتشافاتهم وابتكاراتهم العلمية حين ذاك.

وبذلك زاد تَغَلُّلُ الإسلام وتشريعهِ وفقهِهِ وأحكامهِ وقوانينهِ، ودَاعَ صِيَتُهُ، وانتشرَ أكثر فأكثر في أوروبا، فأصبح القانون السائد والمعمول به إلى يومنا هذا، في تركيا والبرتغال وفرنسا والأندلس (إسبانيا) التي بقيت تحت سيطرة المسلمين مدة (٧٨٠م) سنة تقريباً، من سنة (٧٢١م) وحتى سنة (١٤٩٢م)، بالإضافة إلى بعض البلدان فيما يُسمّى اليوم بالدول الاشتراكية، التي كان معظمها تابعاً للأتراك (العثمانيين) إلى حدود سيبيريا، حيث يمتد ما يسمى بالجمهوريات الإسلامية السوفياتية، وبعض هذه الدول استقلّ في أواخر القرن العشرين.

[١-٦-٣-١٣] مَدَى وُجُود المذهب المالكي في قانون نابليون:

وهذا رَجُلٌ عالم من علماء الأزهر، درَسَ القانونَ في فرنسا في بداية القرن العشرين، وهو الأستاذ (سيد عبد الله حسين)، وقد رَاعَهُ التشابهُ الشديدُ في كثيرٍ

من أحكام القانون في الناحية المدنية مع مذهب الإمام مالك بن أنس، الذي درّسه في الأزهر؛ فكان أن عُنِيَ بوضع كتابٍ ضخمٍ يقارن فيه بين التشريعين، في كتاب مفصّل لمن يريدُ البحثَ عنه، وهو (المقارنات التشريعية)، والذي ظهرت طبعته الأولى في القاهرة سنة (١٩٤٧م)، فبعد أن استعرض تاريخ هذين التشريعين: الإسلامي والفرنسي، ذكر أنه من هذه الحوادث التاريخية القاطعة يتبيّن أنه كان للشريعة الإسلامية عمومًا، ولمذهب الإمام مالك خصوصًا، دخلٌ في التشريع الوضعي في أوروبا، فالحقيقة المخفية عندهم - إجمالًا - هي أن مذهب الإمام مالك مُدَوّن عندهم، ومعمولٌ به علمًا وعملاً منذ قرون بلا نزاع، ولهم أن يقولوا (عن عمدٍ أو جهلٍ): قانون العوائد أو غيره.

ثم بعد أن أشار إلى هذه (المقارنات التشريعية) قال: وهذا دليلي العلمي والعملّي على أن القانون المدني الفرنسي مأخوذٌ جُلّه (حوالي ٨٠-٩٠٪) من مذهب الإمام مالك بن أنس، وفي هذا الكتاب ما يغني عن الجدل، والله خيرُ الشاهدين.

ومن هذه الأمثلة والمقارنات يكفي أن نختار البعض منها، ليظهر مبلغُ ما في هذين التشريعين من تشابهٍ في كثير من النواحي، وهو تشابهٌ يتمُّ عن أخذِ الثاني من الأول، القانون الفرنسي من مذهب الإمام مالك، في شكلِ عاداتٍ وأعرافٍ تأصلت في فرنسا أيامَ خضوعها - وغيرها من الدُول الأوروبية - للحكم الإسلامي:

- (في العقد) مثلاً، نجدُ أن ما جاء فيه في القانون الفرنسي من انعقاده (كتابة العقد ولزومه بالإيجاب والقبول من المتعاقدين)، وشرط صحة العقد بصفة عامة، عيوب العقد، وحرية المتعاقدين، وأن انتقال الملكية للموكل يتمُّ بمجرد تعاقد الوكيل عنه، كلُّ ذلك نجده في فقه الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، على غير ما هو معروف في القانون الروماني.

- (في الحَجَر)، أي: المنع مِنْ نفاذ التصرفات. ونجدُ هذا الاتفاقَ أيضًا في الحَجَر، وأسبابه، ونتائجه، وعدم أهليّة المحجور عليه، وانتهاء هذا الحَجَر، وأسباب انتهائه.

- (في المِلْكِيَّة)، ودليلها، وتبثيتها، وحكم وضع اليد، وشروطه، ونتائجه، وأنَّ وضع اليد على المنقول يعادل حُجَّة الملكية، وجواز نزع الملكية للمنفعة العامة، وأحكام الملكية المشتركة، وتحديد ملكية المناجم، وطُرُق نقل الملكية في المنقول والعقار، وسقوط الحقِّ بمُضيِّ المدة.

- (في عقد الإيجار)، يتَّفقان أيضًا في كثير من أحكامه، مثل: التزامات المؤجِّر، الخسارة في العين المؤجَّرة، ضمانها، التنازل عن عقد الإيجار والخدمة، ومدة الإيجار.

وهناك نواح كثيرة أخرى هي موضعُ اتفاقٍ بينهما، كالتركة وتقسيمها بين الورثة، والوصية، والهبة، وأحكام كلِّ منهما...

كما أنَّ ما نراه اليوم من نظرياتٍ فقهيةٍ منسوبةٍ لفقهاء القانون الفرنسي، كعدم الوقوف على ظاهر النصوص، بل الأخذ في الحُساب بالمعاني المُختزنة في النصِّ، وهو ما يُعبَّر عنه بـ «روح القانون»، كلُّ هذه الأصول وغيرها مأخوذةٌ من الفكر الفقهي الإسلامي الذي صاغه علماء الشريعة الإسلامية، وما هذه إلا قطرة من بحرٍ فيما يتفق فيه التشريعان.

وهذا يدلُّ على أنهم مهما بحثوا وابتكروا فلن يكون لهم حلٌّ إلا منهجُ الله عزَّ وجلَّ، كما حدث وحرَّمت أوروبَّا الخمرَ فتراتٍ معينةً، ثم قنَّت بيوت الدعارة، وأخيرًا ابتدأت عندهم الأزماتُ الاقتصادية بسبب الرِّبا وغيره، فهي وإنَّ حَدَّتْ عن شريعةِ الله شكلاً، لكنَّها ستعرف أن الله عزَّ وجلَّ قد وضع للإنسان في الدين الإسلامي تشريعاتٍ هي غاية الكمال المنشود.

إن شريعة الله عزَّ وجلَّ دخلت في القانون الوضعي الأوروبي، وإن لم يأخذوها كمنهج إيماني، فَهُمْ يأخذونها - أو كثيرًا منها - كأفضل حلٍّ لهم حينما تنفد طاقاتهم وقدراتهم.

لذا لا يجدر بنا أن نقف موقفَ الخائفِ الحذرِ من هذه القوانين كُلِّها، وعلينا أن نُمَحِّصَ الدخيلَ منها على عاداتنا وأخلاقنا، وعلينا بأخذ ما يتماشى وقواعدَ ديننا، وعلينا أن نعمل في تقدير الفكر القانوني الإسلامي الذي كان يومًا منارةً للعالم، وظلًّا وارفاً له.

[٢-٦-٣-١٣] نظام (هيئة المحلفين) المُستحدث من نظام (اللفيف) في الفقه المالكي:

(هيئة المحلفين)، وهو نظامٌ يشترك فيه المواطنون في تطبيق العدالة الجنائية، وهو يكفل تمثيل المواطنين في تشكيل هيئة الاتهام أو المحاكمة أو كليهما بصفتهم مواطنين، لا مُتخصِّصين، وللمشاركة في الهيئة التي تُعرف باسم هيئة المحلفين يتم اختيار مواطنين عاديين بواسطة عملية (الاستجواب) للتحقق من أهلية المشاركين.

وهيئة المحلفين معمولٌ بها إلى الآن في الدول التي تتبع النظام القانوني الإنجلوسكسوني، منها دول الكومنولث (التاج البريطاني)، والولايات المتحدة الأمريكية، وبعض الدول الأوروبية كإسبانيا وسويسرا وبلجيكا والنمسا، والدول الآسيوية مثل كوريا الجنوبية وهونج كونج وغيرها من الدول.

ويعود أصلُ فكرة هيئة المحلفين إلى الإمارة الإسلامية في صقلية (٢٥٠-٤٥٠هـ)، وأصلها ما يسمَّى بـ (اللفيف) في الفقه المالكي.

شهادة اللفيف:

«اللفيف» في اللغة: هو الجَمْعُ أو الخليط، يُقال: طعامٌ لفيف، أي: مخلوط. وجاء القوم بلفيفهم، أي: بجماعتهم وأخلاقهم. وفي الاصطلاح: يطلق «اللفيف» على صورتين:

الأولى: أن يشهد بالأمر عددٌ من الناس، يَحْضُلُ مع خَبَرِهِم العلم؛ لاستحالة تَوَاطُئِهِم على الكذب عادةً، كشهادة مجموعةٍ من الناس برؤية الهلال، ولا يشترط في شهادة هذه الصورة العدالة والذكورة والإسلام.

الثانية: هي شهادة مَنْ لا يَحْضُلُ بخبرهم العلم، وهذا ما جرى به عمل المتأخرين من القضاة، وقد أُطْلِقَتْ هذه الكلمة على سبيل المجاز على الوثيقة التي تتضمن شهادة عددٍ من الناس هم في الغالب اثنا عشر، ويطلق عليها كذلك: «البينة»، إلا أن هذه الأخيرة أعم وأشمل؛ باعتبار أنها تدلُّ على كل ما يبين الحق، ويُظهره.

إذن، «فشهادة اللّيف» شهادة عدلية، ليست على المشهود له أو عليه، ولا من إملاء العدل الكاتب، وإنما هي من إملاء مجموعة من الناس العاديين، بما لهم من علم ومعرفة حول واقعة مُعَيَّنَةٍ، إمّا بمقتضى مُسْتَنَدٍ عامٍّ كالمخالطة والمجاورة والأطلاع على الأحوال، وإما بمقتضى مُسْتَنَدٍ خاصٍّ كالمشاهدة والمعينة.

وقد كان الإثبات في الفقه الإسلامي في العصور الأولى للإسلام يعتمد أساساً على شهادة عدلين، إلّا أنه وبمُضِيِّ الزمن وفُقدان المروءة والمصداقية إلى حدٍّ كبير، مع قِلَّةِ العُدُول أخذ الفقهاء - لاسيما فقهاء الأندلس والمغرب مع بداية القرن العاشر للهجرة حسب ما يرى كثيرٌ من الباحثين - يتساهلون في قبول شهادة عموم الناس؛ حرصاً على مصالحهم، وصيانةً لحقوقهم من الضياع، وأعملوا نظاماً اللّيف.

[٣-٦-٣-١٣] تأثير الفقه المالكي على القانون الكنسيّ والفقه اليهودي:

لقد كان للفقه المالكي - وخاصة في المغرب والأندلس - تأثيرٌ بليغ، لا على القانون الكنسي فحسب، بل على التلمود والفقه اليهودي منذ القرن العاشر في مدينة «فاس»، وهو العصر الذي انتشر فيه المذهب

المالكي في المغرب بعد فترة ساد خلالها الفقه الحنفي والفقه الشافعي وفقه الأوزاعي.

ومن أمثلة ذلك أن إسحاق بن يعقوب الكوهن الملقب «بالفاسي»، وهو عالم يهودي مغربي وُلد عام (٤٠٤هـ / ١٠١٣م) قُرِبَ «فاس»، وتوفي في الأندلس عام (٤٩٧هـ / ١١٠٣م)، له شرحٌ على التلمود في عشرين مجلدًا يُعدُّ حتى الآن من أهمِّ كُتُبِ التشريع التلمودي، كما أنَّ له ثلاثمائة وعشرون فتوى محرَّرة كلُّها بالعربية، وهي مقتبسة من «الفقه المالكي» السائد بالأندلس والمغرب آنذاك، وهو الذي أسس مدينة (بالوسينة) (البوسنة) حاليًا، وهي التي أوى إليها في فترة من حياته العلمية الإمام ابن رُشيد، الذي جمع بين الفقه المالكي والفلسفة والطب، والتفَّ حوله طلبةٌ يهودٌ أندلسيون.

وكذلك أبو سعيد بن يوسف الفيومي المعروف بالحاخام سعديا (٩٤٢هـ. / ١٥٣٥م)، الذي يُعدُّ واضعَ الفلسفة اليهودية في العصور الوسطى، وقد صنف ترجمةً عربية للعهد القديم، وعدَّل واستكمل قانون الميراث اليهودي مستعينًا بالشرعية الإسلامية.

[٤-١٣] النتائج المتحققة من الإعجاز التشريعي:

أ. تأكيد المؤكَّد، ليجعل القرآن الكريم فوق كلِّ الانتقادات والشُّبهات، ليكون عزيزًا بعزة الوحي المنزل.

ب. الاعتزاز بالتشريع القرآني، والتمسُّك بأحكام الشريعة، والدفاع عنها؛ وذلك لتفوقها على القوانين الوضعية في حلِّ مشاكل الإنسان المختلفة، وهذا ما يشهد به الأعداء قبل الأصدقاء، فهذا د. شيرل، عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا سابقًا يقول: «إن البشرية لتفتخر بانتساب رجلٍ كبير كمحمد [صلى الله عليه وسلم] إليها؛ إذ إنه - رغم أُمِّيَّته - استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيون أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي عام».

وقال الأستاذ آدموند بيرك - وهو سياسي وفيلسوف إيرلندي، يُعدُّ من رواد الفكر المحافظ في القرن الثامن عشر -: القانون المحمدي ضابطٌ نُسَجَّ بإحكام منظَّم حقيقيٍّ وأعظمِ نظام علمي، وأسمى تشريع منوَّر، لم يسبق قطُّ للعالم إيجادُ مثله، (وهو يقصد معجزة القرآن التشريعية).

ج. إبراز عظمة التشريع القرآني، والوقوف على أهميته والحاجة إليه؛ لمقاومة الفتن المتجددة والمتغيرة باستمرار، والادعاءات الباطلة للتخلي عنه وطعنه بلا دليل ولا برهان.

د. دعوة أهل الكتاب وغيرهم من المخالفين إلى التعرُّف على حقيقة التشريع الإسلامي، وإقناعهم بعظمته، وبأنه الأفضل والأقدر لصالح العباد والبلاد، وإصلاح الفرد والمجتمع، وإبعاد الأفراد والجماعات عن مَفسد وآفات الدنيا، وخصوصاً المستحدثة منها.

هـ. تحقيق الخير والعدل لجميع البشر؛ لأنه دينٌ أنزله الله تعالى للعالمين جميعاً، وليس مُختصاً بأمة دون أخرى، فمن شاء أن يؤمن، ومن شاء أن يكفر، ومقاومة ظلم الإنسان لربه، ولغيره، وحتى لنفسه، وهو يحفظ له حقوقه، وفي الوقت نفسه يحترم حقوق الآخرين، ويحافظ على النظام العام للمجتمع.

و. الوقوف على سَبَقِ التشريع القرآني في الحلول التي نصَّ عليها، والتي لم تعرفها الإنسانية إلى اليوم، كقضاء الدين على المدين الفقير، وهذا ما أشار إليه قولُ الرسول ﷺ - اعتماداً على النصوص والتوجيهات العامة في القرآن الكريم -: «مَنْ توفى من المسلمين وترك ديناً فعليَّ قضاؤه» (صحيح البخاري)، وغير هذا الكثير.

ز. ويكفي فخراً أن التشريع الإسلامي هو القانون الوحيد في البشرية الذي استمر أكثر من ١٤٠٠ سنة، وما زال صالحاً إلى الآن، وسيبقى إلى آخر الزمان

بمبادئه الكلية دون تغير، (وعدم تطبيق هذا التشريع من بعض مجتمعات الأمة، أو سوء تطبيقه من البعض الآخر، ليس حجة) وما على الفقهاء سوى الاجتهاد في الفروع على حسب الزمان والمكان والعرف (الثقافة) كما أمر بذلك الدين.

ح. التنبيه على عظمة التشريع الإسلامي الذي تمّ اعتماده (دون تصريح!!) كمرجع من مراجع الأمم المتحدة، ومختلف الهيئات العالمية، وبحوث العلماء، وكتبهم الفقهية والقانونية والاجتماعية وغيرها.

حيث إنه في سنة ١٩٣٢م انتهى الباحثون في (المؤتمر الدولي للقانون المقارن) المُنْعَقِد في (لاهاي)، إلى أن: (الشريعة الإسلامية مصدر من مصادر القانون المقارن.. وبهذا تكون مصادر القانون المقارن أربعة: القوانين الفرنسية، والقوانين الألمانية، والقوانين الإنجليزية، والشريعة الإسلامية).

في عام (١٩٣٧م). أقرّ مؤتمر لاهاي ما قرّره مؤتمر واشنطن عام (١٩٣٥م). من أن الشريعة الإسلامية مصدرٌ للقانون، مُستَقِلٌّ عن مصادر اليونان والرومان، وقد أكّد برنارد شو في كتابه (backto)، أن قلب التوجّه العالمي سينتقل في القرون المُقْبِلَة من الغرب إلى الشرق، وأكّد أن الشريعة الإسلامية ستصبح المدوَّنة الوحيدة للحياة، قادرةً على تجديد وجهه وضبط حياة الإنسان على الأرض في أيّ مسارٍ مستقبليّ.

وفي يوليو سنة ١٩٥١م. انتهى الباحثون في مؤتمر (أسبوع الفقه الإسلامي) الذي عقدته (شعبة الحقوق الشرقية) في المَجْمَع الدّولي للحقوق المقارنة برئاسة الأستاذ (ميو)، أستاذ التشريع الإسلامي في كلية الحقوق بجامعة باريس إلى أن: (مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمةٌ حقوقية تشريعية لا يُمارى فيها، وأن اختلاف المذاهب الفقهية في هذه المجموعة الحقوقية العُظمى ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعلومات والأصول

الحقوقية، هي منَاطُ الإعجاب، وبها يتمكّن الفقه الإسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة، والتوفيق بين حاجاتها). وقد أعلن المؤتمرون رغبتهم في تكرار فعاليات مؤتمر (أسبوع الفقه الإسلامي) سنوياً، ومتابعة أعماله، وتفعيل قراراته وتوصياته بعد انعقاده، وأصدروا توصيتهم بتأليف لجنةٍ لوضع (معجم للفقه الإسلامي) يُسهّل الرجوعَ إلى المؤلفات الفقهية؛ حتى يُمكن استعراض المعلوماتِ الحقوقيةِ الإسلاميةِ وفقاً للأساليب الحديثة.

وأظهرت إحدى الدراسات الحديثة التي أشرفت عليها (اللجنة العليا لحقوق اللاجئين) بالأمم المتحدة، أن الشريعة الإسلامية أكثر المصادر التي أثّرت في صياغة قوانين حقوق اللاجئين التي يستفيد منها عشرات الملايين من اللاجئين حول العالم، وأشار (أنتونيو جوتريز)، ممثل (اللجنة العليا)، إلى أن القوانين التي تتبنّاها المنظمة قد أخذت بما أشار إليه الإسلام، من توفير الأمان للاجئين، وعدم ردّهم إلى الأخطار التي فرّوا منها، إضافةً إلى أن حماية اللاجئين تشمل غير المسلمين، الذين لا يُكرههم الإسلام على تغيير دياناتهم، ولا يقوم بمساومتهم من أجل الحصول على حقوقهم، بل يقوم الإسلام على توفير الحماية لهم ولتمتلكاتهم، ويعمل على كمّ شمل أسرهم بنوع من الكرم والإحسان. ودعا (جوتريز) المجتمع الدولي لتقدير هذه الحقوق التي تكفلها الشريعة الإسلامية للاجئين.

وانتهت محكمة العدل الدولية الدائمة في حكمها الصادر في ٢٣/٠٨/١٩٥٨م. إلى الإشادة بأحكام الشريعة الإسلامية، والإشارة إلى أنها أحد الأنظمة القانونية الراقية في العالم الحديث، وثمة الكثير من مثل هذا التقدير والاعتراف والإقرار من مختلف العلماء والمؤسسات والندوات العالمية في العصر الحديث.

ثانيًا:

موقف الإسلام من القوانين الوضعية (المَدَنِيَّة):

تعريفات:

- التشريع: هو قيامُ السُّلطة المختصة (مجلس النواب / مجلس الشيوخ / ...) في الدولة بوضع القواعد القانونية في صورة مكتوبة ومُلزِمة؛ لتنظيم العلاقات في المجتمع، طَبَقًا للإجراءات المقررة، وتقترب بجزءٍ ماديٍّ يُوقَعُ على مَنْ يخالفها، لذلك فالتشريع بهذا المعنى يُعدُّ مصدرًا للقانون.

- القانون: أشْمَلُ من التشريع، وهو عبارة عن مجموعة من الأُسُس والقواعد (كالدين، والتشريعات، والعُرف، والأحكام القضائية السابقة...) التي تحكِّم مجتمع ما، وتَعْمَلُ على تنظيمه؛ حيث إنَّه لا يمكن للمُجتمع العيش بنجاح إذا كان أفرادُه لا يخضعون لقوانين تحكِّمهم، ويفعلون ما يروق لهم دون مُراعاة لواجباتهم وحقوقهم، فالقانون هو الذي يَضَعُ القواعد التي تُحدِّد حقوق الأفراد وواجباتهم، ويضع الجزاء المناسب في حال مُخالفة تلك القواعد والأُسُس، ويُطبَّق الجزاء من قِبَل الحكومة، وتتغيَّر القواعد القانونية باستمرار، وذلك تبعًا للتطوُّرات والتغيُّرات التي تحدث في المُجتمع.

- الدُّستور: هو مجموعة من المبادئ والقواعد الأساسية المنظَّمة لسُلطات الدولة، والمُبيَّنة لحقوق كلِّ من الحُكَّام والمحكومين فيها، وُثْرائِ حُرِّيَّات المواطن وتحميها، والواضحة للأصول الرئيسة التي تُنظِّم العلاقات بين مختلف سُلطاتها العامة.

- الشريعة: هي ما شرعه الله سبحانه لعباده من الأحكام التي جاء بها نبيُّ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، - سواءً أكانت هذه الأحكام أحكامًا اعتقادية، أو أحكامًا عمليةً - ليؤمنوا بها؛ فتكون سعادتهم في الدنيا والآخرة.

الشريعة الإسلامية: ما نزل به الوحي والقرآن على سيدنا محمد ﷺ من الأحكام التي تُصلح أحوال الناس في الدنيا والآخرة، سواءً في ذلك الأحكام العقائدية، والأحكام العملية، والأخلاق، مما عمل به الرسول محمد ﷺ -وسنته وما وجه المسلمين على فعله-، وأُضيفَ إليها لاحقاً الاجتهاداتُ الفقهية ممن يحق لهم الاجتهاد من العلماء الثقات.

* ملاحظة:

تعتبر «الأحكام الشرعية» هي القواعد أو القوانين العام مجازاً الذي وضعه الخالق عز وجل لتنظيم حياة الناس، وهي آيات محددة في القرآن الكريم، بالإضافة إلى ما بينه وشرحه الرسول ﷺ وعمل به وأوصى المسلمين بفعله.

فقد جاء في القرآن قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، فقد بين الرسول ﷺ عدد الصلوات اليومية وزمانها وعدد ركعاتها وكيفيتها، وكذلك فقد بين في القرآن الكريم من هم مستحقو الزكاة. وهي «الصدقة المفروضة» كما جاء في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقد بين الرسول ﷺ أنواعها وقيمتها.

[٥-١٣] القوانين الوضعية، والعلاقة بينها وبين الدين الإسلامي:

- نشأة وتطور القوانين الوضعية:

القوانين الوضعية (المَدَنِيَّة) هي نتاج الفكر الإنساني، ونتيجة حاجة المجتمعات البشرية إلى معالجة مشاكلها وتنظيم شؤون حياتها. إذن، فهو ظاهرة لازمت المجتمعات البشرية منذ نشأتها، بدءاً من الأسرة والقبيلة، ثم المجتمعات، وتطورت بتطورها، وكانت دائماً استجابةً للحوادث والوقائع التي طرأت على العلاقات الإنسانية في مجتمعات محدّدة، فما إن تبرز في

المجتمع خلال تطوُّره ظاهرةٌ تحتاج إلى تنظيم وضبط حتى يُطوَّر المجتمعُ قواعدَ قانونيةً لتنظيمها؛ لذلك فإنَّ عمليةَ تطوُّر القواعدِ القانونية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتطوُّر المجتمعات، ولا تنفصل عنها، ولا يمكن تخيُّل قانون جامد لا يتغير؛ لأن ذلك يعني أن المجتمع في حكم الميت.

- مصادر القواعد القانونية الوضعية:

في معرض قيامه بعملية التشريع، يلجأ المُشرِّع - دستورياً كان أو قانونياً - إلى مصادر مختلفة يستقي منها نُصوصه وقواعده القانونية، وهذه المصادر تختلف من زمان إلى آخر، ومن بلد إلى آخر، كما أنها تختلف بحسب مستوى التشريع الذي يتم إنجازه، دستورياً كان أو قانوناً أو قانوناً فرعياً (المرسوم - اللوائح).

فالمُشرِّع الدستوري قد يُعَدُّ من مصادره بعضاً مما يلي: قواعد القانون الدولي وإعلانات الحقوق، الاتفاقات الدولية المُلزِمة، أحكام أو مبادئ الشريعة، آراء الفقهاء، والاجتهادات القضائية المستقرة، الأعراف... إلخ.

أمَّا المُشرِّع العادي (الذي يسنُّ القانون) فيستمدُّ قواعده من الدستور، وقد يعتمد الشريعة مصدراً وفَّق ما يحدِّده الدستور، وهناك الاتفاقات الدولية المُلزِمة، وهناك العُرف والعادات، وهناك آراء الفقهاء والاجتهادات القضائية المستقرة... إلخ. ويُعَدُّ الفقه والاجتهاد القضائي من المصادر الاسترشادية غير الرسمية.

أمَّا دورُ الشريعة الإسلامية في العصر الحالي - كمصدرٍ من مصادر القواعد القانونية - فيختلف بين دولةٍ وأخرى لعواملٍ عديدةٍ، منها درجةُ تأثير الدين في مجتمعاتها؛ فمِنْ دُولٍ تعتمد الشريعةَ مَصْدَراً وَحيداً، وتُعَدُّ «القرآن» هو «الدستور»، مثل السعودية واليمن وغيرها، وهي من الدول الإسلامية المُتَحَفِّظَة، إلى دُولٍ لا تعتمد الشريعةَ مطلقاً كمصدرٍ للقواعد القانونية،

وهي ما تُسمَّى الدولَ العلمانية، كفرنسا ومعظم دول أوروبا، بالإضافة إلى بعض الدول الإسلامية كإندونيسيا...، وما بينهما (أي: الدول التي تأخذ ببعض التشريعات الإسلامية، بالإضافة إلى تشريعاتٍ مُستقاةٍ من قوانينِ دولٍ علمانيةٍ أُخرى).

في الدول الإسلامية المتحفظة، التشريعُ لربِّ العباد حصراً، والدستورُ هو «كتابُ الله»، وكلُّ ما هو وَضْعِيٌّ يجب أن يكون مُستمدّاً أو مُشتقّاً من كتاب الله وسُنّة نبيّه ﷺ، حسب قواعد أصول الفقه الإسلامي، فما دورُ البَشَرِ إذنَ إلَّا الاستنتاجُ والاستنباطُ والقياس والاجتهاد، ضمن الحدود والأصول.

– العلاقة التاريخية بين القوانين الوضعية والأديان عموماً، والدين الإسلامي على وجه الخصوص:

ثمةُ علاقةٌ تاريخيةٌ طويلةٌ بين القانون الوَضْعِيّ والدين، لكنّها تختلفُ في قوّتها بين دينٍ وآخر، وزمنٍ وآخر، وبلادٍ وأخرى، فأثرُ المسيحية في القانون الوضعيُّ أقلُّ بكثيرٍ من أثرِ الإسلام؛ لأن الإسلام يتضمن - إلى جانب القواعد الروحية والأخلاقية - قواعدَ ناظمةً للدولة والحُكم والمعاملات.

لم تتعرض المسيحيةُ للأمور الدنيوية، وليس فيها قواعد ناظمة للحكم والمعاملات وشؤون الناس، بل اكتفت بالمسائل الروحية والأخلاقية، وكان الأساسُ - بزعمهم - هو العمل بقول المسيح: «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»، ولم يبدأ تأثير النصِّ المقدّس في القوانين الوضعية إلا عندما أصبح الدينُ المسيحي هو الدين الرسمي للدولة الرومانية عام ٣٢٥ للميلاد، بموجب قانون الملك قسطنطين، حيث اعترف ملكُ روما بسلطان الكنيسة، وبالقانون الكنسي المُختصّ بالشأن الديني. كما تمَّ الاعترافُ باختصاص المحاكم الكنسية في الفصل في المسائل الدينية، وأيضاً في المنازعات المدنية التي يرتضي المتخاصمون رفعها إليها.

أما الشريعة الإسلامية فقد جاءت متكاملةً من عند الله تعالى، جامعةً عامّةً، لا يوجد فيها نقص، ولم يأت الإسلام لجماعة دون جماعة، أو لقوم دون قوم، أو لدولة دون دولة، أو لوقت دون وقت، أو لعصر دون عصر، بل هي مُتجدّدةٌ في فروعها طبقاً للأحوال الزمانية والمكانية والمصالح المرسلة للشعوب، دون الإخلال بمبادئ الإسلام، وأهمّها: الوحدانية (الإيمان بأنّ الله تعالى وَحْدَهُ خَالِقُ الْكَوْنِ ومُدبِّرُهُ).

[١-٥-١٣] بعض نقاط تميّز الشريعة الإسلامية على القوانين الوضعيّة:

- أن الشريعة من عند الله جل وعلا، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ٥٤﴾، والله سبحانه وتعالى العالمُ بخلقه وبما يصلح لهم، ولا يشكُّ عاقلٌ في أنّ مَنْ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وأعجزَ غيره أن يأتي بآية لا يصدرُ عنه إلا البالغُ في الحكمة والدقّة والسعة والدوام، قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ٨٢﴾، وكوّن الشريعة من عند الله تعالى يُوجبُ احترامها من الجميع، وامتثالها تعظيمًا لله تعالى، وثقةً في حكمه.

- أن القانون الوضعي من صنع البشر، وُضعَ بقدر ما يسدُّ حاجاتهم الوقتية، وقد تفرّعوا كثيرًا في أمور كثيرة، ممّا تسبّب في الفوضى في التشريعات والتناقض كثيرًا، وبقدر قُصور البشر عن معرفة الغيب تأتي النصوص التي يضعها البشرُ قاصرةً عن حكم ما لم يتوقعوه؛ إذ الإنسان عُرضةٌ للجهل والهوى والظلم، وبتأثيره بوحدة منها يتأثر نتاجه القانوني. وحسبنا أن نشير إلى أن أسمى ما وصل إليه رجال القانون من النصوص الأساسية والعامة موجودٌ في الشريعة من يوم نزولها، ناهيك عمّا لم يصلوا إليه بعد، وهو الأكثر.

- أن قواعد الشريعة الإسلامية ثابتةٌ لا تقبل التغيير والتبديل، بيد أن لها من المرونة والعموم ما يجعلها تتفق وتتسع لحاجات المجتمعات البشرية

مهما طال بها الزمان، وتطورت وتعددت تلك الحاجات، كما أنه لا يمكن لنصوصها السامية الرفيعة التأخر في وقت أو عصر عن مستوى الجماعات والأفراد مهما تطورت وارتفعت في تفكيرها وسلوكها، أو تشعبت نواحي حياتها.

- أن القانون الوضعي يتلون بتلونٍ واضعٍ وعاداتهم وتقاليدهم وتاريخهم، فالمجتمعات وأصحاب المصالح هم من يقودون القانون، وليس هو القائد لهم، وإذا كان هذا هو الأصل في القانون من يوم أوجدوه، فإن هذا الأصل قد تغير في الوقت الحالي بعد الحرب العالمية الأولى؛ حيث بدأت الدول تدعو لأنظمة جديدة، تستخدم القانون لتوجيه الشعوب وجهات معينة، وتستخدمه لتنفيذ أغراض معينة، مثل ما فعلت روسيا الشيوعية، أو أمريكا، أو إيطاليا الفاشية، أو ألمانيا النازية... إذن، أصبح القانون - في الغالب - ينظم الجماعة كما يرى الساسة، حتى وإن كان من ذلك ما لا يصلح للجماعات أصلاً.

وبإجراء مقارنة عامة (أمثلة) بين الشريعة الإسلامية والقوانين (الوضعية) يتبين لنا بعض نقاط تميز الشريعة الإسلامية:

أ. نظرية (مساواة المرأة بالرجل):

القاعدة العامة في الشريعة الإسلامية أن المرأة تساوي الرجل في الحقوق والواجبات، فلها مثل ما له، وعليها مثل ما عليه، وهي تلتزم للرجل بما يقابل التزاماته لها، فكل حق لها على الرجل يقابله واجبٌ عليها للرجل، وكل حق للرجل عليها يقابله واجبٌ على الرجل لها، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٢٢٨)، وهذه هي القاعدة، ولم تميز الشريعة الرجل عن المرأة إلا لعلة قوية، وحسب وظيفة كل منهما في الأسرة والمجتمع، مثل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ﴾ (٢٢٨)، وهذه الدرجة هي درجة القوامة على شؤونهما المشتركة، حيث قال تعالى في سورة النساء:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (٣٤)، فالتمييز الذي أُعطيَه الرجل إنما هو مقابل الرعاية الكاملة والمسؤولية الأولى والأخيرة، جرياً على قاعدة «السلطة بالمسؤولية»، أما الشؤون الخاصة فليس هناك تمييز، فهي تتملك الحقوق، وتتصرف فيها، دون أن يكون للرجل - ولو كان زوجاً أو أباً - التدخل في أعمالها. هكذا سمحت الشريعة من يوم نزولها بتقرير مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة بشرط العدل، بيد أن القوانين الوضعية لم تسمح بتلك التسوية حتى القرن التاسع عشر، وبعضها يمنع المرأة من التصرف في شؤونها الخاصة - إلى يومنا هذا - إلا بإذن زوجها، كما أنها تحمل اسم زوجها.

ب. نظرية (الحرية):

أعلنت الشريعة الإسلامية من الوهلة الأولى حرية التفكير، والاعتقاد، والقول:

١ - حرية الفكر: لقد حررت الشريعة الإسلامية العقل من الأوهام والخرافات والتقاليد والعادات؛ حيث احترمت العقل السالم من الشهوات والشبهات والعاهات، وجعلته محلّ تمييز على غيره من المخلوقات، فقد دعت الشريعة العقول إلى التفكير في الخلق، وأخذ العبرة من السماوات والأرض، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤).

٢ - حرية الاعتقاد: أباحَت الشريعة الإسلامية حرية الاعتقاد، وعملت في صيانة هذه الحرية إلى آخر حد، فليس لإنسان أن يحمل آخر - قصراً - على عقيدة أيّا كانت، ولم تمنع من إظهار عقائد الناس، بل حمّتها، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (٢٥٦)، والحال في البلدان الإسلامية بعد

الفتح يُصدّق ذلك واقعاً في تعامل المسلمين مع أصحاب الديانات الأخرى، وإذا قارنّا ذلك بما عليه العالمان الغربي والشرقي الآن من مُصادرة للحريّات الدينية (والإسلام بالذات) باسم قانون محاربة الإرهاب، عرفنا السّبْق في الخير، والفرق في الحرية في الاعتقاد بين الفريقين.

٣ - حرية القول: أباحت الشريعة الإسلامية حرية القول، وجعلتها حقّاً لكلّ إنسانٍ، بل أوجبته على الإنسان في كلّ ما يمسّ الأخلاق والمصالح العامة والنظام في ما تعتبره مُنكراً، بشرط ألا يكون القول خارجاً عن الآداب والأخلاق الفاضلة، أو مخالفاً لنصوص الشريعة، قال الله تعالى في سورة الحج: ﴿الَّذِينَ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (٤١)، وحديث: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ...» (رواه مسلم)، وحديث: «الَّذِينَ النَّصِيحَةُ...» (رواه مسلم).

أما القانونيون في القوانين الوضعية، فقد انقسموا إلى قسمين تجاه حرية القول: قِسم يرى حرية القول دون قيد أو شرط، إلا فيما يمسّ النظام العامّ، وهؤلاء لا يغيرون الأخلاق أيّ اهتمام، وتطبيق رأيهم يؤدّي إلى التباغض والتناؤد والتحزب، ثم القلاقل والثورات وعدم الاستقرار، وقِسم يرى تقييد حرية الرأي في كل ما يخالف رأي الحاكم ونظرته تجاه الحياة، وتطبيق رأي هؤلاء يؤدّي إلى كبّ الآراء الحرّة، وإبعاد العناصر الصالحة عن الحكم، ويؤدّي في النهاية إلى الاستبداد، ثم إلى القلاقل والثورات.

أما قرارات الشريعة الإسلامية فإنها تأخذ بالجمع بين هاتين النظريتين، تجمع بين الحرية والتقييد، فلا تقييد بغير التزام الأخلاق والآداب واحترام النظام، وألا تمسّ تلك الحرية الآداب والأخلاق والشريعة، قال تعالى في سورة النساء: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ (١٤٨)، وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (٤٦).

وإذا كانت القوانينُ جاءت بالحرية، فإنَّ ذلك لم يُبدَأْ بتقريره إلا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، أما قبل ذلك فكانت تُنزلُ أشدُّ العقوبات بالمفكرين ودُعاة الإصلاح وكلِّ مَنْ يخالف عقيدة الحاكم، وبالإضافة إلى أن هذه الحرية في بعض البلدان الغربية هي حريةٌ تكاد تكون مُطلَقة، مما تسبب في كثير من المشاكل الدولية والسياسية والمجتمعية، وحتى في الأسرة الواحدة، وفي الدول الدكتاتورية فإن الحرية تمارس في أضيق نطاق، بل تُعمَّم الحريات على مجتمعات وأقوام وأديان في البلد الواحد على حسب اعتقادات الأغلبية أو مصالح السياسيين، وتُقمَع الحريات للأقليات الدينية، ولا سيما المسلمين منهم!

ج- نظرية الشورى والديموقراطية:

جاءت الشريعة الإسلامية مقرَّرةً لمبدأ الشورى في قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (٣٨)، وفي قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (١٥٩)، وهذا التقرير يؤدي إلى رفع مستوى الجماعة، وحملهم على التفكير في المسائل العامة، والاهتمام بها، والنظر إلى مستقبل الأمة نظرةً جديةً، والاشتراك في الحكم بطريقة غير مباشرة، والسيطرة على الحكم ومراقبتهم.

والشورى في الإسلام: هي أن يحكم الشعبُ (من أصحاب الرأي) فيما لا نصَّ فيه، أو فيه أكثر من نصٍّ وطلب الإمام الشورى، أو طُلِبَتْ منه، فيحكم الشعبُ فيها طبقاً لرأي الأغلبية. غير أن الشريعة الإسلامية تركت للأمة آليات تنفيذ هذا المبدأ عن طريق ما يسمَّى بمجلس الشورى، أو بأخذ رأي الأفراد الذين تتوافر فيهم صفاتٌ مُعيَّنة بالتصويت المباشر، أو غير المباشر، أو أيَّ أسلوب يتوصل به وليُّ الأمر إلى معرفة رأي الشعب في أمرٍ ما، شرط ألا يكون هناك ضررٌ أو ضرارٌ بصالح الفرد أو الجماعة أو النظام، فإذا توصلت الأمة إلى أمرٍ، أوجبت الشريعة الإسلامية على أتباعها تنفيذه، والدفاع عنه واحترامه.

والديمقراطية نجحت نجاحاً نسبياً في بعض البلاد، ولكنها فشلت أيضاً في الكثير من البلدان، وفشلها هو بانعدام الثقة فيمن يتصدّون لقيادة الشعب؛ حيث سمحت الديمقراطية للأقلية أن تناقش الرأي الذي أقرته الأغلبية بعد انتهاء دور المناقشة، وأن تُشكك في قيمته وصلاحيته أثناء تنفيذه، بل إنه ربما يظل موضع الانتقاد والسخرية حتى بعد تمام تنفيذه، ولما كانت القاعدة أن فريق الأغلبية هو الذي يتولّى الحكم، فإن آراء هذا الفريق وأعماله لا تُقابل بما يجب لها من الاحترام، بل تكون محلّ تشكيك وسخرية، وقد يحدث أن تمتنع الأقلية من تنفيذ القوانين التي تسنها الأغلبية، ويظل هكذا حتى يصبح الفريق الحاكم أقلية، فيترك الحكم ليتولاه فريق الأكثرية الذي يُقابل آراؤه وأعماله بمثل ما قوبل به فريق الأكثرية السابق، وهكذا، وبالتالي يهتز استقرار الدولة.

وأما الديكتاتورية فقد فشلت أشد من الديمقراطية؛ لأنها تؤدي إلى كتم الأفواه، وتعطيل حرية الرأي وحرية الاختيار، وانعدام الثقة بين الشعوب والحكّام، وتوريط الشعوب والحكومات فيما لا يعود عليها بالنفع؛ مما يجعل الفساد ينتشر.

ونستطيع أن نقول: إن الديمقراطية تقوم على الشورى فيما فيه نصّ، وفيما لا نصّ فيه، ومع هذا الخلل يزداد سوءاً في التطبيق؛ حيث يتسلّط أحد طرفي الشعب على الآخر، وبه تنعدم الثقة بين الحاكمين والمحكومين. والنظام الديكتاتوري يقوم على السمع والطاعة المطلقة، ولكنه انتهى إلى التسلّط من الحاكمين على المحكومين.

أما النظام الإسلامي، فإنه لو طبّق كما طبّقه الكثير من الحكّام المسلمين في العصور السابقة، فإنه يقوم على التشاور في مرحلة الشورى، والتعاون على أداء رأي صائب، والسمع والطاعة والثقة في مرحلة التنفيذ، ولا يسمح لفريق أن يتسلّط على آخر ويقهره، وهذه الميزة بشقيها سبقت وتميّزت بها الشريعة من حين نزولها، في حين أن الديمقراطية بعيوبها لم تُعرف إلا بعد

الثورة الفرنسية، فيما عدا القانون الإنجليزي، فقد عرفها من القرن السابع عشر، ولم تقرّه الولايات المتحدة الأمريكية إلا آخر القرن الثامن عشر، وأُقرّ في أواخر القرن التاسع عشر فقط في بلدان محدودة، حتى انتشر في القرن العشرين في الكثير من البلدان (ومنها بلاد إسلامية).

[٦-١٣] مَدَى تطبيق الشريعة في البلدان الإسلامية في العصر الحديث:

قد نرى أَنَّ الكثير من الدُولِ الإسلامية هي دُولٌ مُتَخَلِّفَةٌ في العديد من مناحي الحياة، وهذا هو الذي يجعلُ الكثيرين من غيرِ هذه الدُولِ - تحت تأثير وسائل الإعلام الموجهة لتشويه صورة الشريعة الإسلامية - يتساءلون: لو كانت شريعة الإسلام صالحةً حقًا لَمَا تَخَلَّفُوا!

والحقيقة أَنَّ معظمَ الدول الإسلامية في هذا العصر لا تطبّق هذه الشريعة كما يجب أن تكون، بل البعض يحاربها! وقد ألبسوها ثوبًا هو ليس لها؛ فهذا هو سببُ تخلف المسلمين عمومًا، ومن الأسباب وراء هذا التخلف أيضًا: الفساد، والظلم، وقلة الثقافة والوعي من الشعوب، وليس للشريعة الإسلامية علاقةٌ من بعيدٍ ولا من قريب بما يحدث لهذه المجتمعات.

وكذلك، فلو نظرنا إلى بعض الذين يتوهّمون أنهم يقومون بتطبيق الشريعة بشكل فعليٍّ (ومنها إيران وأفغانستان على وجه التحديد) سنرى أنهم يُسيئون تطبيقها؛ لأنهم يُسيئون فهمَ الإسلام كما يجب أن يكون، ويغالون ويتشدّدون في أمورٍ ثانوية وفرعية على حساب المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية، ويظنون بذلك أن هذا هو الإسلام، ويقدمون أنفسهم على أنهم يمثلون الإسلام، وتستغلُّ وسائل الإعلام هذا الأمر، فتنتقل إلى العالم هذه الصورَ على أنها الإسلام الذي يدعُو المسلمون إليه!

ومن ثَمَّ يحدثُ النُفورُ من الإسلام، ويقولون: هذه هي الشريعة التي يريدون تطبيقها علينا؟ هذا هو الإسلام الذين يريدون أن نعتنقه؟ لا حاجة لنا به!

هذه هي الأسباب الرئيسة التي تجعل الناس تعتقد أن الشريعة غيرُ صالحة للحُكم، وهذه أسبابٌ غيرُ منطقية، لماذا؟ لأنها تحكم على الشريعة بشكل خاطئ، فلو أن لدينا قانونًا عادلاً، فأخذه بعضُ الناس وطَبَّقَه تطبيقًا جائراً، أَيْكُونُ العيبُ في القانون أم في مَنْ ينفِّذُه؟

متى نَحْكُم على قانونٍ ما بأنه صالحٌ أو غيرُ صالحٍ؟ نحكم عليه عندما يُطَبَّق كما يجبُ، ومنَ ثَمَّ نستطيع أن نَحْكُم عليه.

[١ - ٦ - ١٣] صلاحية الشريعة الإسلامية للحُكم والتطبيق:

إن عدم تطبيق بعض من المنهج في ظروف معينة لا يعيبُ المنهج؛ إذ لو زالت هذه الظروف زال سوءُ التطبيق، كما نعتقد أن الحكمَ بصلاحية الشريعة يماثل الحكمَ بصلاحية دينٍ من الأديان، فمثلاً إذا وجدنا رجلاً مسيحياً مجرماً قاتلاً، فهل هذا يعطينا الحق في القول: إن المسيحية دينٌ قتلٍ وإجرامٍ؟ بالطبع لا، لماذا؟ لأننا يجب أن نفرق بين المسيحية كدين وبين المسيحيين كمُعْتَنِقِينَ لها؛ لأن منهم من يطبق تعاليمها، ومنهم من لا يطبق هذه التعاليم، ومثل هذا الكلام يقال عن الإسلام، فإذا أردنا أن نحكم على دينٍ ما، هل هو صالح أم لا؟ فعلينا أن لا نحكم عليه من خلال أتباعه فقط، بل علينا أن ننظر أيضاً في هذا الدين وفي نصوصه ونتائج تطبيقه؛ حتى نكون موضوعيين في أحكامنا.

نحن -المسلمين- نعتقد ثلاثة أمورٍ يُفيدنا كثيراً ذكرُها في هذا المقام:

- أن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، لقول الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ٤٠ ﴾، ومن ثَمَّ فإن الإسلام هو خاتم الرسالات السماوية.

- وأن محمداً ﷺ أرسل إلى كلِّ الناس، لا للعرب فقط، لقول الله تعالى في سورة سبأ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَنَكُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢٨ ﴾، وقال تعالى في سورة الأنبياء

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧)، وكلمة العالمين تعني الخلق جميعاً في كل زمان ومكان.

- وأن شريعته صالحة للحكم والتطبيق في كل مكان وزمان، ومن ثم فنحن نعتقد أن الإسلام هو آخر الرسالات السماوية، ولكي نبرهن على ذلك، سوف نصرب أمثلة من التاريخ تثبت هذا القول:

أ. العرب قبل الإسلام وبعده:

من المعلوم تاريخياً أن العرب لم تَقُمْ لهم حضارة مرموقة، ولم يسمع بهم العالم، إلا بعد الإسلام، وقد سادوا العالم في أقل من أربعين عاماً من وفاة النبي محمد ﷺ، ولم يكن هذا إلا في ظل تطبيق شريعة الإسلام، التي تميزت بالشمول والعدل والتسامح والتوازن والتدرج، حتى كان المواطن العادي يستطيع أن يُقاضي الخليفة ويأخذ حقه منه، بل ذهب الأمر أبعد من ذلك في قصة القبطي المصري الذي ذهب إلى خليفة المسلمين عُمر يشكو إليه ظلم ابن والي مصر المسلم الصحابي المعروف عمرو بن العاص، فأتى الخليفة عُمر بالوالي وابنه، وجعل القبطي يقتص من الاثنين، لم يكن هذا إلا في ظل شريعة الإسلام.

من أجل ذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه قولته المشهورة: «لقد كنا أذل أمة، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نبغي العزة في غيره أذلنا الله».

ب. استمرار السيادة العالمية للمسلمين على مدار نحو ثمانية قرون في ظل شريعة الإسلام:

حكم بنو أمية من عام (٦٦٠) ميلادية إلى عام (٧٥٠) ميلادية، وامتدت دولتهم من الأندلس غرباً حتى تُخوم الصين شرقاً، ثم حكم بنو العباس منذ (٧٥١) ميلادية إلى (١٢٥٨) ميلادية، وبعدهم العثمانيون الذين كانت بداية حكمهم وحتى القرن السادس عشر ميلادي طبقاً للشريعة الإسلامية

في غالبيتها، قبل انحدارها بعد ذلك، وحتى بداية القرن العشرين الميلادي، كل هذه السنين في ظل شريعة الإسلام، فماذا يعني هذا؟ ألا يعبر هذا عن قوة هذه الشريعة وصلاحتها للحكم والسيادة في أجيال مختلفة وفي أماكن مختلفة؟ فقد حكم الإسلام أمماً مختلفة في كل شيء، ومع ذلك استطاعت شريعته السَّمْحَةُ أن تجمعهم وتوحدهم جميعاً، بالرغم من حصول بعض الاضطرابات في بعض البلدان، وخلال أزمان مختلفة، وظروف مختلفة، منها الغزو المغولي والصليبي والاستعماري الأوروبي الحديث وغيرها لبلاد المسلمين، ومنها ما يتعلق بممارسة الحكم ووزرائهم وعلماء السلطان، وابتعادهم عن تطبيق الشريعة الإسلامية كما يجب أن تكون؛ ليحافظوا على نفوذهم ومنافعهم.

ج. التقدّم الاقتصادي والعلمي والمعرفي في ظل تطبيق الشريعة الإسلامية:

لم يعرف المسلمون طوال تاريخهم تقدُّماً في كل مناحي الحياة كما عرفوه في ظل تطبيقهم لشريعة الله، التي هي هَدْيُ اللَّهِ القائل في سورة طه: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣).

كان التقدّم الاقتصادي ملحوظاً، وحدث يوماً أن لقي عمرُ بن الخطاب رجلاً شيخاً كبيراً يتكفّف ويسأل الناس، قال: ما شأنك يا رجل؟ قال: أنا رجلٌ من أهل الجَزِيَّةِ (الجزية: هي الضريبة التي كان يدفعها غيرُ المسلمين مقابل حماية المسلمين لهم) عَجَزْتُ عنها، فأنا أسألُ الناس لأجمَعَهَا، فقال له عمرُ: والله ما أنصفناك إن أكلنا شبابَكَ ثم أضَعْنَا كِبَرَكَ وشيخوختك، ثم أسقط عنه الجزية، وعن كلِّ مَنْ هم في مثل حاله، وأمرَ له بعتاء من بيت المال.

وفي عهد عمر بن عبد العزيز كان يُزَوِّج مَنْ لا يقدر على تكاليف الزواج، ويقضي الدَّيْنَ عن المَدِينين، ويفرض لكلِّ مولودٍ راتباً من بيت مال المسلمين.

وفي الناحية العلمية لم يَبْزُغْ نجمُ الحسنِ بنِ الهيثم، ولا ابنِ النفيس، ولا الكِنْدِيُّ، ولا الفارابي، ولا ابنِ سينا، ولا البيروني، ولا جابر بن حيان، ولا الجَزْري، ولا الخوارزمي، ولا الجبرتي، ولا الزهراوي، ولا الرازي، وغيرهم من الأَفْذاذ الذين أَخَذَ الغربُ عنهم حضارته لم يَبْزُغْ نجمُ هؤلاء جميعاً إلا في ظلِّ تطبيقِ شريعة الإسلام خلال ألفِ سنة من التاريخ (منها حوالى ٨٠٠ سنة في العصر الذهبي للمسلمين) من القرن السابع الميلادي وحتى القرن السادس عشر منه، ومن أراد معرفة هؤلاء العلماء وأعمالهم وتأثيرهم على الحضارات الحديثة يمكنه الرجوع إلى الموسوعات العلمية والعربية والأجنبية، وإلى كتاب «ألف اختراع واختراع» التراث الإسلامي في عالمنا للبروفيسور سليم الحسني، رئيس مؤسسة العلوم والتكنولوجيا والحضارة في إنجلترا.

وهناك الآلاف من المبدعين من العلماء العرب المسلمين في شتى دول العالم في العصر الحديث، قد أسهموا - وما زالوا يُسهمون - في مزيد من المعرفة والاختراعات، وإنشاء العديد من التطبيقات العالمية لتكنولوجيا الاتصالات الحديثة، وقد ذكرنا بعضهم في التمهيد لهذا الكتاب يمكن معرفة المزيد منهم بالرجوع إلى الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) وغيرها من المصادر، أفلا يدُلُّ ذلك على صلاحية هذه الشريعة للمشاركة في قيادة العالم للخروج من مشاكله الحالية المستعصية القائمة على المصالح الفئويّة والتفرقة؟؟

[٧-١٣] مكان الاجتهاد في الإسلام وفي الشرائع الوضعية:

مقتبس من مقال للدكتور محمد معروف الدواليبي^(١)

- الاجتهاد هو المصدر الرابع من مصادر الشريعة الإسلامية بعد «الكتاب» و «السنة» و «الإجماع»، كما هو معروف، ويُعبّر عنه أيضًا باسم «القياس» أو «العقل» أو «الرأي»، باعتبار أن كلاً من هذه الثلاثة ما هو إلا أداة من أدوات الاجتهاد.

- وإذا كان «كولد زيهر (Goldziher) المستشرق الألماني الكبير، قد أُعْجِبَ كُلُّ الإعجاب من كون «الإجماع» الاجتهادي أصلاً من أصول الشريعة الإسلامية ومصادرها، وعبر عنه فقال: «إنه ينبوع القوة التي تجعل الإسلام يتحرّك ويتقدّم بكلّ حرية»؛ فإنه يجد بلا شك في المصدر الرابع -وهو الاجتهاد- أنَّه العقل الساهر على نموّ الشريعة وازدهارها، والذي يطردُ العُقمَ من قواعدها وتُهمّة الجمود في طبيعتها؛ وذلك لما كان للاجتهاد

١. الشيخ الدكتور معروف الدواليبي، ولد في مدينة حلب، في ١٩٠٩م. وتخرج في كلية الشريعة بالجامعة السورية عام ١٩٢٧م.، ومن كلية الحقوق عام ١٩٣٥م. بتفوق مما جعل وزارة المعارف السورية توفده لاستكمال دراسته العليا في جامعة باريس (السوربون) في سنة ١٩٣٩م. وفي جامعة باريس درس القانون الروماني، ونال الدبلوم في الحقوق الكنسية، ثم شهادة الدكتوراه في الحقوق، وكانت أطروحته التي كتبها باللغة الفرنسية حول (الاجتهاد في الشريعة الإسلامية) كتبها بأسلوب جديد، للتعريف بالإسلام وشريعته، بعد أن نقد الكثير مما جاء في كتبهم الجامعية، وما جاء على ألسنة أساتذة الجامعة في التجريح في الإسلام ونبي الإسلام محمد ﷺ.

عين أستاذاً في الجامعة السورية بدمشق عام ١٩٤٧م. وهو سياسي محنك، شغل عدة مناصب نيابية ووزارية ورئيس لمجلس النواب ورئيس لمجلس الوزراء السوري لغاية ١٩٥٤م. شجاع، جريء في طرح ما يعتقد أنه صواب، وهو من خبرة السياسيين العرب قاطبة، وقد ترك بصماته الواضحة في السياسة السورية خاصة، والعربية والإسلامية عامة، وشغل منصب مستشار في الديوان الملكي في المملكة العربية السعودية منذ عام ١٩٥٦م. حتى وفاته مع الملك فيصل رحمه الله.

حضر الدواليبي عدداً كبيراً من المؤتمرات السياسية والعلمية والفقهية وكان عضو مميّزاً فيها وكثيراً من الندوات العالمية وألقى فيها العديد من المحاضرات، وكان حضوره فيها مشهوداً ومتميزاً.

وقد شغل رئيس منظمة (الإسلام والغرب) الدولية، ومركزها جنيف بسويسرا، منذ سنة ١٩٧٩م. حتى عام ١٩٨٤م. وله العديد من المؤلفات والبحوث في الحقوق والشريعة الإسلامية، وقد توفي سنة ٢٠٠٤م. ودفن في المدينة المنورة.

على اختلاف مذاهبه في الشريعة الإسلامية من رصيد علمي جبار لا مثيل له في تاريخ فكرة الحق ومحتويات مكتباته العلمية العالمية، ومن آراء فقهية مُصلحة سامية لا عهد للأمم الحية بمثلها في تاريخ الإنسانية، ومن مذاهب تتحكم فيها أولاً وآخرًا قواعد العلم والمصلحة الزمنية الشرعية ضمن مبادئ الحق والعدل والإنصاف، من غير تمييز فيها ما بين إنسان وإنسان، مهما اختلفت الأجناس والأعراق والأديان.

وذلك كله مما قد تفرّد به «الاجتهاد الإسلامي»، وجعل الشريعة الإسلامية تستجيب دوماً - وفي كل الأحوال - للحاجات الإنسانية المتطورة مع الأزمان.

- هذا ولا تستبين أهمية «الاجتهاد» في الإسلام، واعتباره مصدراً أساساً من مصادر الشريعة الإسلامية، وتفوقها به على غيرها من الشرائع، وخاصة الشرائع الوضعية القديمة والحديثة المتطورة = إلا باستعراض وجيز جداً لموقف هذه الشرائع من الاجتهاد.

- غير أن علماء الحقوق الحديثة قد أخذوا في مطلع القرن العشرين يشعرون بفساد الطريقة التقليدية، التي درج عليها علماء القانون حتى أواخر العصر التاسع عشر، والتي كانوا يعتبرون بموجبها الحقوق المكتوبة - أي: القوانين - هي وحدها المصدر الأول للكشف عن كل حكم حقوقي ضروري لحاجات الحياة الاجتماعية. وهكذا فقد قال أصحاب الطريقة التقليدية حول مدونة «نابليون» وما تبعها من القوانين: «إنّ التشريع الرسمي يكفينا وحده للكشف عن جميع الأحكام الحقوقية الضرورية لحاجات الحياة الاجتماعية»، وكان من أبطال هذه الطريقة التقليدية عميد كلية الحقوق في باريس الأستاذ «بلونديو» (Blondo)، حيث صرح في مذكراته إلى مجمع العلوم الأخلاقية والسياسية سنة ١٨٤١م. بأنّ المصدر الوحيد في الوقت الحاضر للأحكام الحقوقية إنّما هو القانون

- ولذلك فهناك اليوم إجماعٌ على أنَّ القوانين أو ما يسمُّونه باسم: الحقوق المكتوبة، هي وحدها المصدرُ الأوَّل والأخير للكشفِ عن كلِّ حُكْمٍ حقوقيٍّ ضروريٍّ لحاجات الأمة الاجتماعية، وبناءً على هذا فقد أفضى من مصادر الحُكْم ما سموه باسم: المصادر غير الصحيحة، وقد عدُّوا في مُقدمتها الاجتهادَ وحسَّ العدالة وفكرة المصلحة العامة

ونرى من كلِّ ما تقدَّم أنَّه ليس في هذه الشرائع - قديمها وحديثها - من اجتهادٍ غير نوعٍ منه، وهو تفسير القانون أو ما يُعبَّر عنه بكلمة: «إنتر بريتاسيون» interpretarion، وحرَّم على المفسرين كلَّ اجتهادٍ يتجاوزُ حدودَ التفسير للقانون، وهذا ما جعلَ من هذه الشرائعِ شرائعَ زمنيةٍ غيرَ قابلةٍ للاستمرار، وعُرْضةٍ للتغيير والتبديل في أصولها على الدوام.

- أما الشريعة الإسلامية، فإنَّ الاجتهاد فيها:

* قد اعتُبرَ أولاً: من جملة مصادر الشريعة الصحيحة إلى جانبِ نصوص القرآن الكريم والأحكام النبويَّة، وذلك كلِّما سكَّتْ نصوصُ هذين المصدرين أو غمضتُ.

* كما أنَّه ثانياً: لم يقتصر الاجتهاد على تفسير النصوص فقط في حالة غموضها، بل عملَ عمله الصحيح أيضاً في حالة سكوتها.

* وثالثاً: فقد أبدع المجتهدون في الاجتهاد، وميَّزوا في الجملة ما بين ثلاثة أنواع منه، ووضعوا لكلِّ نوعٍ قواعده العلمية المنطقية؛ ليميَّزوا بها ما بين الآراء المقبولة اجتهاداً، والأهواء المرفوضة علمًا وقضاءً، كما سنشيرُ إليه فيما بعد، وهذا مما قد عجزَ عنه الفقه الوضعيُّ الحديثُ رَغْماً عن محاولاته المتكرِّرة لوضع قواعد للتفسير والاجتهاد؛ مما قد عجزوا عنه حتى اليوم، كما سنراه أيضاً فيما بعد.

وفوق ذلك، فقد رفعت الشريعة الإسلامية من مكان الاجتهاد في القبول والاعتبار، وحضت عليه بكل قوة فقالت: «للمجتهد أجران إذا أصاب، وأجر إذا أخطأ»، وفي هذا مُنتهى التقدير لحرية الرأي والاجتهاد كمصدر صحيح للشريعة، في الوقت الذي حرمت الشرائع الوضعيّة القديمة والحديثة أن يكون الاجتهاد مصدرًا من مصادرها.

أنواع الاجتهاد وقواعده الإسلامية:

* من المعلوم أن التشريع وليد الحاجة، ومقيس عليها، فما قام تشريع في أمة ولا نُشر فيها قانون، إلا وقد قام في البلاد قبلها حاجة تدعو إليهما، فيأتي التشريع عندئذ ويصاغ القانون على قدر تلك الحاجة.

غير أن الحاجة الداعية نفسها قد يطرأ عليها بعض الطوارئ ما بين عشية وضحاها، فتتنوع وقائعها وتختلف فيها الملاحظات ما بين واقعة وأخرى، بصورة يصبح معها النص القانوني - المصوغ من قبل - على قدر الحاجة منهما بالنسبة لما وقع في ما بعد من أنواع في تلك الحاجة، أو غير واف ولا كاف بالنسبة لما جدّ من ملاحظات في تلك الوقائع الجديدة.

* وأن الأمم في القديم والحديث ما استطاعت، ولن تستطيع النجاة في شرائعها وقوانينها من هاتين الحالتين؛ الإبهام في النصوص، أو عدم الكفاية فيها بالنسبة لما سيجد من وقائع، ولقد جاء في الموسوعة الفرنسية الكبرى للعلوم والآداب والفنون:

إن القوانين التي تضع الأحكام العامة لا تستطيع في الحقيقة أن تتصور جميع الفرضيات الخاصة قبل وقوعها، وأن القوانين قد تكون:

* أحياناً ساكتة تجاه هذه الفرضيات.

* وأحياناً لا تتناولها إلا بصورة غير كافية.

* وأحياناً قد يكون النص غامضاً أو مُبهماً.

ويجب في جميع هذه الأحوال أن يُجبرَ النقص بالبيان والتفسير.

تقول الموسوعة الفرنسية:

«إن قواعد البيان والتفسير ترتبط بالفلسفة أكثر منها بالحقوق الخاصة، وعندما أُريدَ وضع القانون المدني الفرنسي كان من المنتظر في بادئ الأمر أن تُجمع هذه القواعد في فصل من مَطْلَع القانون، غير أن هذا الفصل قد حُذِف من القانون لدى وضع صيغته النهائية».

ثم تابعت الموسوعة الفرنسية فقالت: «وهذا ما جعل القاضي يفسر القانون حين الاقتضاء تبعاً لمواهبه المسلكية تحت مراقبة محكمة التمييز»، ثم لم تلبث الموسوعة أن أعلنت مخاوفها من هذا التفسير الذي يقوم به القضاة - بما فيهم قضاة محكمة التمييز - دون أن يعتمدوا فيه على قاعدة، أو أن يقيسوه بمعيار، فقالت: ومن هنا يُفهم كم هي خطرة هذه السلطة من التفسير؛ ولذلك كان الفقهاء الرومان يقولون: «إن أحسن القوانين هو القانون الذي يترك أقل ما يمكن من الحرية لأهواء القضاة».

- فماذا كان وضع النصوص الأصلية أولاً في الشريعة الإسلامية من كتاب وسنة، تجاه هذه الحاجات الإنسانية المتجددة وغير المتناهية؟

ثم ماذا كان وضع رجال الفقه في الإسلام أمام هذه الضرورة الملحة على وجوب الأخذ بالاجتهاد، وأمام تلك الأخطار المحدقة بالقضاة والمجتهدين؟ هنا تتجلى:

أولاً: معجزة النصوص القرآنية التشريعية وتوجيهاتها الأساسية في ذلك.

ثانياً: إبداع السنة النبوية في البيان؛ شروحاً وإيضاحاً وتطبيقاً.

ثالثاً: إيجاب النصوص القرآنية علينا اتخاذ المسلك النبوي في ذلك البيان أسوة حسنة في ما يجد من وقائع ليست فيها نصوص من كتاب ولا سنة،

وذلك بالاجتهاد المأذون به، والمأجور عليه، بعيداً عن الجهل بالشرعية أو الأهواء المعطلة لها.

رابعاً: عبقرية رجال الفكر الإسلامي والفقه فيه، بوضع القواعد العلمية التي اتخذت معايير مسبقة تُوزنُ بها آراء المجتهدين، وتُدفعُ بها أخطار المتطفلين، وتُحدُّ من أهواء القضاة؛ مما قد عجز عن الوصول إليه عباقرة رجال الشرائع القديمة والحديثة اليوم، كما أشرنا إليها.

- أما المعجزة القرآنية في النصوص التشريعية الإسلامية وفي توجيهاتها، فقد كانت في كفاية هذه النصوص الخالدة وفي إيجازها وشمولها على قلتها، حتى قال فيها «الغزالي» وغيره: إنها لم تتجاوز خمسمائة آية من أصل آيات القرآن البالغة (٦٢٣٦)، بل ردّها بعضهم إلى مائة وخمسين آية؛ ولذلك كان أكثر ما ورد في القرآن من أحكام إنما هو أحكام كلية، وقواعد عامة؛ كما جاهر بذلك الإمام «الشاطبي» في «الموافقات»؛ وذلك كله مما لا يقبل التبديل ولا التغيير علماً وعقلاً، ولا يجوز المساس به عملاً بقواعد الحق والعدل، ومما تجب مراعاته في القضاء، ويجب الاعتماد عليه في الاجتهاد، ومما يمكن إجماله أيضاً وردّه إلى آيتين فقط من قوله - تعالى في سورة النحل - : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ١٠ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ١١ .

- وأن هذا الطابع الكلي العام لآيات الأحكام هو الذي جعل القرآن في كثير من آياته محتاجاً إلى بيان النبي ﷺ ورأيه، وقد قال الله في ذلك لنبيه في سورة النحل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ﴾ ٤٤ ، وقال أيضاً في سورة النساء: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ ١٠٥ .

ولهذا جاءت السُّنَّة النبويَّة إلى جانب القرآن، وفيها بسطٌ لمختصره،
وتفصيلٌ لمُجمِّله وبيانٌ لمُشكِله.

- هذا وإنَّ ذلك البيانَ والرأيَ النَّبَوِيَّينَ إِنَّمَا كانَ للمسلمينَ مدرسةً لهم فيها يتعلَّمون، وبُهِدَها يتفكرون، كيف يصنعون؟ وذلك في كلِّ ما يَجِدُ لهم من وقائع ليس فيها كتابٌ ولا سُنَّة، كما أشارَ إلى ذلك النصُّ القرآني الأول حين قال في النحل: ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، ثم تابع قائلاً: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ﴾؛ أي: يعملون بالاجتهاد بياناً لشرعة الله، حين لا يكون هناك نصٌّ فيما يريدون، وأنَّ الإذنَ بالاجتهاد - بل الأمرُ به حينذاك - مُجمَعٌ عليه لدى كافة المذاهب الإسلاميَّة ومشجَّعٌ عليه، ومأجورٌ به، لا مُحَرَّمٌ عليهم كما جاهرَتْ به الشرائعُ الوضعيَّة.

- وهنا لم يلبث رجالُ الفكرِ الإسلامي - من علماء الشريعة - أن لبَّوا نداءَ القرآن وعرفُوا - بإذنٍ من القرآن نفسه - كيف يفكرون ويجتهدون في كلِّ جديدٍ مما لا نصٌّ فيه من كتاب أو سُنَّة به يحكمون، هذا وقد أدركوا بسرعة - مثل غيرهم اليوم من رجال القانون - حَظَرَ كلِّ تفسيرٍ واجتهادٍ إن لم يكن هنالك قواعدٌ علميَّة يخضعون إليها، وموازينٌ يعتمدون عليها؛ دَعَمًا للحقِّ، وحدًّا للأهواء، ولكنهم وبفضل الطابعِ الكلِّي العام لآيات الأحكام في القرآن، وما انتزعوا منها من رُوحٍ للشريعة بها يهتدون، وقالوا فيها: أينما كانت المصلحة، فثمَّ شرعُ الله، وإن لم ينزل بها الوحي ولا قال بها الرسول ﷺ، وكذلك بفضل البيانِ والسلوكِ النبوي فيه، وما انتزعوا منه من قَبسٍ به يستنبطون، لم تلبث عبقريةُ رجالِ الفقه الإسلامي أن برزت حيث غاضت عبقريةُ الآخرين من رجال القانون، وإن أقاموا عندئذ قواعدهم في الاجتهاد، ومحضوها تمحيصًا، وبنوها على أصولٍ أجمعوا عليها تقريبًا إجماعًا؛ حتى أصبحت منارًا لهم إذا نظروا، ومعيارَهم إذا وزنوا، وجمعوا كلَّ ذلك في علمٍ

ابتكروه ابتكارًا من غير سابقٍ له، وسموه بحق: «عِلْمُ أصول الفقه»، وإن شئتَ فقل: «عِلْمُ أصول الحقوق».

- وكانت العبقريّة لديهم أنّهم في مُجَمَلِ القضايا التي تُعرَض عليهم مما ليس فيه نصٌّ من كتاب أو سُنّة، قد استطاعوا بسرعة أن يردُّوا أبحاثهم فيه إلى قسمين أساسيين؛ هما:

أولاً: قسم يتعلّق بتحديد معنى النصّ المتعلّق فيه البحث من النصوص القرآنية أو النبويّة؛ وذلك من أجلِ مَعْرِفَةِ ما إذا كان هذا النصّ في استطاعته أن يتناول في حُكْمِهِ تلك القضية الحديثة المعروضة، وهذا هو الفرعُ الأول من الاجتهاد الذي تُسمّيه: بالبيان والتفسير أو الاجتهاد البياني.

ثانيًا: قسم آخر يتعلّق باستنباط العِلل المناسبة، وبتحديد رُوح الشريعة، مما يستنبط من رُوح الأحكام المنصوص عليها، ويقدمون لنا في ذلك مبدأً من مبادئ العدل، وأصلًا من أصول التشريع يساعدنا على حلّ القضايا الجديدة المعروضة، والتي ليس فيها نصٌّ خاصٌّ، وإنّ هذا القسم الثاني من الاجتهاد؛ إما أن يكون:

أ. عن طريق الحمل على النصوص القرآنيّة والنبوية بطريقة القياس، ويمكن أن نطلق عليه اسم: الاجتهاد القياسي.

ب. أو عن طريق الرأي الاستصلاحي وفُقًا لمبدأ المصلحة الشرعيّة المطلقة، ويمكن أن نطلق عليه عندئذ اسم: الاجتهاد الاستصلاحي.

ومن القواعد التي أخذَ بها الغزالي الشافعي خِلافًا لإمامه في الأخذ بالمصالح المرسلة؛ حيث قال: أمّا المصلحة، فهي في الأصل عبارة عن جلبِ منفعة، أو دَفْعِ مَضَرَّة، ولسنا نعني ذلك، لكننا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع، ثم قال: «ومقصودُ الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظَ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، وأنَّ كلَّ ما يتضمَّن

حَفِظَ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وأنَّ كلَّ ما يَفُوت هذه الأصول فهو مفسدة، وأنَّ دَفَعَهَا عندئذ مصلحةٌ..

هذا وقد أبدع العلامة شمس الدين أبو عبدالله محمد بن قِيَم الجوزيَّة في تأييد هذا النوع من الاجتهاد؛ كما جاء في مَطْلَع كتابه «الطرق الحكميَّة في السياسة الشرعيَّة»؛ حيث قال: «السياسة ما كان فِعْلاً يَكُون معه الناسُ أقرب إلى الصلاح، وأبعدَ عن الفساد، وإنَّ لم يضعه الرسولُ، ولا نزلَ به الوحي»، وما أبدعَ أيضًا قول ابن قِيَم الجوزيَّة في المقام؛ كما جاء في مَطْلَع الجزء الثالث من كتابه «إعلام الموقعين»؛ حيث قال: «إنَّ الشريعةَ مَبْنَاهَا وأساسُها على الحُكْم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدلٌ كُلُّها ورحمة كُلُّها، ومصالح كُلُّها وحِكْمَة كُلُّها، وإنَّ كلَّ مسألة خرجت من العدلِ إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحِكْمَة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإنَّ أُدْخِلَتْ فيها بالتأويل»، ويَبْقَى الجامعُ لكلِّ ذلك قولُ ابن القِيَم أيضًا في كتاب «زاد المعاد»، تحتَ عنوان «حُكْم الرسول في بيع الرجل ما ليس عنده»؛ حيث قال: «الشرائع مبناهَا مصالحُ العباد، وعدم الحجزِ عليهم في ما لا بُدَّ لهم منه، ولا تتمُّ مصالحُهم في معاشهم إلا به».

- هذا وعلى ضوء فكرة المصلحة هذه التي أُحِيطَتْ بما أُحِيطَتْ به من قواعد حيويَّة خالدة، جَعَلَ المجتهدون من الشريعة الإسلاميَّة - كما أرادها لهم الله - شريعة خالدة محتويَّة على عنصري الحيويَّة والأبدية التي لا تغفل عن المصالح الجديدة التي تحيطُ بالإنسان، والتي لا تقصرُ عن مطالب الأزمان.

ونظرًا إلى متطلبات العصر الحديث من تقرير نظم الكترونية جديدة واكتشافات طبية غير مسبوقة فيجب أن تتقدم جمعيات الفقه الرسمي الإسلاميَّة بسائر أقطار الدول الإسلاميَّة تقرير ما استحدثت من أمور وقيامها على الأحكام الشرعية التي يجب على جميع المسلمين اتباعها بدلًا من تركها لاجتهادات الأفراد سواءً من علماء أو حكام ومسؤولين.

[٨-١٣] الدولة الإسلامية والدولة المدنية:

الدولة في الاصطلاح: هي الهيئة المكونة من عناصر ثلاثة مجتمعة:

- ١- مكان من الأرض يطلق عليه إقليم.
- ٢- طائفة من الناس تسكن الإقليم يطلق عليهم شعب.
- ٣- سلطة يخضع لها الشعب في الإقليم يطلق عليها الحكومة تدبر علاقات الشعب الداخلية فيما بينهم، وتدبر علاقاتهم الخارجية مع الأقاليم الأخرى، وتحمي حدوده ضد الأعداء المحتملين.

موقف الإسلام من نظرية الفلاسفة

لا بد من معرفة أن الخلاف الرئيسي بين الإسلام والفلاسفة هو في رفض الإسلام التام وإبطاله المطلق؛ لعزل الدين داخل دور العبادة، أو جعل قوانين وتشريعات الدين مجرد أحكام عقلية لا تتحول لقوانين ملزمة إلا إذا اختار ذلك الحاكم المدني.

ومعلوم أن الإسلام يرفض بشكل مطلق وتام عملية العزل له عن الحياة المدنية والسلطة التشريعية؛ فالإسلام دين تام شامل لجميع مناحي الحياة يحكمها بالنص تارة، وبالسكوت والعفو مرة أخرى، أو الاجتهاد في فهم النصوص أو ما لا نص فيه، ومرد ذلك إلى الحاكم صاحب الأهلية أو العلماء وأهل الشورى.

وقد دارت نقاشات حادة بين فقهاء الإسلام المعاصرين وبين بعض العلمانيين والبراليين؛ مما أدى إلى عدم الوصول إلى مفاهيم مشتركة.

من ذلك قول د. محمد عمارة: الدولة الإسلامية دولة مدنية تقوم على المؤسسات، والشورى هي آلية اتخاذ القرارات في جميع مؤسساتها، والأمة فيها هي مصدر السلطات شريطة ألا تحل حراماً، أو تحرم حلالاً، جاءت

بِه النصوصُ الدينيةُ قطعيَّةُ الدلالةِ والثبوتِ، هي دولةٌ مدنيَّةٌ؛ لأنَّ النُّظْمَ والمؤسساتِ والآلياتِ فيها تصنعُها الأمةُ.... إلخ.

إن هذا القولَ وأشباهه من تقارير العلماء تكمنُ في المطالبةِ «بدولةٍ إسلاميةٍ» مرجعها الإسلام أو «دولة مدنية إسلامية».

وعندما نرجع إلى مصطلح الدولة الدينية (الثيوقراطية) والدولة المدنية في البيئة التي نشأت فيها (البيئة الوثنية والبيئة النصرانية) نجد أن الأمر جد مختلف، فالدولة الدينية في تصورهم هي الدولة التي يكون الحاكم فيها ذا طبيعة إلهية (إله أو ابن إله)، أو أنه مختار بطريقة مباشرة - أو غير مباشرة - من الله تعالى حسب ما عرف بنظرية الحق الإلهي، ويترتب على ذلك أن يكون الحاكم في منزلة عالية لا يرقى إليها أحد من أفراد الشعب، وأنه لا يعترض على أقواله أو أفعاله، وليس لأحد قبله حقوق أو التزامات، بل عليهم الخضوع التام لإرادة الحاكم؛ حيث لا حق لهم في مقاومته أو الاعتراض عليه، ومن البين أن هذا التصور للحاكم لا وجود له في الفقه السياسي الإسلامي، ولا في التاريخ الإسلامي، فالحاكم بشر خالص ليس له علاقة بالله إلا علاقة العبودية والخضوع لبارئه، وللمسلمين الحق في متابعته ومراقبته ومحاسبته، وكذا مقاومته لو خرج عن حدود الشرع الذي يجب عليه التقيد به.

وقد أوجد هذا التصور للدولة الدينية ردة فعل عنيفة عند مفكري تلك الأمم وفلاسفتهم جرهم إلى اتخاذ موقف مناقض أشد المناقضة، فلم يفهم أن ينفوا المعاني الباطلة المتعلقة بذلك المصطلح، بل بالغوا وغالوا ونفوا أن يكون للدين أي تدخل أو تعلق بالدولة، ومن ثم استعاضوا عن ذلك بوضع الإنسان في موضع الدين، فأصبح الإنسان هو من يضع القوانين، وهو الذي ينظم الأمور، من غير أن يتقيد في ذلك بشيء من خارجه، والدولة التي يحل فيها الإنسان محل الله، تعالى الله عما يقولون ويتصورون ويصفون = هي الدولة المدنية في تصورهم.

«فالدولة المدنية» بمفهومها الحالي ليست لها مرجعية سوى «الإنسان»، ومن ثم فهي مناقضة لتدخل الدين في أي من شؤونها وقضاياها، أي: تقوم بفصل الدولة عن الدين؛ فهي بذلك مرادفة «للدولة العلمانية»، وهذا يتضح بجلاء عندما نجد كل الأطياف المعادية للإسلام - على اختلافها وتنوعها - تنادي بالدولة بمفهومها الحالي، المدنية في مقابل دعوات الإسلاميين لتحكيم الشريعة؛ لأن الدولة المدنية في مفهومهم مناقضة للدولة الإسلامية التي لا يمثل الإنسان فيها - رغم تكريم الإسلام له - أية مرجعية تشريعية، بل المرجعية فيها لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

ومن هنا نعجب الباحث ونستغرب مما يدعيه بعض الإسلاميين بقولهم: «الدولة الإسلامية هي دولة مدنية بالأساس»، وهو مجرد كلام مرسل لم يقيم عليه دليل، وهم عمدوا لبعض التصورات الإسلامية الصحيحة وقاموا بنقلها وإصاقها بالدولة المدنية دون برهان أو دليل، حيث يذكر بعضهم أن الدولة المدنية «تقوم السلطة بها على البيعة والاختيار والشورى والحاكم فيها وكيل عن الأمة أو أجير لها، ومن حق الأمة - ممثلة في أهل الحل والعقد فيها أن تحاسبه وتراقبه، وتأمره وتنهيه، وتقومه إن أعوج، وإلا عزلته، ومن حق كل مسلم، بل كل مواطن، أن ينكر على رئيس الدولة نفسه إذا رآه اقترب منكراً، أو ضيع معروفاً، بل على الشعب أن يعلن الثورة عليه إذا رأى كفراً بواحا عنده من الله برهان» ويقول آخر: «الدولة الإسلامية هي أول دولة مدنية في التاريخ يخضع فيها الناس لسلطة النظام العام أو القانون، ولا تفتش في الضمائر، ولا تملك سلطة حرمان أو غفران»، وهذا الكلام وسابقه لا علاقة له بالدولة المدنية فالتعابير أو المفاهيم أو التصورات السابقة كلها إسلامية تجد في النصوص الشرعية دليلاً وبرهاناً، «والدولة المدنية» في عرف أصحاب المصطلح المعاصر ليست الدولة المتحضرة أو الدولة الراقية التي فارقت البداوة وأخذت بكل أسباب الرقي والتمدن، أو التي فارقت الدولة العسكرية، بل الدولة المدنية عندهم هي الدولة

التي لا يكون للدين فيها أية مرجعية، ومما يمكن أن يستدل به على ذلك كلام الإسلاميين أنفسهم حيث يقولون: نحن نريد دولة مدنية بمرجعية إسلامية فهذا الطلب يدل على أنه ليس من معنى الدولة المدنية تقيدها بدين الشعب ولو كان ذلك داخل في معناها أو جزء من معناها لم تكن هناك حاجة لذلك القيد، ونحن عندما نراجع تعاريف العلماء في كتب الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية لتعريف الخلافة التي تقابل السلطة أو الحكومة في الدولة نجد أن من أركانها متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم والتمسك بالشريعة وسياسة الدنيا بها، ولعل الحرص الشديد على تسويق مصطلح الدولة المدنية والضغط على الحركة الإسلامية كي تستخدمه إنما ذلك بغرض إدخال الأفكار والتصورات العلمانية والتمكين لها بين المصطلحات الإسلامية بعيداً عن مصطلح العلمانية الذي افتضح أمره وملته النفوس السليمة.

والمصطلح الذي ينبغي التمسك به والدعوة إليه في وصف دولتنا هو أن نصفها «بالإسلامية»، والإسلام أحكامه معروفة معلومة دل عليها الكتاب والسنة، فيكفي أن نقول «الدولة الإسلامية» حتى يفهم المراد منها

ولعل من حسن القول بأن الدولة التي نريد هي دولة «العدالة» الممزوجة بقيمة «الحرية والكرامة»، وهذا ما عبر عنه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله «بأن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يرو: أن الله ينصر الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة، وإن كانت مؤمنة»، ومن هنا يمكن القول أن الأمر الأساسي الذي يتعلق بمعنى قوة الدولة يكون في عدلها، وهذا ما سيجعلنا نتجاوز التصنيفات التي تخندق الدولة بكونها دولة دينية أو مدنية أو إسلامية أو علمانية، فوصف الدولة بأنها عادلة أو ظالمة هو منط شرعيتها ومركز قوتها وفعاليتها. والله أعلم.

* ملاحظة:

إننا نلاحظ الهجمات - غير المُبرَّرة - من المُغْرِضِينَ الغربيين والشرقيين، والنقدَ غيرَ الموضوعيِّ من العلمانيين من أبناء جلدتنا (العرب والمسلمين) على الشريعة الإسلامية، وسُنَّةِ الرسول ﷺ، وكأنَّ أنظِمَةَ الديمقراطية والتعاليم المسيحية واليهودية وغيرها لم يُسأَ تطبيقُها في مراحل كثيرة من الزمن!! ولا زالت البشرية إلى الآن تعاني من الاستغلال والحروب وزيادة نُفُوذِ حُكَّامِ البلدان الغربية والشرقية، ومن مُدَّعِي المساواة والحرية والتسامح الديني المسيحي واليهودي، والعولمة والتقدُّم التكنولوجي، وهم أبعدُ عن تنفيذ ما يسمَّى بالديموقراطية التي ابتدعوها، وجرائمهم الإنسانية الموثَّقة خلال التاريخ وإلى القرون الحالية، لم يَصِلْنا مثلها عن أحدٍ من الحكام المسلمين، وبالتالي فلا نريد مزيداً على مسألة سوء تطبيق الشريعة الإسلامية وعدم صلاحيتها للعصر الحديث؛ لأنَّ عدمَ أو سوءَ التطبيق في مراحل مُعَيَّنَةٍ ومتعددة من تاريخنا الإسلامي - والتي ما زلنا نعاني منها إلى اليوم - يعود بشكلٍ أساسي إلى تدخُّلات أصحابِ المصالح، وافتعالِ الحروب والمشاكل، ولكننا بعون الله عز وجل، ثم بهِمَّةِ المخلصين من رجالات الفكر والحُكم والإدارة، سنتجاوز هذه المِحنَ؛ ذلك لثقتنا يقيناً بتحقيق قول الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْوِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (١٧)، وقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢١)، وأن المنافقين المتفعين الذين ينتمون إلى الإسلام إلى زوال، لقوله تعالى في سورة محمد: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (٣٨).

ومن قراءة التاريخ وما نشاهده من بوادر وإرهاصات للنهضة في المنطقة العربية والإسلامية بشكل عام للشباب المتعلم، والذي يبدع في الكثير من

المجالات المدنية والتكنولوجيا، ويقيناً في كلام الله عز وجل في قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۝٥٥﴾، وقوله تعالى في سورة الروم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦٦﴾... هذا كله يبشّرنا بغدٍ أفضل.

ويجدر بنا التنبيه والتأكيد على أن العمل بالسنة الشريفة هو من الواجبات التي نص عليها القرآن نفسه. والسنة لها مهمة البيان لما أجمل، والتخصيص لما هو عام، والتقيد لما هو مُطلق، والتوضيح لما هو مُبهم كتفصيل إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت وغيرها، فلم يفصل القرآن الكريم عدد ركعات الصلاة، ولا مقادير الزكاة نصاً واستحقاقاً، ولا مناسك الحج، فمن مهام السنة النبوية بيان ما جاء به القرآن الكريم مجملاً، لقوله عز وجل في سورة النحل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ۝٤٤﴾.

وهو الذي حكم بحجية قول النبي ﷺ وفعله، والآيات في ذلك كثيرة، منها قوله عز وجل في سورة النساء: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ۝١٥٠﴾، وقوله عز وجل في سورة النساء: ﴿فَإِن نُّنَزِّلْهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۝٩١﴾، وقوله عز وجل في سورة النساء: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۝٨٠﴾.

وقد روى الأوزاعي عن حسان بن عطية قال [كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ ويخبره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك]. وروي عن الفضل بن زياد عن أحمد بن حنبل قال: [إن السنة تفسر الكتاب وتبينه].

وموضوع الأحاديث الشريفة الصحيحة والضعيفة والموضوعة، ودقة كتب الأحاديث - وخاصة صحيح البخاري - قد أشبعت درساً لمئات السنين من قبل علماء الجرح والتعديل، ونتيجتها معروفة، وانتهى الأمر، وإعادة

البحث فيها مَضِيعَةٌ للوقت، وكل ما هو مطلوب في هذه الأيام هو فتح باب الاجتهاد بالفقه عن طريق المجمعات الفقهية في البلدان الإسلامية، والاتفاق على معالجة الأمور المستحدثة من مستجدات العصر في ضوء الأحكام العامة المنصوص عليها في القرآن الكريم وصحيح السنة والقياس وإجماع العلماء كما فعل الفقهاء السابقون في عصور التابعين وما بعدهم.

[٩-١٣] استنتاج وتصوّر لعولمة الشريعة الإسلامية^(١):

من الأمور اليقينية بين كافة المسلمين، أن الشريعة التي أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ صالحة للناس في كل زمان ومكان، ومن طبائع الأمور أن هؤلاء الناس، الذين تتوجه إليهم تلك الشريعة، مختلفون في العقائد والنحل والعادات والتقاليد وغيرها من أمور الحياة، كما هم مختلفون أيضًا في هذه الأشياء بحسب اختلاف أزمنتهم وأمكتهم، فكيف - والحال هكذا - تكون الشريعة التي نزلت في زمن ومكان وبيئة وظروف مختلفة كل الاختلاف عن زماننا هذا، وستختلف أكثر وأكثر كلما تباعدت الأزمنة وتفرقت الأمكنة، كيف ستكون صالحة للناس في كل زمان ومكان؟

هذا السؤال الذي يُلحَّ علينا الآن أكثر من ذي قبل، نتيجة انخراط المسلمين إجباريًا في استحقاقات «العولمة»، يتطلب في تقديري إجابة حاسمة وواثقة وعصرية، لا لأجل عولمة المسلمين فحسب، بل وربما أكثر من ذلك؛ لأجل عولمة أحكام المعاملات الشرعية، حتى نستطيع - نحن المسلمين - تقديم الإسلام بصورته النقية الأولى التي نزل بها أوَّل ما نزل.

«عولمة الإسلام» وفقًا لهذا التوصيف، تتطلبُ البحث عن شيء مشتركٍ بالقبول بين الناس، يَبْنِي عليه كَوْنُ الإسلام نزل لصالح البشر كُلِّهم، مَنْ آمَنَ به وَمَنْ لم يؤمن. وليس أحسنُ من وَصف (الفِطْرَةِ) لاتخاذها إطارًا يَبْنِي

١. مقتبس بتصرُّف من مقال للأستاذ يوسف أبا الخيل، وهو كاتب في جريدة الرياض، ورئيس مجلس إدارة العديد من كُبريات الشركات في المملكة العربية السعودية.

عليه كون الإسلام صالحاً لكل البشر، فمتى ما تمَّ إثباتُ أنَّ الإسلامَ موافقٌ لفطرِ الناسِ كلِّهم، سهَّل القولُ بصلاحية الشريعة التي أتى بها في كل الأزمنة، وعلى كل الأمكنة، ولكل الناس.

ولكي يتمَّ تقديمُ الإسلام بصفته دينَ الفطرة، فإنه يجب - في تقديري - إبرازُ «كُلِّيَّاته» التشريعية التي أتى بها كمقاصدٍ أساسيةٍ من إنزاله للناس، ومن أبرز تلك الكُلِّيَّات التي توافق فطرَ الناس جميعاً:

- قاعدة المساواة [والعدل، مع مراعاة الخصوصية الفسيولوجية] بين الناس، ممثلةً بقوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ (١٣)، مع ضرورة تفسير التقوى، لا على أنها كثرةُ العبادة كصلاةٍ وصوم... إلخ، كما هو التفسيرُ السائدُ، بل على أنها تعني - في المقام الأول - كَوْنُ الإنسانِ عُنْصُرًا نافعًا للبشرية في حياتهم الدنيا، مع مراقبة الله تعالى في أفعاله.

- قاعدة حرية العقائد، ممثلةً بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾ (٢٥٦).

- قاعدة المساواة بين الجنسين الآتية من قوله تعالى في سورة النحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً...﴾ (٩٧).

- قاعدة العلاقة السلمية بين البشر، مأخوذة من قول الله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨).

- قاعدة إرادة اليسر والتسهيل على الناس، ممثلةً بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾ (١٨٥)، وكذلك قوله تعالى في سورة الحج: ﴿... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...﴾ (٧٨).

- قاعدة دَرءِ الْمَفَاسِدِ الآتية من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿... وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۝٣٥﴾.

- قاعدة الْعَدْلِ ممثلةً بقوله تعالى في سورة الحديد: ﴿... لَيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ... ۝٣٥﴾، وكذلك قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧٩﴾.

- قاعدة حُرْمَةِ الْمَسَاسِ بالدماء والأموال، من قوله ﷺ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ» (متفق عليه).

- قاعدة دَرءِ الإضرار بالناس، مأخوذة من قوله عليه الصلاة والسلام: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ» (رواه ابن ماجه)، وكذلك قوله ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» (متفق عليه)، وأيضاً قوله: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ» (رواه الطبراني).

- قاعدة التَّحْيِيْبِ فِي الْجَمَالِ والدعوة إليه، ممثلةً بقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» (رواه مسلم وأحمد).

من خلال هذه القواعد التشريعية العامة التي يتفق عليها البشر جميعاً، يمكن لنا تقديم الإسلام على أنه صالح لكل زمانٍ ومكان، ولكن المقام هنا يطرح علينا سؤالاً هو: كيف نواجه التشريعات الجزئية الفرعية التي اجتهد بها علماء السلف الأفاضل، التي ربما يخالف ظاهرها ما تدعو إليه تلك القواعد العامة الكلية؟ والجواب يكمنُ بقراءتها حسبَ ظَرْفِيَّتِها أو موقعها من هذه القواعد الأساسية العامة، فالجهاد - مثلاً - نعتبره تشريعاً جزئياً بمثابة تقييدٍ لقاعدة السَّلَمِ، ولكنه مربوطٌ بظرفٍ مؤقت، هو الاعتداء على الأمة. والنصوص التي يوحى ظاهرها بالتفريق في المعاملة بين الجنسين، يمكن لنا أن نقرأها من خلال عَزْوِها إلى الفُرُوقِ الفسيولوجية، أو إلى تشريعاتٍ ظرفيةٍ مربوطة بزمانها الذي حدث فيه، [مع مراعاة الأحكام القطعية الواردة

في القرآن الكريم]، مع ضرورة الخروج من أسْرِ التفسير الضيقة التي تحصُر تطبيق تلك القواعد الكلية بالتعامل بين المسلمين فقط، بينما هي في الواقع موضوعة للتعامل بين الناس جميعاً، بغض النظر تماماً عن أديانهم ومذاهبهم.

عندما نواجهُ تشريعاتٍ جُزئيةً تُحدُّ من تعاطي الجمال مثلاً، كما هو الشأنُ مع تحريمِ النَّمصِ، ووَصْلِ الشَّعْرِ، أو العملِ للمرأة، فيمكنُ لنا قراءتها مثلاً من خلال تمديدِ مفعول القاعدةِ الكُلِّيَّةِ التي تُبيح التَّجَمُّلَ للزوج وأمام المحارم، مع التقيّد بما جاء في القرآن الكريم بهذا الصّدّد، فنجعل الجزئيَّ محمولاً على الكُلِّيِّ، أو أننا نبحث عن ظَرْفٍ تشريعها من خلال الرجوع إلى زمنها، وسنجدُ - مثلاً - أن النهيَ عن النَّمصِ والوصل جاء - كما يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور - نتيجةً لأنَّ تلك الأشياء كانت حينها علامةً على ضَعْفِ حصانة المرأة، ومن ثَمَّ فالنَّهْيُ عنها نهْيٌ عن الباعثِ فقط. -انتهى المقال-.

ونرى أن هذا المقال جديرٌ بالبحث من وُلاةِ الأمر، ومن العلماء الأفاضل، وتفصيلِ فقهِ الأولويات؛ لأنَّ مُعظَمَ الدساتير في الدول الإسلامية تشير إلى أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسُ للتشريع؛ لذلك يجب تَقْنِينُ هذه القواعد، وتطويرُ وتنظيمُ آلياتها بِحَرْفِيَّةٍ، ووضعها موضعَ تنفيذٍ وتهيئةِ المجتمعات الإسلامية لتَقَبُّلِ هذه الأفكار التي لا تتناقض مع الشريعة الإسلامية. والله أعلم.

وسُضيف على هذا المقال بعضُ التوصيات الإضافية:

ضرورة فَتْحِ بابِ الاجتهاد - من أهله، وفي محلّه -، للتجديد في الفقه والتشريعات الجزئية والفرعية، طَبَقاً لتغيُّر الزمان والمكان والأحوال والمصلحة العامة للمسلمين، على أن لا يخرج الاجتهاد عن مبادئ الإسلام والأحكام العامة المَنصوصِ عليها في القرآن الكريم والسُّنة الشريفة الثابتة.

وقد ذكرنا سابقاً بعضاً من أصول الاجتهاد في مقال الدكتور محمد معروف الدواليبي، كما إن القضاء والفصل بين الناس في مُنازعاتهم وخصوماتهم يُعدُّ من أهمِّ الأولويات في المجتمع والدولة؛ لتعلقها بحياة الناس وحقوقهم، وإقامة العدل بينهم.

والقضاء وممارسته بحريَّة وعدلٍ حاجةٌ بشريَّة، وضرورةٌ شرعيةٌ، وإن تعدَّدت طُرُقُه واختلَفَت وسائلُه، ولا غنى للمجتمعات عنه، وإنَّ العدل الذي تنشده البشرية لا يتوفَّر في أيِّ نظام قضائيٍّ سوى في القضاء القائم على تطبيق أحكام الله تعالى، والتي لها مبادئ وأصول وقواعد موضوعية وإجرائية تتصافر كُلُّها مع بعضها لتحقيق قيمة العدل في المجتمع.

كما يجب أن تتوفر في القضاة شروطٌ وآدابٌ واستقلال؛ من أجل ضمان النزاهة تحقيقاً للعدالة، وبعيداً عن أيِّ ظلم، ويجب أن يكون القضاء مواكباً لتطوُّرات أدوات التواصل والحفظ الحديثة.

هذا، وينبغي بيان موقف الإسلام من حرية الإنسان، والتي يتشدد بها من يدعون الحضارة، وحرية الإنسان في الاسلام هي ممارسة المسلم أقواله وتصرفاته بإرادة واختيار، من غير قسر ولا إكراه، ضمن حدود ما يحقق المصالح الشرعية، ويدرك المفسد أو الإضرار بالشخص ذاته أو مجتمعه، أو الإضرار بالآخرين.

والحرية في الإسلام تنطلق من أنها حق لكل إنسان فطره الله عليه من يوم ولادته باعتباره إنساناً كرَّمه الله وفضَّله على سائر مخلوقاته، وهي أيضاً في إطار ترك الإنسان يفعل ما يريد ويترك ما لا يريد مختاراً دون إكراه، ولكن ليس له ذلك بإطلاق، وإنما هو مقيد بألا يضر بالغير، أو يترتب على تصرفه إفساد، وإن يراعي تحقيق مصلحة شرعية أو دفع مفسدة عنه أو عن الغير أو عن مجتمعه.

فالحرية في الإسلام مقيدة فيما يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً، فلا حرية مطلقة بتصرف لا يحاسب عليه، أو لنقل: هي حرية موجهة بإرشاد الشارع الحكيم الذي يعلم ما يصلح العبد وما يضره.

وإن من أخطر الحريات وأوسعها الحرية الفكرية، وهي قدرة الإنسان على مطلق التفكير بينه وبين نفسه، بل يعرف الإنسان عند المناطق بأنه حيوان ناطق أو مفكر، فالتفكير صفة في الإنسان لازمة توجد في كل أفراد النوع البشري، ولا يستقيم النوع بدونها.

فالحرية الفكرية حرية مطلقة، وتعني حرية الإنسان أن يفكر في كل شيء يشاء صواباً أو خطأ، حقاً أو باطلاً، خيراً أو شراً، فهذا كله من باب التصور، فله أن يتصور ما يشاء، ثم يقرر ويختار.

وإذا صح هذا في معايير القوانين من النظم والفلسفات باعتبار أن التفكير ذهني ووجداني لا أحد من البشر يمكن أن يطلع على أسرارهِ الفكرية ويحاسبه عليها، لكن هذه الحرية المطلقة هي في الإسلام مقيدة بحيث لا يضر الإنسان بنفسه ولا بغيره، فلا يترك المسلم لعقله وفكره العنان، فيتמادى به التفكير فيما لا طاقة للعقل به فيما قد يدخل في عقيدته الشك والتردد، فللعقل حدود تفكيره، فلا يقدر على ما لا يحتمله ولا يحيط به إدراكه كالغيبات وعظيم عجائب خلق الله، فإن ترك العنان لعقله مجرداً ضل وغوى واستهواه الشيطان؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله عز وجل» [رواه الطبراني]

إن كل ما سبق يجب أن يشكّل حافزاً إضافياً للمسلمين لشحن هممهم، والثورة على الجهل والكسل والتبعية للغير، وتطبيق الشريعة الإسلامية كما أراد الله تعالى ورسوله ﷺ.

والله الموفق.

الفهرس

المجلد الأول

إهداء.....	٥
[١] تمهيد.....	٧
[٢] مقدمة (التغير يبدأ من الوعي بإمكانيات المسلمين في الماضي والحاضر).....	١٣
[٣] أعظم مزية في الإسلام.....	٢٧
[٤] دعوى تعارض الدين الإسلامي والعلم.....	٤١
[٥] مفهوم العلم في الإسلام.....	٥١
[٥-١] وظائف العلم العلوم الطبيعية (Science) وأنواعه.....	٥٢
[٥-٢] أنواع العلم.....	٥٤
[٥-٣] العلم الديني والدنيوي (المادي) وأهميتهما معاً.....	٥٥
[٦] الهوية الإسلامية والعلماء المسلمون المعاصرون.....	٥٩
علماء مسلمون، وشخصيات عالمية معاصرة مؤثرة في العالم.....	٦٣
[٧] الآيات الكونية في القرآن وتوظيفها في الدعوة.....	٦٩
[٨] إعجاز القرآن الكريم وأنواعه.....	٧٣
[٨-١] الإعجاز البلاغي (البياني).....	٨٣
[٨-٢] الإعجاز التأثري.....	٨٤
[٨-٣] الإعجاز الغيبي.....	٨٥

٨٥	[٨-٤] الإعجاز العددي (الحسابي)
٨٥	[٨-٥] الإعجاز التشريعي
٨٦	[٨-٦] الإعجاز العلمي
٨٩	[٩] الإعجاز البلاغي (البياني) في القرآن الكريم
٨٩	مقدمة
٩١	[٩-١] الإعجاز في نظم القرآن الكريم:
٩١	[٩-١-١] تعريف النظم القرآني
٩٤	[٩-١-٢] أمثلة في النظم الإعجازي للقرآن الكريم
٩٤	الخصائص المتعلقة بالأسلوب
٩٦	الخصائص المتعلقة بجمال المفردة القرآنية
٩٧	الخصائص المتعلقة بالجملة القرآنية وصياغتها
٩٩	[٩-٢] البيان في القرآن الكريم:
٩٩	[٩-٢-١] تعريف البيان في اللغة
٩٩	[٩-٢-٢] أمثلة على الإعجاز البياني في القرآن الكريم
١٠٠	الدقة في التعبير القرآني
١٠٢	التكرار ودلالته في التعبير القرآني
١٠٢	الإعجاز في الألفاظ
١٠٣	[٩-٣] البلاغة في القرآن الكريم:
١٠٣	[٩-٣-١] تعريف البلاغة في اللغة
١٠٤	[٩-٣-٢] أمثلة على الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم
١٠٥	[١] لا ترادف في القرآن

١٠٦	[٢] التصوير الفني في القرآن
١٠٧	[٣] الاستعارة
١٠٧	[٤] التشبيه
١٠٨	[٥] الإيجاز والإطناب
١٠٩	[٦] الكناية
١٠٩	[٧] المحسنات البديعية
١١١	[١٠] الإعجاز التأثري (النفسي) للقرآن الكريم
١١١	مقدمة
١١٢	[١٠-١] تعريف التأثر والتأثير
١١٣	- الفرق بين الأثر والعلاقة
١١٣	[١٠-٢] أنواع التأثير
١١٤	- التأثير الموضوعي
١١٤	- التأثير المؤقت
١١٤	- التأثير الدائم
١١٥	[١٠-٣] التأثير والتأثر في الإسلام
١١٥	- تأثير الحضارات
١١٧	[١٠-٤] انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية (الدعوة والتأثير)
١١٧	أ- انتشار الإسلام بالسيف أكلوبةً تدحضها حقائق التاريخ
١١٩	ب- منهج الدعوة (في التأثير)
١٢٠	ج- العمل الدعوي الإسلامي، نبذة تاريخية
١٢٧	د- الدعوة الإسلامية والتنصير

١٢٩	[٥-١٠] العمل التطوعي في الإسلام، وأثره على الأفراد والمجتمعات
١٣٠	الواقع التطبيقي للعمل التطوعي في القرآن الكريم
١٣١	العمل التطوعي في عهد الخلافة الراشدة
١٣٣	ثمرات العمل التطوعي
١٣٤	ضوابط العمل التطوعي في الإسلام
١٣٥	[٢-٣-١٠] تأثير القرآن على الأفراد
١٣٧	[٦-١٠] تطور الإعجاز التأثري للقرآن الكريم
١٣٧	- المرحلة الأولى: مرحلة النشأة
١٣٨	- المرحلة الثانية: مرحلة التأصيل العلمي للإعجاز التأثري
١٤٦	[٧-١٠] موانع تأثر النفس البشرية بالقرآن والانفعال به
١٤٨	[٨-١٠] نماذج من الذين تأثروا بالقرآن الكريم
١٤٩	أ. تأثير القرآن في نفوس الكفار
١٤٩	ب. تأثير القرآن على المنافقين
١٥٠	ج. تأثير القرآن الكريم على أهل الكتاب من العرب
١٥٣	د. تأثير القرآن في غير العرب
١٥٧	هـ. تأثير القرآن في المسلمين
١٥٨	[٩-١٠] آيات من القرآن الكريم للراحة النفسية (التأثير الإيجابي)
١٦٣	[١١] الإعجاز الغيبي في القرآن (والسنة)
١٦٣	مقدمة
١٦٤	[١-١١] لماذا سرّد تاريخ الأمم السابقة
١٦٧	[٢-١١] انسجام الرؤية القرآنية (التاريخية) لظهور الحياة، مع التفسير العلمي

- [٣-١١] المنهج القرآني (الرياضي) في رؤيته التاريخية..... ١٦٨
- [٤-١١] من الإعجاز التاريخي الماضوي في القرآن (والسُنَّة) (الأخبار الغيبية الماضية) .. ١٧٢
- [١] قصة «نوح» عليه السلام..... ١٧٤
- [٢] قصة النبي «موسى» عليه السلام..... ١٧٤
- [٣] اسم «هامان» في القرآن ١٧٤
- [٤] قصة سيدنا «يوسف» عليه السلام ١٧٥
- [٥] لقبُ «ملك» على حاكم مصر في عهد سيدنا يوسف عليه السلام ١٧٥
- [٦] قصة السيدة «مريم» عليها السلام..... ١٧٦
- [٥-١١] من الإعجاز الغيبي للقرآن، الذي تحقَّق في حياة النبي ﷺ (أخبار غيب الحاضر)..... ١٧٧
- [١] موت «أبي لهب» على الكفر ١٧٧
- [٢] حال وأخبار المنافقين..... ١٧٧
- [٣] انتصار الروم على الفُرس ١٧٧
- [٤] انتصار المسلمين المستضعفين في مكة ١٧٨
- [٥] بشرى دخول «المسجد الحرام» ١٧٩
- [٦] قصَّة «مسجد ضرار» ١٧٩
- [٧] حادثة إسرار الرسول ﷺ لإحدى زوجاته (السيدة حفصة -رضي الله عنها-) .. ١٨١
- [٦-١١] الإعجاز التاريخي (الغيبي) المستقبلي في القرآن،
(الأخبار الغيبية المستقبلية):..... ١٨٢
- [١] تحدي الكفَّار أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن..... ١٨٣
- [٢] الإخبار عن المنافقين من الأعراب -أهل اليمامة - أصحاب مسيلمة الكذاب .. ١٨٣
- [٣] بُشْرَى تمكين الدِّين في الأرض ١٨٤
- [٤] أحداث يوم القيامة في آخر الزمان ١٨٥

١٨٦	[٥] السبق العلمي للقرآن
١٨٧	[١٢] الإعجاز العددي في القرآن الكريم
١٨٧	مقدمة
١٨٨	أ. الخلاف في عدد الآيات
١٨٨	ب. الخلاف في عدد الكلمات
١٨٨	ج. الخلاف في عدد الحروف
١٨٩	د. القراءات
١٨٩	هـ. ترتيب السور
١٩٠	[١٢-١] ما هو الإعجاز العددي
١٩١	[١٢-٢] الجذور التاريخية لهذه المزاعم
١٩١	[١٢-٣] لأقسام التي تندرج تحتها مزاعمهم في هذا الباب
١٩٣	[١٢-٤] الخلاصة
١٩٥	[١٣] الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم
١٩٥	مقدمة
١٩٩	حقيقة الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم
٢٠٤	[١٣-١] ومن أهم نقاط إعجاز القرآن الكريم
٢٠٤	[١٣-١-١] الشمول
٢٠٤	[١٣-١-١-١] مقاصد الشريعة الإسلامية
٢٠٤	أ] الحفاظ على الدين
٢٠٧	ب] الحفاظ على النفس
٢٠٨	ج] الحفاظ على العقل

٢٠٨	[د.] الحفاظ على العِرْض (النسل/ النسب).....
٢١٠	[هـ.] الحفاظ على المال (الملكية).....
٢١٢	[و.] الحفاظ على النظام العام
٢١٣	[٢-١-١-١٣] الأحكام في القرآن الكريم
٢١٤	الأول: أحكام اعتقادية.....
٢١٤	الثاني: أحكام خُلُقِيَّة
٢١٤	الثالث: أحكام عملية (فقهية).....
٢١٥	[٣-١-١-١٣] أحكام العبادات (الشعائرية).....
٢١٦	[٤-١-١-١٣] أحكام المعاملات
٢١٦	أ. أحكام الأحوال الشخصية
٢١٦	ب. الأحكام المدنية (المعاملات المالية).....
٢١٧	ج. الأحكام الجنائية (العقوبات).....
٢١٧	د. أحكام المرافعات (القضائية).....
٢١٧	هـ. الأحكام الدستورية (السياسة الشرعية).....
٢١٨	و. الأحكام الدولية (السَّير والمعاهدات).....
٢١٨	ز. الأحكام الاقتصادية والمالية
٢١٩	[٢-١-١-١٣] السَّعة والمُرونة.....
٢٢٠	[٣-١-١-١٣] الإيجاز في آيات الأحكام في القرآن الكريم
٢٢٠	أ. آية الدين (والبيع).....
٢٢٢	ب. آية الزكاة
٢٢٤	ج. آيات الموارد (علم الفرائض):.....

أ. الآيات المجملة	٢٢٤
ب. الآيات المفصلة (على حسب الحالة وموقع الوارث)	٢٢٤
فلسفة الميراث في الإسلام	٢٢٥
مقارنة بين أنظمة الإرث في الديانات السماوية	٢٢٨
أولاً: نظام الإرث في الديانة اليهودية	٢٢٨
ثانياً: نظام الإرث في الديانة المسيحية	٢٣٠
[١٣-١-٤] موافقة الفطرة	٢٣٢
[١٣-١-٥] التقوى ومحاسبة النفس	٢٣٣
[١٣-٢] القضاء في الإسلام	٢٣٦
[١٣-٢-١] الشهادة والشهود في الإسلام	٢٣٩
[١٣-٢-٢] فلسفة النظام العام للحدود والعقوبات في الإسلام	٢٤٠
[١٣-٢-٣] المقارنة للمفهوم العام للعقوبات بين الديانات السماوية	٢٤٢
أ. نظام العقوبات عند اليهود	٢٤٢
ب. نظام العقوبات عند المسيحيين (النصارى)	٢٤٥
ج. نظام العقوبات عند المسلمين	٢٤٨
د. تطبيق العقوبات (الحدود) الإسلامية لغير المسلمين	٢٤٩
[١٣-٢-٤] نظام الحسبة في الإسلام	٢٥٣
[١٣-٣] الفقه في الإسلام	٢٥٦
[١٣-٣-١] في الحقل الاقتصادي والاجتماعي	٢٥٧
[١٣-٣-٢] ضوابط النظام المالي والاقتصادي الإسلامي	٢٥٩
[١٣-٣-٣] نظام الوقف	٢٦١

٢٦٦	[٤-٣-١٣] مكانة الزكاة في الاقتصاد الإسلامي
٢٦٧	أ. زكاة الذهب والفضة
٢٦٨	ب. زكاة بهيمة الأنعام
٢٦٨	ج. زكاة ما يخرج من الأرض
٢٦٩	د. زكاة التجارة
٢٦٩	هـ. زكاة الفطر
٢٧٠	[٥-٣-١٥] تأثير المسلمين في صياغة مبادئ الأخلاق الدولي
٢٧٣	[٦-٣-١٣] تأثير الفقه المالكي في العالم الغربي
٢٧٦	[١-٦-٣-١٣] مدى وجود المذهب المالكي في قانون نابليون
	[٢-٦-٣-١٣] نظام (هيئة المحلفين) المُستحدث في نظام (اللفيف)
٢٧٩	في الفقه المالكي
٢٨٠	[٣-٦-٣-١٣] تأثير الفقه المالكي على القانون الكنسي والفقه اليهودي
٢٨١	[٤-١٣] النتائج المتحققة من الإعجاز التشريعي
٢٨٥	ثانياً: موقف الإسلام من القوانين الوضعية (المدنية)
٢٨٥	تعريفات
٢٨٥	- التشريع
٢٨٥	- القانون
٢٨٥	- الدستور
٢٨٥	- الشريعة
٢٨٦	[٥-١٣] القوانين الوضعية، والعلاقة بينها وبين الدين الإسلامي
٢٨٦	- نشأة وتطور القوانين الوضعية
٢٨٧	- مصادر القواعد القانونية الوضعية

العلاقة التاريخية بين القوانين الوضعية والأديان عمومًا والدين الإسلاميّ	
على وجه الخصوص	٢٨٨
[١-٥-١٣] بعض نقاط تمييز الشريعة الإسلامية على القوانين الوضعية	٢٨٩
مقارنة عامة (مثال) بين الشريعة الإسلامية والقوانين (الوضعية)	٢٩٠
أ. نظرية (مساواة المرأة بالرجل)	٢٩٠
ب. نظرية (الحرية)	٢٩١
ج. نظرية الشورى والديموقراطية	٢٩٣
[١٣-٦] مدى تطبيق الشريعة في البلدان الإسلامية في العصر الحديث	٢٩٥
[١-٦-١٣] صلاحية الشريعة الإسلامية للحُكم والتطبيق	٢٩٦
أ. العرب قبل الإسلام وبعده	٢٩٧
ب. استمرار السيادة العالمية للمسلمين على مدار نحو ثمانية قرون	
في ظل شريعة الإسلام	٢٩٧
ج. التقدم الاقتصادي والعلمي والمعرفي في ظل تطبيق الشريعة الإسلامية	٢٩٨
[١٣-٧] مكان الاجتهاد في الإسلام وفي الشرائع الوضعية	٣٠٠
أنواع الاجتهاد وقواعده الإسلامية	٣٠٣
[١٣-٨] الدولة الإسلامية والدولة المدنية	٣٠٩
موقف الإسلام من نظرية الفلاسفة	٣٠٩
[١٣-٩] استنتاج وتصوّر لعولمة الشريعة الإسلامية	٣١٥
فهرس المجلد الأول	٣٢١

المجلد الثاني

إهداء.....	٣٤١
[١] أليس الكون - الذي خلقه الله تعالى - معجزة؟.....	٣٤٣
تمهيد.....	٣٤٣
أ. عبادة التفكر في خلق السماوات والأرض.....	٣٥٠
ب. الإشارات العلمية (الإعجازية) في القرآن والكون.....	٣٥٣
ج. أسس مباحث الإعجاز العلمي.....	٣٥٨
د. منهجية أبحاث الإعجاز العلمي في ضوء منهج السلف وكلام المفسرين.....	٣٦٠
هـ. أوجه الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة.....	٣٦٢
و. ضوابط البحث في الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة.....	٣٦٣
ز. أهمية أبحاث الإعجاز العلمي، وثمارها.....	٣٦٦
[٢] الإعجاز العلمي، أو الإشارات الإعجازية في القرآن الكريم (بين مؤيد ومعارض).....	٣٧٣
تمهيد.....	٣٧٣
أ. خلفية عقائدية.....	٣٧٤
ب. أشهر المدافعين.....	٣٧٥
ج. أشهر المعارضين.....	٣٧٩
د. أشهر المؤيدين.....	٣٨٦
[٣] مقدمة عن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.....	٣٩٥
تمهيد.....	٣٩٥
أ. الإعجاز العلمي، وتاريخه.....	٣٩٦
ب. الألفاظ المرادفة لهذا المصطلح (الإعجاز).....	٣٩٩
ج. تعريف الحقيقة العلمية، وشروطها.....	٤٠٣
د. تعريف الفرض والنظرية.....	٤٠٤
هـ. الضوابط الاسترشادية للباحثين لاستخراج وجه الإعجاز العلمي.....	٤٠٤
و. التفسير العلمي، وحكمه.....	٤١١
ز. أصول التفسير المتفق عليها عند علماء المسلمين.....	٤١١

٤١٣	ح. الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي.....
٤١٥	[٤] العلم وحقائقه في القرآن الكريم:
٤١٥	تمهيد
٤٢١	أ. إشكاليات نظرية في الإعجاز العلمي
٤٢١	أ-١. بين مفهوم في العلم والدين
٤٢٥	أ-٢. بين الثابت والمتحول
٤٣٠	ب. إشكاليات تطبيقية في الإعجاز العلمي
٤٣٥	أولاً: الإشارات الإعجازية العلمية في القرآن الكريم
٤٣٥	تمهيد:
٤٣٥	أ. في الكون
٤٣٥	أ-١ نشأة الكون
٤٤٠	أ-٢ توسُّع الكون
٤٤١	أ-٣ الحركة في الكون
٤٤٤	أ-٤ ظلمة الكون
٤٤٦	أ-٥ نهاية الكون
٤٤٩	أ-٦ خلق السماوات والأرض
٤٥٠	أ-٧ شمس، لا شمس واحدة
٤٥١	أ-٨ القمر المضيء
٤٥٢	أ-٩ قشرة الضياء
٤٥٤	أ-١٠ كروية الأرض في القرآن
٤٦٢	أ-١١ السماء سقف مرفوع
٤٦٦	أ-١٢ صعوبة التنفس في الطبقات العلّاء للسماء
٤٦٧	أ-١٣ الجبال أوتاد ورواسي
٤٧٥	أ-١٤ الماء أصل كلِّ شيء
٤٧٦	أ-١٥ الموج الداخلي للبحار
٤٨٠	أ-١٦ أصل المياه الجوفية

٤٨٣	أ-١٧ البحر المسجور.....
٤٨٤	أ-١٨ الأرض ذات الصدع.....
٤٨٦	أ-١٩ مواقع النجوم.....
٤٨٧	أ-٢٠. الرياح مُبَشِّرَات.....
٤٩١	ب. في عالم الأحياء.....
٤٩١	تمهيد.....
٤٩٣	ب-١ الإنسان.....
٤٩٣	ب-١-١ نشأة الجنين في القرآن الكريم.....
٥٠٧	شهادات علمية للإعجاز في القرآن الكريم.....
٥٠٨	القرآن بين التلمود وجالينوس.....
٥١١	أسئلةٌ للمُنْصَرِّينَ والملاحدة.....
٥١٣	ب-١-٢ خلق الإنسان في أحسنِ تقويم.....
٥١٦	ب-١-٣ التوازن بين الذكور والإناث.....
٥١٧	ب-١-٤ وليس الذَّكَرُ كالأنثى.....
٥٢٠	ب-١-٥: البنائُ والبصماتُ في الإنسان.....
٥٢٥	٢. البصمة بين الإنشقاق والاصلاح.....
٥٣٠	ب-٢ في الحيوان.....
٥٣٠	ب-٢-١ حوت يونس.....
٥٣١	ب-٢-٢ الطيور.....
٥٣١	ب-٢-٣ هُذْهُدُ سليمان.....
٥٣٤	ب-٢-٤ العنكبوت.....
٥٣٨	ب-٢-٥ الجراد.....
٥٣٩	ب-٣ في النبات.....
٥٣٩	ب-٣-١ إخراج الحي من الميت والميت من الحي.....
٥٤٠	ب-٣-٢ إنبات الحب المتراكب والفواكه المتشابهة وغير المتشابهة.....
٥٤٢	ب-٣-٣ إنباتُ الزروع المختلفِ أَكُلُهُ.....

- ب-٣-٤ السقاية بماء واحد للحدائق المتجاورة والطعوم المختلفة للزرع ٥٤٥
- ب-٣-٥ الإنبات في الأرض موزون بدقة ٥٤٧
- ب-٣-٦ المطر للشرب والرعاية ٥٤٨
- ب-٣-٧ إنبات الحدائق مختلفة الألوان بماء واحد ٥٤٩
- ب-٣-٨ زوجية الإنبات في الأرض ٥٥١
- ب-٣-٩ إحياء الأرض الميتة الجرداء وإنبات النبات ٥٥٣
- ب-٣-١٠ إطعام الإنسان والحيوان المختلف من الأرض الواحدة بزروع مختلفة ٥٥٥
- ب-٣-١١ النار من الشجر الأخضر ٥٥٦
- ب-٣-١٢ شجرة اليقطين (كمثال) وفوائدها ٥٥٩
- ثانيًا: بعض اعتراضات المشكّكين بربانية القرآن وتطابقه مع العلم، والردّ عليها ٥٦٢
- تمهيد ٥٦٢
- ١ - الكون ٥٦٣
- ١-١ الاعتراض الأول: زوجية الكائنات الحية! ٥٦٣
- ١-٢ الاعتراض الثاني: مدة خلق الكون (ستة أم ثمان أيام؟) ٥٦٥
- ترتيب الخلق قريبًا ٥٦٩
- ٢-٣ الاعتراض الثالث: هل تنقص الأرض من أطرافها؟ ٥٧٠
- ٢-٤ الاعتراض الرابع: والصبح إذا تنفس، هل يتنفس الصبح؟ ٥٧١
- ١-٥ الاعتراض الخامس: كيف يوجد جبال من برد في السحب؟ ٥٧٥
- ١-٦ الاعتراض السادس: إغفال القرآن عن تبخّر الماء قبل ارتداده للأرض ٥٧٦
- ١-٧ الاعتراض السابع: كيف يخرج اللؤلؤ من الأنهار؟! ٥٧٧
- ٢-عالم الأحياء ٥٨٠
- ٢-أ-أ. الإنسان ٥٨٠
- ٢-أ-١ الاعتراض الأول: هل مدة الحمل تسعة أشهر أم ستة أشهر؟ ٥٨٠
- ٢-أ-٢ الاعتراض الثاني: هل يفكر القلب؟ ٥٨٢
- ٢-أ-٣ الاعتراض الثالث: المني من الصلب والثرائب ٥٨٤
- ٢-أ-٤ الاعتراض الرابع: هل أخطأ القرآن في حساب الميراث؟ ٥٨٧

ب- الحيوان.....	٥٩٠
٢-ب-١: الاعتراض الأول: هل الدواب أممٌ أمثالكم (مثل بني بشر)؟.....	٥٩٠
٢-ب-٢: الاعتراض الثاني: هل يتكلم النمل؟.....	٥٩١
٢-ب-٣: الاعتراض الثالث: هل يخرج العسلٌ من بطون النحل؟.....	٥٩٣
٢-ب-٤: الاعتراض الرابع: هل يخرج اللبن من بين فرث ودم؟.....	٥٩٥
ج- النبات.....	٥٩٨
ثالثاً: نتائج البحث الذي توصل إليه الدكتور سامي عامري -حفظه الله- في كتابه «العلم وحقائقه، بين سلامة القرآن، وأخطاء التوراة والإنجيل».....	٦٠٠
[٥] الإشارات الكونية والإعجاز العلمي في السنة النبوية المطهرة	٦٠٥
تمهيد.....	٦٠٥
١-٥. ضوابط البحث عند تقرير الإعجاز العلمي في السنة النبوية الشريفة.....	٦١٠
٥-٢. مهام الرسول محمد ﷺ.....	٦٢٠
٥-٣. معجزات الأنبياء والرسل.....	٦٢٢
٥-٣-١ أنواع المعجزات.....	٦٢٢
أ) المعجزة الحسية.....	٦٢٣
ب) المعجزة المعنوية الدائمة.....	٦٢٤
٥-٣-٢ عصمة الرسل.....	٦٢٥
تعريف العصمة.....	٦٢٥
تعريف العصمة في الشرع.....	٦٢٦
الأمر التي عُصِم منها الأنبياء.....	٦٣٠
هل الأنبياء معصومون من الصِّغائر غير المنفردة؟.....	٦٤٠
عصمة الأنبياء من الأمراض المنفرة.....	٦٤٣
٤-٥. الفرق بين الأحاديث النبوية الخاصة بالتشريع وغيرها.....	٦٤٤
٥-٥. بعض الأحاديث الشريفة التي هي من الإعجاز العلمي.....	٦٥١
٥-٥-١ الحديث الأول: إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض.....	٦٥١
٥-٥-٢ الحديث الثاني: إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت	

- ٦٥٦ فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.....
- ٦٦٠ ٣-٥-٥ الحديث الثالث - تحديد جنس الوليد بإذن الله تعالى.....
- ٦٦٠ إثبات خلق الزوجين من نطفة إذا تُمْنَى.....
- ٦٦٥ ٤-٥-٥ الحديث الرابع: ما من عام بأقل مطراً من عام.....
- ٦٦٨ ٥-٥-٥ الحديث الخامس: البحر المسجور.....
- ٦٧١ ٦-٥. بعض الاعتراضات على أحاديث الرسول ﷺ.....
- ٦٧١ ١-٦-٥ الاعتراض الأول: سبب التذكير والتأنيث.....
- ٦٧٣ ٢-٦-٥ الاعتراض الثاني: تفسير الشبهة.....
- ٦٧٤ ٣-٦-٥ الاعتراض الثالث: زمن تحديد جنس الجنين.....
- ٦٧٥ ٤-٦-٥ الاعتراض الرابع: نفخ الروح.....
- ٦٧٦ ٥-٦-٥ الاعتراض الخامس: ويعلم ما في الأرحام.....
- ٦٨٠[٦] الخاتمة.....
- ٦٨٧ الأسبقية الزمنية سر الإعجاز العلمي للقرآن.....

